صلاح شكيرو

إمبراطورية الرمال

دار الساقي

صلاح شكيرو

إمبراطوريّة الرِّمال

دار الساقي

صلاح شكيرو

إمبراطورية الرِّمال

هذا الكتاب مُجازٌ لمتعتك الشخصية فقط. لا يمكن إعادة بيعه أو إعطاؤه لأشخاصٍ آخرين. إذا كنت مهتمّاً بمشاركة هذا الكتاب مع شخصٍ آخر، فالرجاء شراء نسخة إضافيّة لكل شخص. وإذا كنتَ تقرأ هذا الكتاب ولم تشتره، أو إذا لم يُشترَ لاستخدامك الشخصي، فالرجاء شراء نسختك الخاصّة. شكراً لك لاحترامك عمل المؤلّف الشاق.

Le tycoon et l’empire des sables Salah Chekirou Editions A.C.A. -Alger 2006) Tous les droits réservés à L’auteur © 2012 ،2008 صلاح شكيرو
جميع الحقوق محفوظة
2008 الطبعة الورقية الأولى،
2012 الطبعة الإلكترونية،

ISBN-978-614-425-370-0

دار الساقي
بالاشتراك
بناية النور، شارع العويني، فردان، بيروت. ص.ب.: 5342/113. الرمز البريدي: 6114 - 2033
هاتف: 866442 1 961، فاكس: 866443 1 961

e-mail: **info@daralsaqi.com**

يمكنكم شراء كتبنا عبر موقعنا الإلكتروني
www.daralsaqi.com

إنّ الروايةَ عملٌ تحضيريٌّ، يحظى بقوةِ إقناعٍ أكبرَ منَ الأرشيفِ ومنَ الوثيقةِ التّاريخيّةِ. غيرَ أنّها عندما تصبحُ مبالغاً فيها تعطي نتائجَ منحرفة»

الشخصيات الأساسيّةُ بحسبِ ظَهورِها

محمّد شماسّي: رئيس محطّة خُرطال للطّيران في الجزائر، زوجُ العكري.

رياض خُرطال: ابن العربي خُرطال، صبيٌّ ذهبيٌ أصبح من أكبر رجال المال رغماً عنه. خليفة الخليفة! رئيس مجموعة خُرطال الاقتصادية (خُرطال هولدينغ) الّتي تضم سبعَ مؤسّساتٍ من بينها خُرطال بنك، خُرطال أيروايز، خورطال نيوز، خُرطال تي. في... إلخ.

العكري: زوجة محمّد شماسّي.

زهور: ابنة عم العكري.

سمير شكّوت: المدير العام لمصرف خُرطال.

خُرطال بنك: مصرف مجموعة خُرطال الاقتصادية وعمودها الفقري.

سلهوب: متعهّدٌ جزائريّ، صديقٌ لسمير شكّوت.

خُرطال تي.في: قناة تلفزيونيّة تابعة لمجموعة خُرطال الاقتصاديّة، تبثُّ من باريس.

خُرطال نيوز: قناة تلفزيونيّة أخرى تابعة لمجموعة خُرطال الاقتصادية، تبثُّ من لندن.

جويدا خُرطال: زوجة رياض خُرطال.

مهدي قصّاص: صديق الطّفولة لرياض خُرطال وشريكه.

جمال غيرماط: صديق طفولةٍ لرياض خُرطال ومدير خُرطال تي. في ومدير مكتب رياض خُرطال.

صابر خرف الله: رئيس محطّةِ خُرطال أيرويز في برشلونة.

DIS: دائرة التّحرّي والأمن.

سي سليم: المدير العام لخُرطال أيرويز.

عادل إمام: ممثّلٌ هزليٌّ مصريّ.

بن بورويس طاهر: ضابط قائد في دوائر الأمن، متقاعد، مستشار مجموعة خُرطال الاقتصاديّة.

ENTV: قناة تلفزيونية تابعة للدّولة.

SM : الأمن العسكري.

محمّد لقرع: المسؤول الإعلامي في مجموعة خُرطال الاقتصادية.

زهرا: صديقة قديمة لرياض خُرطال، أصبحت محقّقة في صحيفة الـ «Le Pays» .

السّيناتور: جنرال متقاعد، مستشار، وأحياناً ذو سلطة مُطلقة.

عمرو: مدير النّشر في صحيفة الـ «Le Pays» صحافي مأجور لدى خُرطال في.

دردور محمّد: مدير النّشر في صحيفة الـ «L'Aurore» وصحافي مأجور لدى خُرطال في.

حميود درابكي: وَسيطٌ مساعدٌ قديم، مدير صحيفة الهدرة، صحافي مأجور أيضاً لدى خُرطال في.

غانيا أكفادو: صحافيّة في يومية «Le Pays» ، وصديقة لزهرا.

طاهر: سكرتير التّحرير في يومية «Le Pays» .

سليم سويكي: نجم إذاعي يقدّمُ أخبار السّاعة الثّامنة في القناة التلفزيونيّة التّابعة للدّولة.

محمود بدري (بن رويبح): عقيد في دائرة التّحري والأمن كان يشغل منصبه في بيروت لكنّه استُدْعيَ لكي يترأس خليّة «مراقبة الفساد وقمعه»، قسم خليّة المعلومات والتحريّات الماليّة CERIF آخر في الـ.

حاج بيتّو: رجلُ مالٍ طارقيّ أوقِفَ وحوكِمَ بقضيّةِ شائكة عرفت بالـ D15 .

مُختاري حميد: ضابط في دائرة التّحري والأمن سقط برصاص الإرهابيين.

أسامة بن لادن: رجلُ أعمالٍ غني تحوَّل إلى الدّين الإسلامي السّياسي. رئيس تنظيم القاعدة الّذي تبنّى هجمات الحادي عشر من سبتمبر/ أيلول عام 2001 في الولايات المتحدة الأميركيّة.

المرخيات والدهاميز: منطقتان تقعان في شمال الخرطوم، وهما مركزان لِبن لادن وتنظيمه قبل حربِ طالبان.

سامي بو ضحكة: مدير مطعم أروما وصديق محمود.

فاوو فيرّات: موظّفة في البعثة الاقتصاديّة والاجتماعيّة لدى السّفارة الفرنسيّة في بيروت، صديقةُ محمود.

عزّابة: جيماب سابقاً، مدينة تقع على بُعدِ 700 مترٍ شرقيّ مدينة الجزائر.

بيبلوس: مدينة جبيل اللبنانيّة تقع في شمال شرقي بيروت.

بيبي: صاحب مطعم مشهور في مدينة جبيل. يزوره الكثيرون لتذوّقِ السّمك الطيِّب.

مارسيل خليفة: موسيقار ومغنٍ لبنانيّ.

محمود درويش: شاعرٌ فلسطيني.

دحمان: سكرتير الجنرال الخاص.

إدريس بو خدنة: ضابط في دائرة التحري والأمن، خبير مالي، أحد مساعدي العقيد محمود.

جوزيف: مدير وكالة اتّصال وصديق محمود ومحمّد شماسّي.

ماريو: ضابط آخر في دائرة التحرّي والأمن، أحد مساعدي العقيد محمود أيضاً.

أحمد تلفيف: جنرال متقاعد، هو المساعد الأساسي للجنرال رئيس الجمهوريّة.

محمّد دُغمة وعبد الكريم كرومة: مساعدان في الدّيوان الرّئاسي.

دوجا: والدة رياض خُرطال.

سونيا: شقيقةُ رياض خُرطال.

قادر: طبيبٌ في مستشفى.

FIS : جبهة الإنقاذ الإسلاميّة.

عبّاس الملغاش: صديق والد رياض خُرطال.

عبّاس الفيركيزو: أحد شهداء حرب التّحرير.

الأشباح: شرذمة من بني البشر تتولّى زمام السّلطات؛ ولكن ليس كلّ السّلطات، تسترشد بالماسونيّة في تنظيمها.

البروفسّور: طبيب. يمثّلُ الذّكاءَ في خدمةِ الجانبِ الغامضِ مِنَ القوّة، يسمّونَهُ باكو، ابن آوى.

مالك، الرّائد: رئيس مكتب سعادة اللواء.

الجنرال فوكس: العرّاب الحقيقيّ.

فيسّي سونكريس: مواطنٌ فرنسيّ مساعد لرياض خُرطال.

رغيد شمّاع: مواطنٌ لبنانيّ مساعدٌ لرياض خُرطال.

بوب ماك غير: أحد مساعدي رياض خُرطال.

فرانسوا لا تروف: مسؤول في دائرة الاستعلامات والأمن الخارجي الـ DGSE .

كورتكوس العقيد: ضابط في دائرة الدفاع عن الإقليم الـ DST .

الطّيب، العقيد: ضابط متقاعد في الأمن.

طاهر المرسيلي: قريبٌ لمحمود صاحب كباريه القصبة.

بندو وعلي خريبقة: من روّاد كباريه القصبة.

شاجية: رئيسة تحرير نشرة أخبار السّاعة الثّامنة في خُرطال تي. في.

مُراد أ.: مدير الأخبار في خُرطال تي.في.

دُنيا: مقدّمة أخبار السّاعة الثّامنة في خُرطال تي.في.

جازيا د.: خالة رياض خُرطال ومديرة خُرطال تي. في. بعد اعتقال جمال غيرماط.

مهدي بن عيسى وجوليان: مخرجان في خُرطال تي. في. وممثّلانِ نقابيّان.

الفصل الأول

حالة تلبّس

اشتغل محمد شماسّي في كلِّ المحطّاتِ الّتي يتوقّفُ فيها الطيرانُ المغربيّ. وكانت تنقّلاتُه هذه تتمُّ في المدن الدّاخليّة وفي مختلفِ العواصمِ العربيّةِ والأوروبيّةِ وَفقَ تنقّلاتِ المسؤولينَ في شركةِ الطّيرانِ الحكوميّةِ.

كان محمدٌ قبلَ توظُّفِهِ في شركةِ الطّيرانِ الخاصّةِ الجديدةِ قد فقدَ حظوتَه تماماً لدى كبارِ المسؤولين عن الخطوط الجويّة المغربيّة.

لم يعد صهرُ عمِّهِ متفقاً مع أصحابِ النُّفوذِ والأمرِ والنّهي داخلَ دهاليزِ السّلطةِ منذُ إحالتِهِ على التّقاعدِ قبلَ الأوانِ في سنِّ السّادسةِ والخمسينِ، ولم يعدْ بالتّالي باستطاعتهِ أن يُؤمّنَ له الدّعمَ الضّروريَّ ولا مساعدته في التقدّمِ في مهنتِهِ الذّهبيّةِ عبر مختلف محطّاتِ التّوقّف في باريسَ ولندنَ وروما وأثينا وإسطنبولَ الّتي يفضّلها بشكلٍ مميّزٍ بسببِ العددِ الكبيرِ من تجّار الحقيبةِ بمختلفِ أنواعهم فيها. ففي هذه المحطّةِ الأخيرةِ جمعَ فهرساً ضخماً لأسماءَ وعناوينَ تسمحُ له بولوجِ شبكةِ سادة التَجارةِ الخارجيّة في بلدِهِ.

وباعتمادهِ على رصيدِ العلاقاتِ هذا، وعلى لائحةِ الخدماتِ الّتي كان قد أسداها في الماضي إلى رياض خُرطال يومَ كان مجرّدَ مستوردٍ عادي للأدويةِ لحسابِ غيرهِ، لم يجدْ أيةَ صعوبةٍ في العملِ لدى شركة طيران خُرطال وانتزاعِ منصب رئيس المحطّة اللامعِ في مطار مدينةِ الجزائر.

هذا المنصبُ سمح لهُ من جهةٍ بالبقاء على تواصلٍ دائم مع النخب الحاكمة ـ فالأماكن في الطّائراتِ المتوجّهةِ من مدينةِ الجزائرِ وإليها عندما يحِلُّ موسمُ الاصطيافِ تصبحُ صعبةَ المنالِ إلى كلتا الشّركتين ـ ومن جهةٍ أخرى يسمحُ له منصبُهُ هذا بالبقاءِ على اتّصالٍ مستمرٍ مع كلِّ مديريّ الهولدينغ الحديثِ العهدِ الّذي في أوج توسّعه.

لقد أصبحَ أحدَ أكبرِ الّرجالِ المرموقين على مستوى الدّائرة الثّانية في محيطِ البيغ بوس الولد الذّهبيّ رياض خُرطال.

قال محمّد لنفسِهِ وهو يُطْبِقُ غطاءَ هاتفه المحمول: «أَووف...أخيراً![احشيناه] لقد فزنا..! سهرةٌ هادئةٌ مُرتقبة». لكنه لشدّةِ تأثّرِهِ لم يكنْ يدركُ أنّه كان يتكلّمُ بصوتٍ مرتفعٍ.

كان محمد شماسّي قد أخذ لتوّهِ موعداً مع مقاولٍ في مطعمٍ مرموقٍ يديرهُ مسؤولٌ قديمٌ في الأمنِ العسكريّ.

لم تكنْ زوجتُهُ تكفُّ البتة عن إزعاجِهِ بنواحِها، فهي تلومهُ على تركِهِ الأمور تجري في أعِنّتِها، وعلى تساهلِهِ حيال سيرِ أعمالِ البناء في فيلّتهم الواقعةِ عند المدخلِ الشرقيّ لِـمدينة «زيرالدا».

لقد اختفى المقاولُ، الّذي التزم إنجاز الأشغالِ الكبرى لاثنتي عشرة فيلّلا هي أول نواةٍ للتّعاونيّةِ العقاريّةِ «الصّدقة»، دون سابقِ إنذارٍ ولم يتركْ أيَّ أثرٍ له، ولم يكنْ قد أنجزَ سوى بعضِ الأرضياتِ وأساساتِ لثلاثِ فيللاتٍ فقط.

ومنذ ستّةِ أعوامٍ ومحمد شماسّي عاجزٌ عن تمييزِ حدودِ أرضِ البناء الّتي كسِبها عن طريقِ صهرِ عمّهِ الّذي ورّطهُ مع طاقم شركاء هذه التّعاونية.

كانت زوجته «العكري» تراكمُ اليأسَ فوقَ اليأسِ في شقّتهم الجميلةِ في حيّ «بوروبا» منذ أن استقرّتْ ابنةُ عمّها «زهور» في فيلّلا اشترتْها جاهزةً بمبلغِ مليارَي سنتيم ونصف المليار.

إنّ وجودَ هذا القدرِ الطائلِ من المالِ في متناولِ يدِ مجرّدِ نقيبٍ في الجيشِ تكيّفَ مع تجارةِ السّياراتِ، جعل الثرثرة تدورُ في محيطهِ مدّةٍ طويلةٍ.

أمّا بالنّسبةِ إلى العكري فالقصّة مختلفة جدّاً. لم يكن بإمكانها تقبُّل فكرة أنّ زهور هذه الفظّةَ غير المثقّفة الّتي لم تتمكن من تخطّي الصّفِ التاسعِ أساسيّ، تلك الآكلةُ الّشحمِ الوسِخِ وزيوت السّيارات المستعملة (والدها ميكانيكيٌّ يعملُ لحسابِهِ الخاصِّ) تسبقها في تَملُّكِ فيلاّ، وترتقي إلى مستوى طبقةٍ اجتماعيةٍ أهمِّ من طبقتها، وهي المتخرّجةُ في كليّةِ علمِ النّفسِ، وابنةُ مديرِ ثانويةٍ وزوجةُ جامعيّ.

تعتبرُ العكري كلَّ يومٍ تقضيهِ في شقّتِها في حيّ «بوروبا» إهانةً إضافيّةً لها. إنّها تتخيّلُ نفسها موضعَ سُخريةِ عائلتها كلِّها. وهكذا فإنّ محمد شماسّي يبقى

مرعوبًا من تَذَمّرِ زوجتهِ العكري المستمرّ، والّتي هي دائمة الشكوى على نحوٍ فظيعٍ ودائم.

وبعدَ تعيينهِ في خُرطال أيروايز، أصبح الصّمتُ ردَّ فعلِهِ الوحيدِ الّذي يعتمدُهُ دومًا. ومع ذلك بذلَ كلَّ جهدهِ للحصولِ على ذلك الموعدِ. وكان من غرائبِ المصادفات أن يكتشفَ أن المتعهِّدَ المَعْنِيَّ كان زبونًا لدى مَصرفِ خُرطال.

كان المديرُ العامُّ لمصرفِ خُرطال سمير شكّوت صديقَ الطفولةِ لرياض خُرطال رئيسِ الشّركة، قد عرّفَهُ به قبلَ أسبوعٍ عندما كان برفقة زوجته في المطار.

المتوجّهةِ «AM 6271» لم يكن لدى زوجةِ المقاولِ حجزٌ على متن الرحلة إلى باريس، الرحلة نفسها الّتي كان سمير شكّوت يستعدُّ للسفرِ عليها.

كان قد تخلّفَ مساءَ الأمسِ عن طائرةِ مديرِهِ النفّاثة الخاصة «جت 1011». عندما دخل بهوَ المطارِ أسرع الخُطى نحو مكتب رئيس المحطة. سمعَ من الخلفِ اسمَهُ يُلفَظُ بصوتٍ ذي نبراتٍ متقطّعة. التفتَ فجأةً فوجد نفسَه وجهاً لوجهٍ مع صديقهِ المقاولِ سلهوب برفقةِ شابّةٍ جميلةٍ جدّاً وطويلة في الثلاثين من العمرِ وقد سكنتْ علاماتُ القلقِ الشّديدِ تقاسيمَ وجهِها البهيّ.

سلهوب الّذي كان يحملُ بيدهِ مغلّفًا لتذكرةِ سفرٍ على الطّيرانِ المغربيّ، كان قد نسيَ تماماً تأكيدَ حجزِ سفرِ زوجتِهِ. واعتقدَ أنّه سيكونُ من السّهلِ الحصولُ على مكانٍ في لائحةِ الانتظار على متنِ أوّلِ رحلةٍ متوجّهةٍ إلى باريس، باعتبارِ أنّ هذه الرحلةَ مبكرةٌ جدّاً. لكن الأمرَ لم يكن كذلكَ هذهِ المرّة، فلم تفتحْ لائحةُ الانتظارِ إلاّ بالنّسبةِ إلى بقيّةِ الرّحلاتِ خلالَ النّهار.

تعانقَ الرّجلانِ وتبادلا عباراتِ المودّةِ المعتادة. شدّتْ زوجةُ سلهوب بحرارةٍ على يدِ هذا المجهولِ الممدودة والّذي يمكنُ أن يكونَ منقذها هذا الصباح. لاحتْ من طرفِ عينها إشراقةٌ وهي ترى غلاف تذكرة السّفرِ ينتقل إلى اليدِ الأخرى ويختفي في جيب سترةِ هذا الرجلِ الأنيقِ جدّاً.

دعاها زوجُها كي تتبعهما وهو يضغط بِخفّةٍ على ذراعها. توجّهَ سمير شكّوت بخطى ثابتةٍ يتبعُهُ الزّوجانِ نحوَ مكتبِ رئيسِ المحطةِ في شركتِهِ.

انتفضَ محمد شماسّي عندَ رؤيةِ أحد مديريّ الشّركةِ في المطارِ في هذا الصباحِ الباكرِ. بعدَ أن قبّلَ بشكلٍ آليٍّ المسؤولَ الماليَّ لمجمَعِهِم.

تأمّلَ محمد شماسّي الزوجينِ الواقفينِ خلفَهُ ببضعِ خطواتٍ. قفزَ قلبُهُ في صدرِهِ:«سحقاً!» قالَ لنفسِهِ «ضربةٌ أخرى....اسْتِرْها يا ربّ، هذه المرّةَ أيضاً». كانت ردّةُ فعلهِ نتيجةً لتحركاتِ مفتّشي الجمارِكِ الحثيثةِ والبلبلةِ العارمةِ في المطارِ هذا الصّباح.

كان يتأهّبُ لتوجيهِ بعضِ العباراتِ المخنوقةِ إلى المصرفيّ عندما رأى هذا الأخيرَ يُخرجُ من جيبِ سترتِهِ اليسرى مغلّفَ تذكرةِ السّفرِ.

ـ «ليس هذه المرّة، الحمدُ للهِ! ليس هذه المرّة،» قال لنفسِه«وإلاّ فمع ما يجري هذا الصّباح، ستحلُّ الكارثةُ لا محالة!»

منذ شهرِ مارس/آذار 2002 كان يشاركُ بشكلٍ سلبيٍّ في تنظيمِ رحلاتِ الذّهابِ والإيابِ الّتي لا تتوقّفُ لموظفي شركاتِ المجمع من مختلف الرّتبِ والمهمّات المتداخلة. يتقدّمُ هؤلاءُ الموظّفونَ غالباً في الدّقيقةِ الأخيرة، تماماً قبلَ إقفالِ تسجيلاتِ رحلاتِ شركتهِ، يطلبون التّوجّه إلى باريسَ، مرسيليا، مدريدَ، ميلان، روما أو إلى فرانكفورت، وعليه هو أن يسعى إلى إيجادِ أماكنَ لهم والأحرى إلى مساعدتِهم في إتمامِ ترتيباتِ المرور: لأن تعليماتِ مديرِهِ واضحةٌ ولا لبسَ فيها.

فذاتَ صباحٍ من أوّل أسبوعٍ من شهرِ مارس/آذار 2002، وبينما كان يستعدُّ لمغادرةِ صالةِ الاجتماعاتِ الفاخرةِ في فرعِ الشّركةِ الجويّةِ في «بئرخادم» في خِتامِ اجتماعٍ تنسيقيّ، دعاهُ مديرُهُ العامُّ كي يتبعَهُ إلى مكتبِهِ فوجدَ سمير شكّوت في مكتبِ المديرِ العامِّ لخُرطال أيروايز.

كانَ الرجلانِ لطيفين جدّاً معه:

ـ«اسمع يا محمد، نحن بحاجةٍ إلى فعاليتكَ ولباقتكَ في هذه الأيامِ. هناك بعضُ الأشخاصِ الرجعيّين في النظامِ يريدونَ تحطيمَ خُرطال وعرقلة انطلاقتِنا».

ـ«لم أفهمْ، كيف يمكنني أن أكونَ مفيداً؟

ـ«أنت تعرفُ، الغيرةَ. نجاحُنا لا يتركُ المستفيدين من رواتبِ النّظامِ غيرَ مبالين. فهناك هذه الأيامُ مناوراتٌ كبيرةٌ تستهدفُنا وتحاولُ أن تجرِّعَنا الكأسَ. نحن لدينا كمّ من المتاعبِ وهم يبردونُ أظفارهم ويتحرّشون بنا. علينا أن نشُنَّ هجوماً معاكساً بسرعةٍ كي نُحْبِطَ مناوراتهم. وأنت يا صديقي، انطلاقاً من وضعكَ في المطار، بإمكانك أن تقدّمَ لنا مساعدةً قيّمة».

ـ«لم أفهم بعد، [يا خويا] يا أخي سمير، ماذا تنتظرُ مني! [كاش بروبلم أوصَلْكوم منّي] هل وصلتْكُم شكوى عنّي؟»

ـ«لا! حاشا! [لا مشكلة معك] هذا لا علاقةَ له بعملِكَ! أأنت مجنون؟ نحن بحاجةٍ إلى علاقاتِكَ مع دائرة جماركِ المطارِ. أنت تعلمُ أنّ الـ «بيغ بوس» يريدُ أن يُطْلقَ قناةً تلفزيونيّةً قبل موعد الدّخولِ إلى المدارسِ في العام المقبلِ، هذا يكلّفُ الهولدينغ غالياً. نحنُ ليس لدينا وسائلُ أخرى للتّمويلِ غير هذه...»

ـ«أيُّ وسيلةٍ؟ أُعذرني، لم أفهم بعد كيفَ يمكنُ أن أكونَ مفيداً في هذه المسألة».

ـ«محمد! [بركانا من الفيس] كفاكَ لعباً بالكلامِ... أنتَ تعرفُ أنّ البيروقراطيّةَ القابعةَ على كلّ شيءٍ تعرقلُنا في انطلاقتِنا وفي توسّعِنا، لن نتمكنَ منَ متابعةِ مشاريعِنا كما يجب، إننا بحاجةٍ إلى الاستعانةِ بقوةِ إبداعِنا...»

ـ«أعتقدُ أننا في ما يتعلّق بالمطارِ والشّركةِ عموماً قد بلغنا القمّةَ... أنتَ تعلمُ، فقط الالتماسات الّتي أتلقّاها من الزّملاءِ في الطّيرانِ المغربي تكفي لتركيعِ شركتِهم». قال محمد مفتخراً.

ـ«نعم، أعرفُ ذلك، أنا أيضاً أضجرُ منذ الصّباحِ حتّى المساءِ بهذا النّوعِ من الإجراءاتِ. لكن نحن بحاجةٍ إلى أن نُشغِّلَ أموالَنا في الخارجِ، ومساعدتُكَ ستلقى تقديراً كبيراً لدى أعلى مستوى». أضاف سمير مبتسمًا بشيءٍ من السّخرية.

ـ«سأبذلُ قصارى جهدي في ما يخصّني». قال محمّد.

ـ«لا، نحن نريدُ أكثر. تصرّف أنت مع شبكاتك في المطار. نحن لن نتحمّلَ أقلَّ أذى يصيبُ مَنْ ينقلون أموالنا، هناك مصالحُ كثيرةٌ رهنٌ لذلك».

ـ«حسناً! إن شاء اللهُ لن يكونَ هناك أيُّ إشْكال».

ـ «نعتمدُ عليك كثيراً. والآن اعذرني يا صديقي، لديّ موعد».

خلفَ مقودِ سيارته البي أم دوبل في تراءى له مجدّداً تهللُ وجهِ مديرِ شركةِ الطّيرانِ وأحد المقرّبين جدّاً من البيغ بوس، فقالَ لنفسِهِ:«ها! هناك محظوظونَ هنا، كما تقولُ الحاجّة ربيّ يرحمها، [إيللي عاندو زهرو الرّيحِ يَحْطَبْلو] إنّ مَنْ يضحكُ لهُ الحظُّ، تجمعُ لهُ الريحُ حطبَ التّدفئة».

في المساءِ نفسِهِ، عند السّاعة الثّامنة والنصف وفيما هو يتّجهُ نحو موعده، تجهّمَ وجههُ عندما خطرت ببالِهِ فكرة أنه مُضطرٌ إلى اختصارِ الوقتِ الّذي كان عليه أن يخصّصَهُ للّرجلِ الّذي لطالما انتظرهُ.

كان البيغ بوس رياض خُرطال شخصياً قد اتّصل به على هاتفِهِ المحمولِ ليخبرَهُ بوصولِ زوجتِهِ «جويدة» في المساءِ نفسِهِ على طائرتِهِ الجت الخاصّة. وتبيّنَ لهُ أنّ الرّحلةَ نفسَها ستقلُّ مديرَ خُرطال تي. في، ورئيسَ محطّةِ الشّركةِ في برشلونة ونائبَ رئيسِ مصرفِ خُرطال. مهمةٌ روتينيّةٌ، لكنّها تستدعي وجودَهُ في ذلكَ المكانِ. ثمّ واسى نفسَهُ أخيراً وهو يتذكّرُ السّهولةَ الّتي يديرُ مديرُهُ بها علاقته مع ضيفِهِ الحاليّ وقال لنفسه:«في نهايةِ المطافِ هناك سمير موجودٌ دائماً لمساندته».

نحو السّاعةِ التّاسعةِ غادرت السّيّارة موقفَ محطّةِ الفيلا الفخمةِ حيثُ يقعُ المطعمُ وسلكتِ الخطَّ الغربيّ للطّريقِ ذي الاتّجاهين المؤدّي إلى المطار.

في السّاعة التّاسعة والدقيقة الخمسين دخلَ إلى بهو المطارِ الدّولي. كان متأخّرًا وقد سبقَ للجميعِ أن لاموهُ على عدمِ دقّتِهِ في الحفاظِ على المواعيد... انضمّ محمد شماسّي وقد بدا عصبيًا بعضَ الشّيء إلى جويدة زوجةِ مديرِهِ في صالون الشّخصيّاتِ المرموقةِ في مطار هواري بومدين.

كانت طائرةُ الجتّ الخاصّة المسجّلة تحت الرقم 1011 القادمة من «بورجيه» قد حطّتْ في السّاعة المحددة تماماً. رمتهُ جويدة بنظرةٍ فاحصةٍ ثم ابتسمتْ أخيراً. تمّتْ شكليّاتُ الشّرطةِ والجماركِ دون أيّةِ مشكلةٍ: وقد اهتمّ بذلك موظفٌ من شرطةِ المطاراتِ والحدود. كان محمد شماسّي قد اتّصلَ به قبل مغادرتِهِ عمله، من بابِ الاحتياطِ الإضافيّ كي يجنّبَ نفسَهُ تأنيب رؤسائه. أن تُفَوّتَ وصولَ زوجةِ البيغ بوس عندما يعهدُ هذا الأخير إليكَ شخصياً استقبالها،

فهذا أمرٌ يفتحُ عليكَ أبوابَ الطّردِ المؤكّدِ. ذلك الشّرطي يعرفُ عائلةَ خُرطال منذ بعضَ الوقتِ ولا يفوّتُ أيّة فرصةٍ لتلبيةِ طلبٍ من ملياردير أو من أحد معاونيه المقرّبين.

رافق الرجلانِ جويدة حتّى سيّارةِ اللّيموزين المتوقّفةِ عندَ مدخلِ الصّالون VIP. الخاص بالشّخْصياتِ المرموقةِ عند بابِ الخروجِ التقَوا صابر خلف الله، رجلٌ قويّ البنيةِ في الخامسةِ والثلاثينَ من العمرِ رئيس محطّةِ خُرطال أيروايز في برشلونة، وجمال غرماط، مدير خُرطال تي. في (القناة التلفزيونيّة للهولدينغ) يرافقهما قصّاص مهدي، صديقُ طفولةِ البيغ بوس ورفيقُهُ الدّائم في المغامرات. إنّه ممثلُ الهولدينغ في فرنسا ومديرُ أحدِ فروعِها «خُرطال فارما» المتخصّص في استيرادِ الأدوية، والّذي بفضلِهِ تمّت انطلاقةُ الغولدن بوي (الصّبي الذهبي).

أخبرَ الرّجالُ الثلاثةُ محمّداً أنّهم ذاهبونَ إلى باريسَ على الجِت نفسها الّتي وصلتْ على متنها للتّوِّ جويدة، وأوكلوا إليه بالاهتمامِ من أجلِهم بالشّكليات المعتادة. لاحظَ محمد شماسّي أنّ الرّجالَ الثّلاثةَ ليس لديهم حقائبُ باستثناءِ حقائبِ اليد الّتي كانوا يريدون الاحتفاظَ بها في المقصورة. لم يطرحْ أيّة أسئلة، وقد شكّ مسبقًا في ما يحاكُ...

لا يزالُ كلامُ مديرِهِ، أثناءَ لقائهما القصيرِ أخيراً يرنُّ في رأسِهِ. ما إن أغلقَ البابَ الخلفيّ للسيّارة الليغانزا السّوداء ذاتِ الزّجاجِ الملوّنِ بلونٍ خفيفٍ خلفَ جويدة وهو يتمنّى لها ليلةً طيّبةً، حتى عاد أدراجَهُ إلى بهوِ التّسجيلِ المطلِّ على المنطقةِ الحرّة. كان يتهيّأُ لاستعادةِ جوازاتِ مسافري الجِت الخاصّةِ الثلاثة عندما ملأتْ همهمة خفيفةٌ القاعةَ. لقد اقتحمَ سبعةُ رجالٍ من الجمارِكِ القاعةَ وحاصروا الأشخاصَ الأربعةَ. اقتربَ أحدُهم من قصّاص مهدي وطلبَ منهُ أن يفتحَ حقيبةَ يدِهِ. حملقَ هذا الأخيرُ بعينيه وتراجعَ خطوةً إلى الوراءِ بشكلٍ آليٍّ وهو يخفي محفظتَهُ خلفَ ظهرِهِ. أمام تردّدِهِ، استولى رجالُ الجمارِكِ على الحقائبِ الثّلاث دون مراعاةٍ ودون التّلفّظِ بكلمةٍ، فتحوها تقريباً في وقت واحد. وكانت الدّهشة! الحقيبةُ الأولى كانت ممتلئةً بالأوراقِ الماليّة من مختلفِ الفئاتِ.

ـ«ما هذا؟ سأل المفتشُ المسؤولُ دونَ أن يبعدَ نظرَهُ عن قصاص المهدي.

ـ«مالٌ، طبعاً! أنت تراهُ جيّداً، أليس كذلك؟» أجابَهُ مديرُ شركةِ خُرطال فارما وهو يحاولُ ضبطَ أعصابِهِ.

ـ«أنا لست أعمى، سيّدي. ولكن [واين بيها؟] إلى أين أنت ذاهبٌ بهذا؟» سأله الجمركيّ بهدوء.

ـ«ولكن، إلى بيتي! ألا ترى أنك تؤخّرنا؟ نحنُ نديرُ أعمالاً، الوقتُ مهمٌ جدّاً بالنّسبةِ إلينا. علينا أن نكدّ كي نكسبَ معيشتنا. لسنا من أصحاب الرّواتب». ردّ قصّاص بتعجرفٍ وانفجرَ رفاقُهُ ضاحكين.

قال الجمركيّ وهو عاجزٌ عن إخفاءِ توتّرِهِ:

ـ«سيّدي [قادِرْ روحَكْ] احترِمْ نفسكَ! تماسك قليلاً لو سمحت، ودعْنا نعمل!»

ـ«يا خويا! يبدو لي أنّك لا تعرفُ مع من تتعامل»، تدخّل جمال غرماط في محاولةِ تهويلٍ بائسة.

ـ«أتعاملُ مع شخصٍ ضُبِطَ متلبّسًا بجرمِ تهريبِ الأموال». أجابه المفتشُ المسؤولُ بهدوء.

ـ«ولكنّه مالي! أنا حرٌ، أتصرّفُ به كما يحلو لي. هذه ليستْ دنانيرُ بحسب علمي. ليس هناك أيّةُ مخالفةٍ». رد قصّاص بحدّة.

ـ«بلى، سيّدي، إنها خرقٌ لتشريعِ تبادلِ الأموال وتعدّ جرمًا يعاقبُ عليه القانون. هذا بالاضافة إلى أنّكم لم تصرّحوا عن شيءٍ أثناء مغادرتكم. كنتم تستعدون للطّيران مع هذا الكنزِ خفيةً. سنُصادرُ محتوى هذه الحقائبِ الثلاث...»

ـ«لا يحقّ لكم! هذا المالُ ملكٌ لي... يجبُ أن أدفعَ به ثمن مسكني في باريس! قال غرماط متعجّباً وهو على وشك التّعرض لأزمةٍ عصبية.

ـ«آسف، سيّدي. عليك أن تتبعنا إلى مكتبِ المفتّشِ المسؤولِ عن الجمارك. علينا أن نحرِّرَ محضرَ ضبطٍ، ثم تُحال المسألةُ على السلطة القضائيّة». قال المفتش بجفاف.

ثم أشارَ بحركةٍ من رأسِهِ إلى مفتّشي شرطةِ الحدودِ الّذين حتّى الآن لم يكونوا قد أتوا بأيّةِ حركةٍ، مشيرًا نحو الرّجالِ الثّلاثةِ الّذين يرتدون الزيَّ

المدنيّ.

كان صابر خلف الله يهُمُّ بالكلامِ عندما منعَهُ قصّاص فجأة بحركةٍ منه:

ـ «دعْكَ منه يا صابر، هذا ليسَ المكانَ المناسبَ. سنسوّي المسألةَ مع رؤسائه. هذا تبديدٌ للوقتِ مع هؤلاءِ الموظّفين البُسطاء».

نظرةً صاعقةً على مفتِّشِ (DIS) رمى الضابطُ في دائرة التّحري والأمن الجماركِ ثمّ على الشّرطيين. ففهمَ هؤلاءِ معنى رسالته. لم يتحرّكْ أحدٌ من مكانه. قبلَ أن تتوجّهَ المجموعةُ نحو مكتبِ الجماركِ الّذي يقعُ على بُعدِ بضعةِ أمتارٍ من مدخلِ المنطقةِ الحرّة، اختلسَ ضابطُ التّحري والأمن نظرةً نحو محمد شماسّي الّذي سرعانَ ما أشاحَ بنظرِهِ عنه خشيةَ أن يبدو عليهِ أيُّ تصرُّفٍ مثيرٍ للشُّبْهةِ.

في مكتبِ مفتِّشِ الجماركِ شرعوا يفرّغون محتوى الحقيبتَينِ الأخريينِ. كانت حقيبةُ قصّاص تضمُّ ستمئةَ ألفِ يورو000 (,600)، وحقيبةُ جمال خمسمئةَ وخمسينَ ألفًا 000 (,550)، بالإضافةِ إلى ستةَ عشَرَ شيكًا قيمتُها الإجماليّةُ سبعةٌ وعشرونَ ألفًا وستمئة يورو600 (,27). لم تكن الشّيكاتُ محررةً وكانتْ صادرةً جميعها من حساباتٍ مُوَطّنةٍ في فرنسا لدى «البريد» و«الكريدي ليوني» BNP ومن مؤسساتٍ ماليةٍ ومصرف «ناسيونال دي باريس» باريبا مختلفةٍ أخرى. أما حقيبةُ صابر خلف الله فكانتْ تحتوي على تسعمئةِ ألفِ يورو000 (,900) ومئةِ ألفِ دولارٍ أميركيّ 000 (,100).

طلب ضابط الجمارك الرّئيسيّ من الرّجال الثّلاثة أن يتبعوه. اندفعوا نحوَ أحدِ مكاتبِ جماركِ المطارِ الّتي لا تحصى فيما طُلِبَ من محمد شماسّي مغادرةُ المكانِ. كان قلبُهُ يدقُّ بسرعةٍ في صدرِهِ، إنّهُ عاجزٌ عن إدراكِ حدودِ الموقفِ الّذي كان فيه. تبادلَ نظراتٍ تائهةً وعابسةً تنمُّ عن العجز مع عنصرين من شرطةِ الحدودِ المتناوبينَ على الحراسةِ عندَ مدخلِ المنطقةِ الدوليّةِ ثمّ اتّجهَ نحوَ بابِ الخروج.

عندما أحسّ بنسيمِ المساءِ المنعشِ، شعرَ بساقيه تخوران. فتح غطاءَ هاتفِهِ المحمولِ وطلبَ رقمَ هاتفٍ بعصبيةٍ تامّة: «آلو! سليم! [الزّهقات] إنّها الكارثة. أيمكنك الاتّصالُ بالمديرِ العام؟ هناك مشكلات كبيرة!»

ـ ماذا يجري؟ تكلّمْ، أنا أسمعك! أجابهُ مديرُ شركةِ الطّيرانِ بشيءٍ من التّوتّر.

ـ أوقفتِ الشّرطةُ للتّوّ صابر وجمال و[الجماعة] رفيقيه.

ـ«ماذا تقول؟ من الّذي أوقِفَ؟» نهرَهُ سليم.

ـ«قبض رجال الجمارك على صابر وجمال قصّاص وسلّموهما إلى الشّرطة».

سادَ صمتٌ قصيرٌ في الجهةِ الأخرى من الهاتف.

ـ«إنها كارثةٌ حقيقية! وكأنّهم كانوا في انتظارهما» أضاف محمّد شماسّي.

ـ«متى حصلَ ذلك؟» سأله سليم.

ـ«قبل ساعةٍ تقريباً. لم يكن بإمكاني الاتّصالُ من قبلُ. لا! لم يقولوا شيئاً... نعم، سأتّصل به على الفورِ! حاولْ أنتَ أيضاً!»

ـ «سأهتمُّ بالأمر، لا تقلق! ستتمُّ تسويةُ المسألة! سأتّصلُ بك. إلى اللقاء».

طلبَ محمد شماسّي العاصي وسطَ القديسينَ الثائرين ضدَّ ملائكةِ الجحيم، رقمَ الهاتف الأعظم: «آلو».

ـ«نعم» أجابتهُ الحوريّةُ المداومة! «من يجرؤ على إزعاجِ السيّدِ يوم الجمعة، يوم راحته؟»

ـ«مساءُ الخيرِ أيّتها السّيدة، أنا محمّد شماسّي، يجب أن أكلّمَ شقيقه، الحكيم، الكلّي الوجود، الكليّ القدرة!».

ـ«إنّ شقيقَهُ غيرُ موجود. اتصلْ بظلّهِ على أرضك، أرض خُرطالين».[1]

ـ«آسفٌ على الإلحاح، سيّدتي، ولكنّ الأمرَ طارئٌ جدّاً! إنّ شركتي على حافّة الانهيار».

ـ «أنا آسفة أيضاً. اتّصلْ به في القصر. بإمكانكَ الاتّصالُ به على هاتفِهِ المحمولِ».

ـ«حسناً، شكراً سيّدتي. إن لم أتمكنْ من الاتّصالِ به، اطلبي منه، سيّدتي، أن يتّصلَ...إلزاميًّا... بنا. هذا واجبٌ عليه لا يمكنُهُ تجاهلنا، أليس كذلك؟ بعد كلِّ ما فعلناه إرضاءً لأهوائه!»

تذمّر محمد شماسّي بصوتٍ عالٍ قبلَ أن يغلقَ غطاءَ هاتفهِ المحمول. وصلَ إلى سيارتِهِ، توقّفَ أمامَ بابها وطلبَ بانفعالٍ رقمَ هاتفٍ آخرَ. إنّهُ مشغول. فأعاد طلبَ الرّقمَ نفسَه مرّةً ثانيةً. دسّ المفتاحَ في قفلِ بابِ السّيّارةِ دونَ أن تبارحَ عيناهُ شاشةَ المحمولِ. لحظاتٌ ثم التفتَ فجأةً عندما تناهى إلى سمعِه هدير محرِّكِ سيّارةِ الشّرطةِ.

نجحَ في تمييزِ الوجهِ الضّخمِ لقصّاص بين كتفَي رجلين ضخمين، فالثلاثةُ محشورون في المقعدِ الخلفيّ لسيّارةِ دوريّةِ الشُّرطةِ. انتفضَ قلبُهُ في صدره. شعرَ بتوعُّكٍ وقشعريرةٍ تنتابهُ. أحسّ وكأنّ الشخصَ الّذي يطلبُه على الهاتفِ يحاولُ التّملُّصَ، فتمتمَ بعصبيّةٍ:«ما إن يبدأ الماءُ بالتّسرّبِ إلى المركبِ حتى تلوذ الجرذانُ بالفرار».

وأخيراً بعد محاولاتٍ عدّة، سمعَ صوتَ الشّخصِ الآخر على الهاتف. ألصقَ محمد شماسّي الهاتفَ بأذنِهِ وقال متلعثمًا:

«...ـ«آلو! نعم، سي عبد الحكيم، أنا محمد شماسّي، إنّ

ـ«نعم أنا على علم، أخبرني سليم للتَّوِّ؟ أين هم الآن؟» قاطعَهُ الصّوت

ـ«نقلتهم للتّوِّ عربةُ الشّرطةِ الخاصّة بالمساجين. بحسبِ ما علمتُ، سيُحَوّلونَ إلى سجنِ الحرّاش[2]. لقد وقعتِ الواقعة. انقضّ رجالُ الجمارك علينا مطالبين بالتّحققِ من محتوى حقائبِ يدِ أصدقائنا. هذا لم يسبقْ أن حصلَ من قبل».

سكت محمد شماسّي لحظةً ثم تابعَ مجاوباً محَدِّثَهُ:

ـ«لا. لم يقلْ أحدٌ شيئاً. ضبّاطُ الجمارك والشّرطةِ قرّروا أن يعرضوهم أمام القاضي... لا شرطة الحدود... لا شيءَ غير الجمركيّين وثلاثة أشخاصٍ معهم في زيٍّ مدنيّ... أعتقدُ أنّهم جزءٌ من الصحاح[3]، يبدو أنّهم هم الّذين يديرونَ الرقصَ...حسناً، سي عبد الحكيم، سأمرّ بالمطارِ أوّلاً... إلى الغد».

في اللّحظةِ نفسها كان سمير شكوت مديرُ خُرطال بنك في «سلكت مونتبارناس» في باريسَ لا يتوقّفُ عن الضّغطِ على لوحةِ الملامسِ الصّغيرةِ

والثُريّا. كان يتكلّمُ في الوقتِ نفسِهِ على GSM لهاتفَيْهِ المحمولين الـ الجهازين. مكثَ مضيفُهُ مذهولاً و هو يعاني قلقاً كبيراً.

منذ أسبوعين ينتظر رجلُ الأعمالِ الجزائريّ الفرنسيّ هذا الضّوءَ الأخضرَ من خُرطال هولدينغ. وكان المديرُ العامّ لخُرطال بنك قد وافق دون اقتناعٍ كبيرٍ على إدراجِ دعوتِهِ على العشاءِ أثناءَ مرورِهِ بباريسَ. كان يحبّ أن تتمّ الأمورُ في وقتٍ لاحقٍ، أي في ختامِ العمليّاتِ الجارية.

فخلالَ اجتماعٍ مصغّرٍ لمديريّ الهولدينغ عُقدَ قبلَ أسبوعٍ، أُقرّت زيادةُ وتيرةِ عمليّاتِ نقلِ الأموالِ من أجلِ مواجهةِ المتطلّباتِ المتنامية لفرعَي الهولدينغ الجديدين.

فالنّفقاتُ الّتي تتطلّبُها القناتان التلفزيونيتان الجديدتان كبيرةٌ جدّاً، بالإضافة إلى التّعهداتِ الملتزمينَ بها داخلَ الجزائر نفسِها.

كان رياض خُرطال والرجالُ الثقات قد قرّروا أن يستفيدوا من الإضرابِ الذي قرّرته النّقابةُ المركزيّة في 22 (شباط) فبراير 2003 من أجلِ إخراجِ المالِ المخصّصِ للإلتزاماتِ الّتي ارتبطتْ بها قناتا التلفزيون بطريقةٍ غير شرعيّة.

كان اثنانِ من المعاونينَ المقرّبينَ من رياض خُرطال يساعدهما رئيس محطّة الشّركة في برشلونة قد أخذا هذه المهمة على عاتقهما. ذلك لأنّ هذا الأمرَ كان يبدو سهلاً ودون أيّةِ أخطار نظراً لانطلاقِ الإضراب.

عادةً كانتْ هذه مهمّةَ الجواكر المرتبطينَ بهذا النّوعِ منَ العمليّات. هؤلاء المنتسبونَ الجددُ إلى الهولدينغ بمختلفِ مِهَنِهِم مُلزمونَ تنفيذ عمليّة نقلٍ واحدةٍ على الأقلِّ قبل أن يُثَبَّتوا في مناصبهم. المجازفاتُ والأخطار المعترضةُ تكونُ أقلَّ عموماً بالنّسبةِ إلى المديرين. التأميناتُ الخياليّةُ أو الحقيقيّةُ تجعلُ هؤلاء المرافقينَ أكثرَ تهوّراً يوماً بعد يوم.

ومن جهةٍ أخرى، فإنّ هالةَ الهولدينغ قد وصلتْ إلى درجة أنّه لا يمكنُ أحدًا من هؤلاء الشبّان أن يفكّرَ لحظة واحدة في أنّ المهمّةَ الّتي قد أوكلت إليه يمكنُ أن تكونَ بأي شكل من الأشكال على علاقةٍ بمخالفةِ القانون.

ـ «اِسمعي، الرّئيس نفسُهُ يطلبُ منّا القيامَ بعمليّاتِ تمويلٍ. بالأمسِ فقط، كنّا دفعنا مبلغاً لا يقلّ عن مائةٍ وثمانينَ ألفَ دولارٍ أميركيّ من أجلِ عقدِ «عادل إمام» بناءً على طلبِ الرِّئاسة. كما أنّ المحامي مستشارَ الشّركة القانونيّ هو شقيقُ الرّئيسِ نفسه. لا داعي لقلقكِ، يا صغيرتي... فبالنّسبةِ إلى صحافيّة طموحةٍ مثلكِ، على اطّلاعٍ جيّدٍ على كلّ ما يجري في دواليبِ الحكمِ، يجبُ أن لا يجدَ القلق طريقًا إليها أبداً في مثل هذه الحالة!... ثمّ، أنتِ تعرفين جيّداً من أينَ أنا قادمٌ ومن أكونُ... لستَ أنا من يريدُ أن يدفعَ الناسَ إلى ارتكاب الجُنَحِ...»

كان يقول الطاهر بن بوبريس ضابطُ أمنٍ رفيعٍ متقاعدٍ موجِّهاً كلامَهُ إلى صحافيّة شابّةٍ كانت قد نجحتْ في الانضمامِ إلى القناةِ التلفزيونيّةِ الجديدةِ بفضلِ علاقاتِ والدِها، فهو رئيسُ مجموعة «الوطنيين» وهم قدامى المجاهدين ووجهاء آخرون تمّ تجنيدهم في خدمةِ الأمنِ ومحاربةِ الإرهابِ في شرقِ الجزائر.

إنّ الرواتبَ المرتفعةَ بشكلٍ مبالغٍ فيهِ في قناةِ «خُرطال تي. في» وأصناف الّذين وظّفهم مكتبُ الجزائر كانت السّببَ الحقيقيَّ لاندفاعِ فتاةٍ شابّةٍ استقالتْ من التلفزيون الوطنيّ بهدفِ انتزاعِ منصبِ مراسِلةٍ في «خُرطال تي. في» بفضلِ ضابطٍ متقاعدٍ أيضاً في الأمن العسكري، وهو أحدُ مستشاري رياض خُرطال. كانت الفتاةُ تبدو أكثرَ من مُتحفّظة:

«ـأنا خائفةٌ. وماذا لو فتّشوا حقيبتي؟

ـ«أنتِ تمزحين! من يجرؤ على لمسِ حقيبةِ صحافيّة في تلفزيون خُرطال؟ لن يلتفتَ أحدٌ إليك. ستمرّينَ كالهواء وكمرور الرسالة في البريد. ثم، يجب أن ندفعَ لمحطّاتِ المركزِ ولمحطّاتِ لندن. كلُّ واحدٍ منّا يجب أن يساهمَ في بناء هذا المشروعِ الكبير. ألا تشعرين أنك في وسطِ عائلتكِ هنا معنا؟» أردف قائلاً.

وهكذا فإنّ المساعدينَ المقرّبينَ لرياض خُرطال لا يتدخّلون إلاّ في الضّربات الكبيرة وفقط عند وجود إشكال أو خطر ما. أما بالنّسبةِ إلى الباقي، فهم يتركون الأمورَ للجواكِرِ. لا يهمُّ إذا قُبضَ عليهم من أجلِ مبالغَ أقلّ أهميّة. ولكنّ الاتفاقاتِ الّتي يتمتعونَ بها وسلطتهم الواسعةَ تسمحُ لهم بالعملِ على هواهم

في تجارتهم الرفيعةِ المستوى، حتّى أنّهُ أصبحَ روتيناً، حتى يوم اكتشافِ الـستّين حاويةً على أرصفةِ التخزينِ في مرفأ الجزائر العاصمة. فبعضُ هذه الحاويات انخلعت وكشفت عن الحمولةِ، المكوّنة أساساً من زجاجات قديمة لأصناف مختلفة من الويسكي ملأى بمياه البحر. تلك كانت أولَ طلقةِ إنذارٍ.

تولّت الصحافةُ القضيةَ، ولكنها لم تسيطر على خفايا الفضيحة وامتداداتها. لقد خُنِقَ الموضوع كفعلِ السّحرِ. كان محمد لقرع السّخي هو المكلفُ بالإعلام والاتّصال لدى مجموعة رياض خُرطال الاقتصاديّة، الّذي أسّسَ لنفسِهِ بفضلِ الهباتِ والرِشى علاقاتٍ عميقةً في الوسطِ الصحافي والإعلامي بمختلفِ اتّجاهاتِهِ وتوجّهاتِهِ، ووسطَ بعضِ الكياناتِ المهنيّة المحدّدة، كنقابةِ المحامينَ وهيئةِ القضاءِ وغيرهما، فاستعملَ نفوذَه من أجلِ طمسِ الفضيحةِ، ونجحَ في ذلك، وهو الشّيءُ الّذي خدمَ إلى حدّ ما مصالحَ دائرةِ البحوثِ والاستعلاماتِ المستنفرةِ منذُ ذلكَ الوقتِ للحدِّ منَ الكوارثِ النّاتجة من هذه التّجارة المشبوهةِ من أيّ نوعٍ كانتْ بسريّةٍ تامّة.

لقد تمَّ استدعاءُ ضبّاطٍ لا يزالون في مناصبهم في باريسَ ولندنَ وبيروتَ واسطنبولَ: تمَّ اختيارُ اثني عشرَ ضابطًا بدقةٍ كبيرةٍ من بينِ من سبقَ لهم العملُ في حقلِ التّحقيقاتِ الاقتصاديّة وقضايا الفساد. طُلِبَ منهم إجراءُ معاينةٍ دقيقةٍ حولَ ظروفِ وملابساتِ نشاطاتِ هولدينغ رياض خُرطال المتنامية.

. أرض خُرطالين نسبة إلى خرطال، والخرطال هو علف البهائم. والمقصود هنا «الخرطي» أي أرض الكذب.

. سجن الحراش أكبر سجن في مدينة الجزائر.

. الصحّاح: الأقوياء، المقصود الأمن العسكري أو المخابرات.

الفصل الثاني

زهرا والسيناتور

في صباحِ اليومِ التّالي لعملية الدهم التي نفّذها رجال الجمارك، وفي دارِ الصّحافةِ، لم تكن زهرا رئيسة قسم التحقيقات في الصّحيفة اليوميّة المستقلة «Le Pays» ««لوبييه تفكّرُ البتة في أنّها ستجتازُ فترةَ حرجٍ وقلقٍ واضطرابٍ نفسيّ تسبّبُ لها توعّكاً طوالَ النّهار. لقد نُشِر لها في صدارةِ الصّفحةِ الأولى من الجريدةِ الجزءَ الثّاني من التّحقيقِ الّذي أنجزتْهُ عن حادثةِ المطار.

في ذلك الصّباحِ، لم يكن يخطرُ البتة بِبالها أنّ مسارَ حياتها المهنيّة قد يتهاوى ويتلاشى بهذا الشّكل لبعضِ الوقتِ برغم قِدَمِها والتَّقديرِ الّذي تتمتّعُ به لدى هيئة التّحريرِ ولدى المسؤولينَ عن الجريدة. لقد أدركتْ فجأةً هشاشةَ وضعِها المهنيّ عندما يصطدمُ بمصالحَ مالكي الجريدة. كانتْ قد انضمّت إلى هذه الصّحيفة منذ سنواتٍ بعد أن قضتْ ثلاثةَ أعوامٍ في وكالةِ الأنباءِ الرّسميّةِ الّتي ما لبثتْ أن رحلتْ عنها على إثر انهيارٍ عصبيّ تبعتهُ فترةٌ مؤلمة من البطالةِ المرّة والعزلة.

في هذا الصّباحِ كانت فخورةً بتأثيرِ تعليقها الحادّ المتعلّقِ بروايةِ حادثةِ المطار، وكانتْ قد وصلتْ إلى مقرّ الجريدةِ بوقتٍ مبكّرٍ خلافًا للمعتاد.

شعرتْ بنفسها فجأة أنّها كبرتْ في عيون المسؤولين عن الصّحف الصّادرة عن دار الصّحافة بشير عطّار[4] وكذلك في عيون زملائها من مختلف هذه الصحف. غمرتها نشوة امتنان آتية من أعماق نفسها. زادتْ فرحتُها عندما اتّصل بها هاتفيًا كلٌ من «البروفيسور» ورئيس مكتب الوزير والمستشار الخاص للوزير، كلهم هنأوها وباركوا لها العمل المنجز. فغرقت في أعماق نرجسية مكتومة لامتناهية.

كانت في كلّ مرّة يتعلق الأمرُ بشركاتِ خُرطال تكبتُ في صدرها كآبةً تعتريها، ولكنّها هذه المرّة أحسّت بنوعٍ من السّعادةِ سرعانَ ما تحوّلَ إلى مصدر ارتباكٍ جرّاء جاذبيةٍ غامضةٍ مبهمةٍ وقويةٍ لم تُفلح في تحديدِ معالمِها. لكنّ الاتّصالين الهاتفيّين هذا الصّباح من شخصيتين مرموقتين في الهرمِ

الوظيفيّ في الدولةِ زاداها ارتياحاً واعتبرتهما ثأراً لها وتعويضًا عن اللّحظاتِ الحرجةِ الّتي مرّت بها في اجتماعِ هيئةِ التّحرير يوم أمس.

دار نقاشٌ عاصِفٌ على مدى ثلاثِ ساعاتٍ، وانقسم الاثنا والعشرون شريكاً في ملكية الجريدة (معظمهم مسؤولون ومحررو أخبارٍ أو مجرّدُ صحافيين عاديين) إلى ثلاثِ مجموعاتٍ متعارضة.

حكمَ مديرُ النّشر وستةٌ من شركائهِ بحدّةٍ على الخفّةِ الّتي تعاملتْ بها زهرا مع الأحداثِ وعدوانيتها الظّاهرة تجاهَ هولدينغ خُرطال، وكذلكَ تجاهَ القطاعِ الاقتصاديّ الخاصّ عموماً. كان اعتراضهم مبدئيّاً على نشرِ الجزءِ الثّاني من التّحقيق.

ودافعت المجموعةُ الثّانية الّتي يتزعّمها رئيسُ التّحريرِ بحماسة عن متابعةِ نشرِ التّحقيقِ من بابِ التّقدير المهنيّ واحترامًا للقُرّاءِ، ولكن دون أن يدعموا زهرا في مواقفها.

واعتبرت المجموعةُ الثّالثة أنّ الجريدةَ قد وقعتْ في فخٍ وأصبحَ لِزاماً عليها إذاً متابعةُ نشرِ التّحقيقِ مع نشرِ اعتذارٍ يُسْتَنْكَرُ فيهِ تصرُّفُ المحرِّرَةِ وتُكذّب أقوالها.

وفي نهايةِ المطافِ شعرَ المحرِّرُ المكلَّفُ نقد الصحافية وصوغ التَّكذيبِ باسم هيئةِ التّحريرِ بحرجٍ كبيرٍ أمامَ الصدى الّذي لاقاهُ الريبورتاج وردودُ الفعلِ المتواليةِ من الجهاتِ العليا. فكتبَ تعليقًا بلا زخرفة يثني فيهِ على حسناتِ القطاعِ الاقتصادي الخاصّ الخلاّق المُبْدِع للثراءِ، مركِّزًا بشكلٍ أساسيّ على ردةِ فعلِ الناطقِ الرّسمي باسم الهولدينغ الّذي اعتبرَ من باريسَ أنَّ مسعى المسؤولين الثلاثةِ من الهولدينغ المقبوض عليهم هو عملٌ فردي لا يعني سوى مرتكبيه.

وفي اللّحظةِ الّتي كانت فيها زهرا تنزلُ من سيّارتها لاحظت النّظرةَ الثّاقبةَ برفقةِ حَمْيود «L’Aurore» «للسّيد دردور محمد مدير تحرير صحيفة «لورور درابكي مديرِ صحيفةٍ أخرى. كان الرّجلانِ خارجَينِ من دار الصّحافة. ويتّجهانِ نحوَ مقهى في زاويةِ الشّارع. لم توفّقْ زهرا في تجنّبِ اللّقاءِ وإياهما. توقفَ

الرّجلانِ قربَها. فيما كان حميود درابكي يصعقُها بعينينِ تقدحانِ دمًا، انهالَ عليها دردور محمد بسيلٍ من الشتائمِ:

«ـألم تجدي شيئاً أفضلَ من أن تضعي الجميعَ في موقفٍ حرجٍ؟

ـ«صباحُ الخير» قالت زهرا مرتعبة.

«!ـأيُّ صباحٍ؟ وأيُّ خيرٍ مع جياعٍ من نوعكِ

«ـكنتُ فقط أقومُ بعملي

ـ«عن أيِّ عملٍ تت.. تت.. تتكلّمين؟ لقد كنتِ أُلعوبةً استُعملت من البداية إلى النهاية». قد مرَّغْتِنا جميعاً في القذارة!«قال محمد أخيراً متأتئاً.

«!ـولكني لم أقمْ إلاّ بنقلِ الواقع

ـ«أوخ! أيّ واقعٍ! أنتِ تمزحين؟ أنتِ غيرُ واعيةٍ، نعم! أنتِ تلعبين دورَ القوى الرّجعية، دورَ أولئك الّذين يريدون أن يجرّونا نحو الهاوية، هم أنفسُهم الّذين يبذلون كل ما في وسعهم في سبيلِ منعِ البلادِ من التّقدم»، قال لها درابكي وهو يحاولُ أن يتمالكَ نفسَهُ قدرِ الإمكانِ.

ـ «من جهةٍ أخرى، هل رأيتِ تصريحَ الهولدينغ بالأمسِ؟ الآنسةُ خلطت المماسحَ بالمناشفِ دون أيّ مراعاةٍ. من حسنِ الحظِّ أنّ شبابَ «لوبيي» تداركوا أخطاءك» قال لها محمد.

ـ«أنا أنصحُكِ بالإبتعادِ عن هذا الملف. أنت لا تدركين أين تضعين قدميك».

ظلّت زهرا متماسكةً أمامَ صراخِهما. إنّ العلاقة الّتي تربطهما بِمديرها عمرو هي بالنّسبة إليها مصدرُ خوفٍ وقلقٍ على وضعِها داخلَ الجريدة.

فمديرو هذه الصّحفِ المستقلّةِ الثلاث هم صحافيون مأجورون عند خُرطال تي. في. وهم يستفيدون من رحلتين كلّ أسبوعٍ إلى باريسَ على نفقةِ القناةِ التلفزيونيّةِ من أجلِ المشاركةِ في حلقاتٍ تلفزيونيّةٍ حواريّةٍ خاصةً مع كريستيان مالار الصّحافيّ السّياسيّ النّجم في القناة.

فهم يُطْلبون لِلتعليق سواء على الخبرِ الرّئيسيّ للأسبوعِ أو على الحدثِ البارزِ على صعيدِ السّياسةِ والاقتصادِ في البلد.

كانتْ قدماها تحملانها بصعوبة وهي تبتعدُ عن الصّحافيين. وعادتْ منهارةً إلى مكتبِ سكرتير التّحرير:

ـ«طاهر، لو تدري ما حدثَ لي للتَّوِّ مع درابكي ودردور. إنّهُ أشدُّ سوءاً من توبيخ «عمرو» بالأمسِ».

ـ«لا تبالي، زازا. هذا طبيعي، إنّهما يدافعان عن الخمسةِ آلاف يورو الّتي يقبضانها كلّ شهرٍ، هذا كلُّ ما في الأمرِ. على كلِّ حالٍ، ما حصلَ قد حصل» أجابها طاهر.

ـ«هاي، أنتِ هنا؟ اختفي بسرعة! محمد لقرع عند المدير. حتماً سيحاولُ القيامَ بشيءٍ». قالت لها غانيا، زميلتها في الصّفحة الاقتصاديّة.

ـ«أوه! هذا الآخر أيضاً، فليذهبْ إلى...» أجابتها زهرا باشمئزاز.

ـ«[يا أو إدّازوا معاهم] فليدفعوه معهم، إنّه في الدّاخلِ الآن. لا تزعجي نفسَكِ يا صديقتي». قال لها سكرتير التّحريرِ وهو يضربُ بكفّه اليسرى على ذراعِهِ اليمنى معرباً عن حركةِ الشماتة.

انفجرت الفتاتانِ ضاحكتينِ أمام لامبالاة طاهر الّذي، من خلال عينيه الضاحكتين، يبدو منقطعاً عن كلّ شيء.

ـ«سمعتُ بأن الأمور لن تقفَ عند هذا الحدِّ!»

ـ«ماذا تقصدين بذلك، غانو؟» سألتها زهرا.

ـ«هيه، أضحكيني، لن يحصلَ شيءٌ أبداً، أؤكدُ لكِ ذلك». قال طاهر ممازحاً.

ـ«اسمعْ طاهر، إنّ ما حصلَ في المطارِ في ذلكَ اليوم أمرٌ خطيرٌ جدّاً». قالتْ له زهرا.

ـ«ما هو الخطيرُ؟ أهي مسألةُ السّفر بحقائبَ محشوةٍ بالأوراقِ الماليّة؟ وماذا عن الشبكاتِ الموازيةِ لبيعِ وشراءِ العملةِ الصّعبةِ الموجودةِ في كلّ أرجاءِ البلادِ من مشرقِها إلى مغربها وعلى مرأىً من السّلطاتِ ومسمعها، ألا يمثّلُ ذلكَ بالنّسبة إليكَ أيّةَ خطورةٍ؟» قال طاهر بصوتٍ مرتفعٍ.

ـ«ما يقولُهُ هنا صحيحٌ تماماً، يا زهرا. ما الّذي يُبقي اليورو والدولارَ مرتفعينَ بهذا المستوى لولا هذه الشّبكةُ الخارجةُ عن القانونِ الّتي أسّسها عملاءُ خُرطال؟» أضافتْ غانيا.

ـ«أنتِ تعلمين، إنّ مطعماً في «بِئر مراد رايس» يتحوّلُ إلى مكتبِ تبادلٍ للعملاتِ طوال ساعاتِ النّهارِ واللّيلِ على مرأىً من كلّ النّاسِ ومسامعهم،

ويتداولُ المليارات؛ وذلك بحمايةِ دوريةِ الشّرطةِ، لو سمحتِ! بالإضافةِ إلى ذلك فإنّ موظَّفَ الصندوقِ لديه أربعة عدّاداتٍ للأوراق النقديةِ. بإمكانكِ تبديل أيّ مبلغٍ من المال. كلُّ هذا سياسةٌ. إنّهم يضحكون علينا. بالأمسِ كان الخُرطال ربّاً محسناً على الأرض، اليومَ وبسببِ سوءِ تفاهمٍ عابرٍ بينهم أو بسببِ تضاربِ مصالِحهم، يفتعلون الأكاذيبِ من أجلِ تخديرِ الشّعبِ أكثر». قال طاهر بجديّةٍ مفاجِئةٍ.

ـ«لحسنِ الحظِّ، يا صديقي، أنّ مهمّتكَ الإخراجُ الطّباعيّ للصّحيفةِ فقط وأنّك تتكلّمُ أكثر مما تكتبْ، وإلاّ [الزّهقات] فالكوارثُ معك أكيدة». قالت غانيا لطاهر.

في مساءِ اليومِ نفسِهِ جلستْ غانيا أكفادو وزهرا إلى طاولةٍ في مقهى الفنانينَ.

ـ«أرأيتِ ما فعلَ بي هذانِ الأحمقانِ دراكبي ودردور،هذا الصباح؟» قالتْ زهرا شاكيةً.

ـ«بوف! إنهما يدافعانِ عن الخمسةِ آلاف يورو الّتي يتلقيانها شهريًا من خُرطال تي. في. إنّ واجبَ البطن له منطقه الخاص الّذي لا يملكه المنطقُ نفسُه، يا عزيزتي!» أجابت غانيا.

ابتسمت زهرا أمام التشبيهِ المستعارِ الّذي استعملتْهُ زميلتُها، ثم شدّتْ على يدِ سليم سويكي وهو صحافيّ في التلفزيون ورفيقُ صديقتها الّذي لحقَ بهما واتّخذَ لنفسِهِ مكاناً قبالتها.

ـ«[واش] ماذا أيُّتها الصبيّتان؟ تسيرُ الأمورُ بقوةٍ لديكما هذه الأيام، أليسَ كذلك؟»

ـ«أووف، لا شيءَ مميزٌ؛ الروتين، أنت تعرف» أجابته زهرا.

ـ«أتقولين الروتين؟ أعتقدُ أنّك ذهبتِ بعيداً بعضَ الشّيء في تعليقاتك على الموضوع. هناك أناسٌ تثرثرُ في كلّ مكانٍ في الوسطِ الإعلاميّ السّياسي»، قال سليم.

انتابَ غانيا نوبةُ ضَحِكٍ:

ـ«أتخيّلُ وجهَ عمرو الشّاحبَ ووجهَيْ رفيقيهِ من صحيفتَيْ «لورور» و«الهدرة».

ـ«كُفّي عن مزاحِكِ، غانيا! أقسمُ لكِ بأنّ ما يحاكُ حولَ هذه المسألة هو أمرٌ جديّ. على أيّةِ حالٍ هيّا معي، ورافقاني إلى مكانٍ ليس بعيداً من هنا. سنشربُ الشّايَ عند السناتور. هكذا ستتمكنان من سبر أغوارِ الوضعِ، قال سليم منفعلاً وقد أزعجَهُ ضحكُ صديقتِهِ، الّذي انتقلتْ عَدْواهُ إلى زهرا.

في السّاعة السّادسة والنصف مساءً دَفع الشبّانُ الثلاثةُ البابَ المُصفّحِ الّذي ينفتح تلقائياً عن بُعد. في أعلى الدّرج الخارجيّ الرخاميّ كان رجلٌ قويُّ البنيةِ يقفُ حاملاً بيدِهِ جهازَ تحكّمٍ عن بُعد.

كانتْ جبهتُه مخطّطة بتجاعيدَ أفقيةٍ تجعلُه يبدو تعباً وقلقاً. شعره الرّماديّ مصفّف إلى الخلفِ على طريقةِ تسريحةِ روبيرت ميتشوم.

السّيناتور، جنرالٌ متقاعدٌ منذ أكثر من عشرِ سنواتٍ وقد قضى سنواتٍ طويلة يسبر أغوار الصّحراءِ والآفاقِ المتلاشيةِ في ربوعها الخالية. الّذين لا يعرفونه يخطئون في اعتباره من مُحبّي الملّذاتِ. قبّل غانيا وزهرا وسليم سويكي كلاً بدوره ثمّ ربتَ كتفِ هذا الأخير قائلاً:

ـ[واش الغول] ماذا أيّها الغول؟ لقد أصبحتْ زياراتك نادرةً هذه الأيام؟ هل أعطوك تعليماتٍ تخصُّنا أم أننا لم نعُد مُهمّين كفايةً بالنّسبة إلى نجمٍ صاعدٍ مثلك؟»

ـ«حاشا! حضرة العميد، لا يمكنُ لعين أبداً أن تعلوَ عنِ الحاجبِ».

ـ«إنّهُ يتكلمُ مثل الكُتُبِ». قالتْ غانيا ممازحة.

رمقَ سليم صديقته بنظرةٍ شرسة وكأنّه يُلزمُها باحترام المقام. أرادَ من خلالها أن يذكّرها بالنّظام. إنه يكِنُّ تقديراً كبيراً وإعجاباً وامتناناً بلا حدود للسيناتور الّذي دعمَهُ وسعى من أجلِ إقحامِهِ وتوظيفِهِ في التلفزيون الوطنيّ، وأصبحَ منذ ذلك الوقتِ عرّابَهُ في وسطِ هذه الأدغالِ، أي الوسطِ السّياسيّ والإعلاميّ.

تقدّمَ السّيناتور ضيوفَهُ باتّجاهِ الصّالون الواسعِ الّذي يمتدُّ حتّى الجناحِ الأيمنِ من الفيلاّ. كان هناك رجلانِ متراخيين على أريكتين من الجلدِ يحتسيان الشّاي.

أحدهما تظاهر بهيئةِ الطائشِ المهمّشِ، رمقَ الشّابين بنظرةٍ وَقِحةٍ ثمّ التفت نحوَ المذيعِ التلفزيونيّ الشّاب:

«ـإيه، يا شباب إنّها الحياةَ الجميلةَ، حسب ما أرى، ودائماً برفقةِ فاتنة؟

شدّ الصّحافيّ على يده:

«ـصباح الخير...»

ـ «آه! إنّه نجمُنا الصّاعد. أنتَ تستحقُّ ما يواجهك، يا كبيري، مع تقديمك نشرة الأخبار، وأدهى من ذلك، يبدو أنّك بطلُ الشخشوخة[5] حسب ما يُشاع».

ـ «أنت تعرف غانيا وزهرا» اكتفى سليم بالقول وهو يشيرُ إلى الفتاتين..

ـ «إيه زهرا! أنتِ زعزعتِ الدّنيا هذه الأيام؟ سألها البروفسور بابتسامةٍ فاتنةٍ وقد أرفق كلامه بنظرةِ مكرٍ وتواطؤٍ نحو السّيناتورالّذي يعتبرُ سنداً له في عالم الأشباح.

ـ «ولكنها عاشتْ بالأمسِ كابوساً حقيقياً في الجريدة». قالتْ غانيا مشتكيةً..

ـ «أنت تتكلمين على تأنيب درابكي ودردور». قال سليم وقد اتّخذ هيئةَ من ينقلُ معلومةً مهمة.

قهقه البروفسور ضاحكًا:

«ـ «ماذا؟ درابكي ودردور؟

ـ «إنّهما يدافعان عن لقمةِ عيشهما». قالتْ غانيا..

ـ «أعتقدُ أنك طرحتِ السّؤالَ الجيّدَ، يا آنسة، دون التّوغلِ في أعماقِ الأمور، طبعاً!» قال المحامي، وهو رئيس حزبٍ يعتبر نفسه في المعارضة، وقد لبث صامتًا حتى الآن.

ـ «أيّ سؤال؟» سأل سليم ببراءةٍ محاولاً أن يبدوَ ذا قيمةٍ أمامَ السّيناتور والبروفسور وكذلك أمامَ ذلك المعارضِ الّذي يلتقيه للمرّةِ الأولى.

ـ «إنّ المالَ الّذي سيستثمرُ في قناتَي التّلفزيون لا يعود بأيِّ ربحٍ في الواقع..

ـ «للمناسبة، لماذا نقولُ عن هذه القناة «فرانكو ـ جزائرية» (فرنسية جزائرية)»، في حين أنها لا تُضيفُ شيئاً جديدًا على المشهدِ الصّحافي؟» سألتْ غانيا.

ـ «تماماً، ولا يمكنُ درابكي ودردور تكذيبُ ذلك» قال البروفسور بسخرية.

ـ «وعمرو مديرها أيضاً!» ردّ سليم..

ـ «آه! هؤلاء المتغنّون بحريةِ التّعبير الّذين يعتبرون انطلاقةَ قناتَي تلفزيون خُرطال انفتاحاً في مجالِ الحريّات وحريّة التّعبير ويخضعون هم أنفسُهم للرّقابة في أوّلِ هجومٍ يتعرّضُ له رئيسُ القناة! أنا شخصياً، يُضحِكني هذا الأمرُ». قال المحامي.

ـ «لم يُبدوا أيَّ ردِّ فعلٍ عندما منعَتْ خُرطال تي. في بكل بساطة مُداخلةَ دردور». قالت غانيا.

ابتسم السّيناتور وهو يحكُّ إبهامه بسبابته إشارة للأوراق المالية، ثم هزّ كتفيه. ابتسم ضيوفه الّذين كانوا يترصّدون أقواله وحركاته موافقين بالإجماع على حُكْمهِ. انحنى السّيناتور على الطاولة الصغيرة وبدأ يصبّ الشاي في كؤوس مذهبة.

ـ «أنا أجد أنه ليس هناك أيّ فرق بين الفريدة (القناة التلفزيونية الرسمية الوحيدة) وبين قناتَي خُرطال تي. في.».

ـ «ولكن لا يمكنُ أن يكونَ هناك فرقٌ. هذا مستحيل» قال سليم متّخِذًا البروفسور شاهدًا. «ذلك اليوم، تحت خيمة الشّيراتون، وقّعَتْ جوهر الجزائري، خالةُ الملياردير مع مديرِ قناةِ الفريدةِ على اتّفاقِ تعاونٍ بين القناتينِ تحتَ أنظار «بيار ويهيم»، من المجلسِ الفرنسيّ الأعلى للإعلام المرئيّ والمسموعِ في حفلٍ بهيجٍ وأمامَ جمهورٍ كبيرٍ من مدينة الجزائر، هذا الاتفاقُ يضعُ أرشيفَ «الفريدة» المصوّرَ في تصرّفِ قناتَي خُرطال وكذلك يسمح بمساعدة خُرطال تي. في في تكوين فرقها الصّحفية والتّقنية...

ـ «غريب! وفي مقابلِ ذلك تساهمُ خُرطال في إحياءِ محتوى برامجِ «الفريدة» وتحسينها من خلال إيحاءاتها الجديدة. هذا كلّهُ [خورطي] كذبٌ ونفاقٌ. يبدّدونَ آخر الممتلكاتِ العامّة. «قال المحامي كمن يبدو مطلعًا على خبايا المسألة».

ـ «على كلّ حالٍ، أنا أعلمُ أنّ «لحبيب» وقّعَ هذا الاتّفاق رغماً عنْهُ. إنّه لم يقمْ، حسبَ ما سمعتُهُ إلاّ بالخضوعِ للأوامرِ الصّادرة من الجّهاتِ العليا». قال سليم

بفخر. ولشدّةِ حماسته للدّفاع عن مديره لم يقسْ وزنَ عبارتِه الأخيرة.

تبادلت زهرا وغانيا نظرة دهشةٍ لدى سماع التلفيقة الثقيلة الّتي ارتكبها الشّابُّ مقدّمُ نشرةِ الأخبارِ أمامَ البروفسور والجنرال. من جهةٍ أخرى هو أحدُ المستفيدين من تنفيذِ هذا الاتّفاقِ ومن انطلاقةِ قناتَي خُرطال.

كان الكثيرُ من الصّحافيين قد غادروا قناة «الفريدة» ليعملوا في خُرطال تي. في. وخُرطال للأنباء، لذلك وجد سليم نفسه رغماً عنه في مقدّم المشهد. انتهز الفرصةَ واتّخذَ له مكاناً في نشرةِ أخبارِ الثّامنة مساءً، لأنّ الطّبيعةَ تخشى الفراغ، هكذا يُقال.

ـ «كلّ ما يفعله هو الخضوعُ لِـ [سيادو] لأسيادِهِ. هكذا هو الأمر في بلدِ «البني ويوي[6]». قال المحامي.

ـ «لا، يا [خو] أخي، أنا شاهد. لقد سعى «لحبيب» إلى إفشالِ هذا الاتّفاق وإبطاله خلسةً. وكان قد حذّر الصّحافيين الّذين يريدون الالتحاق بقناتَي خُرطال ورفض طلباتِ الوضعِ تحتَ التّصرفِ الّتي كانوا يقدّمونها بهدفِ العملِ عند خُرطال». قال سليم بثقة.

ـ«لهذا انتقى عُمّالَهُ من بين الصّحافة المكتوبةِ الّذين جلبهم إليه السّيد المحترم «نمري» خاصّةً من الكوتيديان»، قالتْ غانيا.

ـ«لقد عملتْ شجية من جهتها في باريس على جلبِ أصدقائها وزملائها إلى القناة» قالت زهرا، بنبرة التّحدّي وهي تتكلمُ على المراسِلة الباريسيّة المساهمة في الجريدة والّتي منحتْ نفسها تلقائياً لقبَ رئيسة تحريرٍ عند خُرطال تي. في.

ـ«ولكن يا لها من دسيسة، هذه القصّة!» قال المحامي متعجّباً، في محاولةٍ يائسةٍ لدفعِ النّقاشِ في اتّجاهات يأملُ من خلالها الحصولَ على أكبر قدرٍ ممكنٍ من المعلوماتِ منذ اللّحظة الّتي كان يعتبرُ فيها نفسَه في مكانٍ ليس بعيداً من الجهاتِ المطّلعةِ ومصادر الخبرِ.

كي لا يدعَ ضيفه متعطّشاً، قال السّيناتور أخيراً:

ـ«مهما كان من أمرٍ، فالأمورُ ستتغيرُ بسرعةٍ الآن. سيحدثُ أمرٌ جديدٌ عمّا قريب».

قال ذلك ثم شغّل التلفزيون بواسطةِ جهازِ التّحكمِ عن بُعدٍ كي يسمحَ للجميعِ بمتابعةِ نشرةِ أخبارِ الثّامنةِ. في ختامِ المقدَّمة، افتتحتْ مقدِّمةُ الأخبارِ الّتي تنوبُ كبديلةٍ من سليم نشرتها بخبرٍ مأسويّ: «هجومٌ إرهابيٌّ على مُفرزةٍ للدّرك الوطنيّ على الطّريق الّتي تصل تيكجدا بـ تيزي أوزو...»

. يوجد في الجزائر داران للصحافة، سمّيت واحدة باسم الشهيد بشير عطّار وتقع في ساحة أول ماي في قلب العاصمة، أما الثانية فتحمل اسم الشهيد الصحفي عبد القادر سفير وتقع في حيّ القبّة.

. أكلة شعبية راقية تعُدّ في الأعراس في شرق البلاد.

. الموافقون على كلّ شيء في جميع الحالات بدون أيّ نقاش. حزب الموالين للاستعمار الفرنسي خلال الليل الاستعماري.

الفصل الثالث

الاستدعاء

عاشَ محمود بدري منذُ أكثرَ من خمسةٍ وعشرينَ عاماً في الحيّ نفسه حيثُ وُلِدَ رياض خُرطال وقصّاص المهدي الشخصيّة الثّانية في الهولدينغ. إنّه يعرفُ أكثرَ من نصفِ إداريّي الهولدينغ. حتّى أنه شاركَ بعضهم في الشّرق الأوسطِ وفي الجزائر في محاربة الإرهاب.

كان قد مضى على وجودِهِ في بيروتَ شهرٌ فقط عندما استُدعي برغم أنّهُ كان ينتظرُ هذا المنصبَ منذُ ثلاثة أعوامٍ. فالجوّ العامّ السّائدُ في الجزائر لم يكنْ يناسبه كثيراً. وقد زادَ انهيارُ المؤسساتِ والحياةُ الصّعبةُ واللّصوصيّةُ القائمةُ في إدارة نظامِ الحكمِ وعدمُ الكفاءةِ والفسادُ في اشمئزازه وفي نبذِهِ كلّ ما يحيطُ به.

كان هذا المنصبُ ملجأً حقيقياً له وفترَة نقاهةٍ بعد البؤسِ والغبنِ اللّذين عاشهما جرّاء عدمِ مقدرتِهِ على التّحركِ للقيامِ بأيّ شيءٍ منذ العام 1999. كان محمود في الخمسين من العمر ممشوقَ القامة، طويلَ الشّعر، لا يبدو على هيئتِه أيُّ شيءٍ يدلُّ على أنّه عسكريّ. محققٌ خطيرٌ في المباحثِ، متخصّصٌ في الملفّاتِ الثّقيلة، ينتمي إلى فئةِ مثقّفي المؤسسة الّذين يكدّون في الظّلِ من أجلِ الشّرفِ تحدوهم اقتناعاتهم الرّاسخةُ لخدمةِ الدّولةِ والمُثُلِ الوطنيّة.

كان قد تآزَرَ بفاعليةٍ وحماسةٍ مع الكولونيل مختاري حميد عندما كان هذا الأخير يحققُ في حاجي بطّو وفي تَعَقُّباتِ التّجارة في صحراء شمالِ أفريقيا، وفي تَعَقُّباتِ الأفغانيين الجزائريين الملتفّين حول أسامة بن لادن كحراسّهِ الشخصيّين في «مرخيات» و«دهاميز» في شمال السودان.

شعر بالخيبةِ والإحباطِ عند تلقّيه الخبرَ الّذي أنْبأهُ به رئيسُ مصلحةِ الشّيفرة في السّفارة الجزائريّة في بيروت، فقرّر أن يذهبَ ويُغْرقَ همَّه عند صديقه سامي بوضحكة صاحب الأروما.

إنّهُ مطعمٌ فخمٌ متربعٌ على رابيةِ الروشةِ في بيروتَ حيثُ يتذوق فيه المرءُ طعامًا فاخرًا ونبيذًا فيه نكهةُ الشّرقِ ومشروباتٍ راقيةً من ماركات مشهورة

في جوٍ مِضْيافٍ وحميمٍ تغمرُهُ موسيقى طربيةٌ أصيلةٌ.

هناك، على الشّرفةِ الكبيرةِ تُقَدَّمُ مقبّلاتٌ لا تعادلُ لذّتَها سوى حفاوةِ سامي وبشاشته وأسلوبِ معاملته لمدعويه وابتسامتِهِ الدائمةِ الأزلية.

أما المطعمُ الزّاخرُ بالموسيقى فيظلُّ مفتوحاً حتى ساعات الفجرِ الأولى على مدارِ أيّامِ الأسبوع.

أعلنَ محمود الخبرَ لصديقه دون مقدّمة. وكان له وقعُ الصّدمةِ على سامي الّذي كان قد بدأ يرتاح كثيراً إلى هذا الرّجلِ الّذي يكِنُّ لهُ احترامًا عميقًا والّذي ارتاحَ إليه منذ اليوم الّذي عرّفه إليه السّفير شخصياً أثناء حفلِ استقبالٍ. تنهّد سامي تنهيدةً عميقة ثم قال أخيراً بهدوئه الأسطوري:

ـ «المهمّ يا صديقي العزيز! أنك ستبقى معنا على الأقلِّ حتى يوم الجمعة، لِنحتفلْ هذا المساء وغداً [إيسلِّكها ربُّك] سيجد لك ربُّك الفرج!»

رفع كأسه ليشربَ نخبَ محمود ثم أضاف:

ـ «على كلّ حال، اليومَ يحتفلُ كوادرُ السّفارةِ الفرنسيّة بعيدِ ميلادِ واحدةٍ من زميلاتهم «فاوو» وهي صديقتي. سأعرّفك بها، سترى، إنها امرأةٌ تعبدُ الجزائريّين وتعاملهم في منتهى التبجيل. هي نفسها جزائريّة الأصل».

فاوو فيرّات» موظّفة في البعثةِ الاقتصاديّة للسّفارة الفرنسيّة، ولا تزالُ» فتيّةً برغم بلوغها الخمسين عاماً. ثوبُ السّهرةِ الضّيق الّذي ترتديه متناسقٌ مع جسدها الممتلئ، ولا يكاد يغطّي ثّدييها المنتفخين المنتفضين تحتَ غلالةِ ثوبها الرقيقةِ المُقَوَّرةِ الصَّدرِ. يبدو عليها أنها إنسانة رياضيّة. كانت «المَسْكَرَا» الخفيفة الّتي تضعها على رموشها تُبرزُ عينيها الضاحكتين وتتناسبُ جدّاً مع شعرها الأشقر. كان والدها «بن يخمع» الموظفُ في مكتبِ العربِ في بلديّة عزّابة المختلطة «قد توفّي في حادثٍ مؤلم عام 1959 قبلَ بلوغها السّادسة من عمرها. أما والدتُها فقد كانتْ جميلةً جدّاً واستسلمتْ لعروض الرّقيب «غراتيان» الّذي تزوجها واصطحبها معهُ إلى بلده الأمّ عام 1961 تماماً قبل نهاية حرب الجزائر.

وتبنّى الكابتن غراتيان ابنتها الصّغيرة ومنحها اسمه. وعندما أنهت دراستها، وتزوجت الملازم «فيرّات» وأنجبتْ له ولدين. «Le Var» أقامت في منطقة

هاجرتِ العائلةُ الصّغيرةُ مرّاتٍ عدّة إلى إفريقيا بحسبِ تنقّلاتِ الملازم فيرّات الّذي أصبحَ رقيبًا في قسمِ الشيفرة بمقرِّ وزارةِ الخارجيّة في باريسَ. بعد وفاته إثرَ أزمةٍ قلبيةٍ في النيجر، انخرطتْ فاوو في السّلكِ الدِّبلوماسيّ كي تتمكّنَ من تربيةِ أولادها.

وقبل تعيينها في البعثةِ الاقتصاديّة في بيروتَ كانتْ قد عُيِّنت في العديدِ من العواصمِ الفرنكوفونيّة. كانت تتفانى في مهمّاتها وتعطي عملها كلّ ما لديها على حسابِ حياتها العاطفيّة، غيرَ أنّها تمكّنتْ في النّهايةِ من اكتسابِ مكانةٍ مرموقةٍ وفاعلية كبرى.

ذلك المساء صودف عيدُ ميلادها الخمسون الّذي تحييه في مطعم أروما. كانت تلوحُ أمام عينيها كلُّ محطّاتِ حياتها عندما التقتْ نظراتُها نظراتِ محمود الثّاقبة، فأحسّتْ فجأةً بهزّةٍ داخليّةٍ ظلّتْ تنتابُها طوالَ السّهرةِ. كان وجهُ محمود هادئًا يَنِمُّ عن قوّةِ الإرادة، ملامحُ وجههِ تشبهُ تلك الّتي تميّزُ الوجوهَ الّتي لا تسمحُ للحياةِ بأن تعاملَها بقسوة. ضاعفَ الكحولُ من ارتباكِها وقضتْ ليلةَ عيدِ ميلادِها حائرة.

وفي صباح اليوم التالي، يومَ الأحد، استيقظَ محمود وهو يشعرُ بِصداعٍ قويّ، النتيجةُ الحتميّة المباشرة لما احتساهُ عشيّةَ البارحة من خليطِ دواءِ النّسيان، لذا ظلّ طريحَ الفراشِ حتّى الظهر.

عندما دقّتِ ساعةُ الحائط في صالونه معلنةً انتصافَ النّهار، هبّ من سريره وقد تذكَرَ أنّ لديهِ موعداً انتزعَهُ عشيّةَ أمس من فاوو عندَ السّاعة السّابعةِ مساء اليوم.

ـ «سحقاً! لا أكاد أتمكّنُ من الاستحمامِ كي أسترجعَ أفكاري!» قال بصوت عالٍ وهو يحبسُ صرخةَ ألمٍ ويضغطُ صدغيه بين إصبعَي الإبهام والسبّابة.

الفصل الرابع

جُبَيْل

في ذلك المساء كان نسيمُ البحرِ اللّطيفُ يُهدهِدُ مدينة بيبلوس[7]، والبحرُ الأبيضُ المتوسّطُ يغمرها بعِطره وانتعاشه. كان هناك جنديّانِ يقفانِ بزيهما المرقّطِ وببندقيتيهما الموروبتين على صدريهما يراقبانِ مدخلَ أرصفةِ مرفأ الصّيدِ الصّغيرِ الواقعِ أسفلَ المدينة. رَكَنَتْ فاوو سيّارتها البيجو 206 السّوداء عند حافّةِ رصيفِ الميناء:

ـ «ها نحن قد وصلنا ! سننزل هنا». قالت لمحمود مبتسمة.

فتح محمود بابَ السّيّارة ونزل؛ تزاحمتْ في رأسِهِ ذكرياتٌ أحيتها بقوّةٍ أنوارُ المصابيحَ الكاشفةِ المنعكسةُ على المكعّبات الصّخرية البيض، وأخذَ للحظةٍ يتأمّلُ قمّة السّور الحجري حيثُ تتوهّجُ أمواجُ الأضواءِ المتلألئةِ المنبثقةِ من الحروفِ اللاّتينيةِ لكلمةِ بيبلوس (Biblos) . انضمّ إلى فاوو أمام السّيّارة وسارا معًا بمحاذاةِ الرّصيفِ في أسفلِ السّورِ الّذي تقعُ فيه نافذتانِ لمطعمِ المرفأ، وتركها تقودُهُ نحوَ مدخلِ مطعم «Chez Pépé» .

ـ «أنت ترى، عشراتُ الرّجالِ والنّساءِ المشهورين تناولوا الطّعامَ في هذا المطعم. إنّ السمكَ الّذي يقدّمونه هنا ممتازٌ».

ـ «إلاّ أن ذلك حتماً لا يعادلُ سمكَ البلاد» قال محمود ساخراً.

ـ «حتماً، يا عزيزي». ضغطت فاوو بخفةٍ على ذراعِ رفيقِها، وهي تشعرُ بالسّعادةِ لأنّهُ يعتبرُها في النّهايةِ من وطنِهِ نفسه.

كانتْ شرفةُ المطعمِ كبيرةً جدّاً. فالإنارةُ الموزّعةُ بمهارةٍ تُضفي على المكانِ سحراً أكيدًا وتسلِّطُ الضوءَ على الصّورِ الفوتوغرافيّة لمشاهيرِالعالمِ برفقةِ معلقةً على الحائط؛ مئاتُ الصّورِ من كلّ الأعمارِ حيثُ نرى أيفا «Pépé» غاردنر، دايفيد نيفين، شارل ديغول، عمر الشريف، جاك شيراك، أوناسيس، طوني كيرتيس، بريجيت باردو، غرايس كيللي وآخرين كثيراً.

جلس الاثنان إلى طاولةٍ في زاويةِ النّافذة الزجاجية، تركتْ فاوو المتأنقةُ حقيبة يدها تقعُ على الكرسيّ المجاور إلى يسارها وسمحتْ لشالها الرقيقِ

ينزلقُ على ظهرِ الكرسيّ ليكشفَ عن بشرتِها النّاعمة وكتفيها الجميلتين وصدرها الرحب.

فجأة حملقَ محمود. دخلَ رجلٌ عجوز ذو وجهٍ مُتَرَهّلٍ بزي بحّارٍ ولكنّ نظراتِهِ لا تزال متّقدةً وماكرةً، تقدّمَ نحوَ وسطِ الشّرفة متكئاً على عصا. قدّم له نادلٌ كرسياً باحترام. نهض محمود فجأة ودعا فاوو للّحاق به.

ـ «إنّه هو، أظنّ ذلك؟» سألها بحماسة.

أجابته فاوو «Pépé» ـ «نعم! هذا هو.

اقتربا من العجوز القصير الّذي لم يجدْ أيَّ عناءٍ في النهوضِ لتحيّتهما بِبشاشة.

ـ «هذا شرفٌ لي أن أشدَّ على يدك، بيبيه». قال له محمود وهو يمسكُ بحرارةٍ اليدَ المجعّدة الّتي يمدُّها هذا الرجل العجوز.

ـ «امرأتُك فاتنة، أيّها السّيد». أجابه بيبيه وهو يلامسُ بأطرافِ أصابعه كتفَ فاوو العاري.

ضحكتِ المرأة وقد التقى نظرُها نظرة مكر من محمود.

ـ «نعم، هي فاتنة، بيبيه! ولكن ممنوعٌ اللّمس، هذه ممتلكاتٌ خاصة». أجاب محمود ممازحاً.

ـ «محمود! انتظر إنه بيبيه!» قالت فاوو بدلال.

ثم أضافت وهما يبتعدان عن الرجل العجوز:

ـ «هل سمعته؟ قال «امرأتك».

ضمّها محمود إلى صدره وقبّلها على جبينها. حنتْ فاوو رأسها بصمت لتُسنده على كتفِ صديقها وشعرتْ براحة كبيرة. اقتربَ النّادل وقدّمَ لهما لائحةَ الطّعام، فابتعدا أحدهما عن الآخر وقالا في آن واحد:

ـ «بعد قليل، شكراً».

أخذ محمود يتأملُ الجزء الصّغيرَ المرئيّ من الخليج ثم نظرَ إلى عينَي فاوو:

ـ «لم أشكرك كما يجب على هذه السّهرة».

ـ «أنا سعيدةٌ جدّاً لكوني معك هذا المساء. أنا سعيدة، أتعلم؟ حدّثني عنك». أريد أن أعرفَ كلَّ شيءٍ عنك.

ـ «أوه! أوه! حياتي ليستْ برّاقة. إنها حياةٌ مستكتبٍ سخيفةٌ، لا شيءَ فيها أكثرَ من هذا».

ـ «لا تقلْ ذلك. هذا ليسَ صحيحًا. أنا عاجزةٌ عن فهم كيفَ وصلَ بنا الأمرُ إلى هذا الحد؟».

ـ «أشعر وكأنني أعرفكِ منذُ زمنٍ طويل. أنت تعلمين، منذ رأيتك، وأنت تعيشين في كياني. لا يمكنني أن أتحررّ منك».

ـ «ولكن...»

ـ «بدون لكن!» قال محمود مقاطعًا. «نعم أنا متزوّج. ولدي أولادٌ وأعيشُ في انسجامٍ تامٍّ مع زوجتي! إلا أنني منذ أن رأيتك وأنا أشعرُ باضّطرابٍ كبيرٍ في كياني».

ـ «أنت أيضاً، قلبتَ كياني... ما الّذي يجري؟» قالتْ متنهّدة.

ـ «أتذكرين عندما قدّم سامي أحدنا إلى الآخر وكانتْ هناك جلبة رهيبة في الصّالة؟ اقتربتِ مني وهمستِ في أذني: «أنا جزائريّة من سكيكدة، وأجبتك بأنك من المنطقة نفسها الّتي تنتمي إليها زوجتي».

ـ «آه! لا أذكر...»

ـ «بلى، ثم جِئتِ في ما بعد إلى طاولتي. وتمنيتُ لك عيدَ ميلادٍ سعيدًا».

ـ «آه! بدأت أتذكّر ذلك! آه، كم كنتُ سعيدة حينذاك!»

ـ «نعم، كنتِ ملكة السّهرة! لا يمكنني أن أفسّر ما الّذي جذبني نحوكِ؛ كنت أراقبُك طوالَ السّهرة».

ثم أمسكَ يدها وقالَ برصانة:

ـ «هل تقبلين بأن تكوني صديقتي، ونجيّتي؟ أتسمحين لي بأن أكونَ الكتفَ الملائمة التي تستندين إليها عندما تشعرينَ بالحاجة».

ـ «حسناً! صديقة فقط» أجابته فاوو بصوت منخفض.

ـ «لو سمحتِ، بدون أيّ تحفّظٍ ولا وضع أيّة حدود! أجاب محمود بالوتيرة بنفسها؛ لقد بدأتِ تسكنين تحت جلدي، يا عزيزتي...»

صدحتْ في المكان موسيقى فيلم الّتيتانيك وطغى صوتُ سيلين ديون على هذا الجوِّ حيث تاهَ هذان الكائنان في إحدى زوايا التّاريخ... وصوتُ المُغَنّيةِ

الكبيرةِ يصدحُ بأغنيةٍ محزنة وبصوتٍ يتفطّرُ له القلبُ: «My heart will go on» .

خنقتْ فاوو تنهيدة. قال محمود:

ـ «لدي صديقٌ يقيمُ قريبًا من هنا، أعتقدُ في عَمشيتْ... إنّه الفنّانُ الرّائعُ مرسيل خليفة. أسمعُ صوتَهُ النّقيَ والعذبَ ينشدُ: «نلتقي بعد قليل، بعد عام، بعد عامين وجيل... ورمتْ في آلة التصّوير... عشرين حديقة وعصافير الجليل... ومضتْ تبحثُ خلفَ البحرِ عن معنًى جديد للحقيقة، وطني حبلُ غسيلٍ لمناديلِ الدّمِ المسفوكِ في كلِّ دقيقة... وتمدّدتُ على الشّاطئ رملاً ونخيلاً... هي لا تعرفُ يا ريتّا، وهبناكِ أنا والموتُ سرَّ الفرحِ الذّابلِ في بابِ الجمارك، وتجددنا أنا والموت في جبهتك وفي شباك دارك... وأنا والموتُ وجهان... لماذا تغرُبين الآن من وجهي؟ لماذا تغُربين... لماذا تغرُبين، ممّا يجعلُ القمحَ رموشَ الأرض، يجعل البركانَ وجهاً آخرَ للياسمين... ولماذا تغرُبين؟ كان لا يتعبني في الليل إلاّ صمتُها... حين يمتدُّ أمامَ البابِ كالشّارع، كالحيّ القديم.. وليكنْ ما شئتِ يا ريتّا وليكنْ ما شئتِ... يكون الصمتُ فأساً... أو براويز نجوم... أو مناخاً لمخابئ الشجرة... إنني أرتشفُ القبلةَ من حدّ السكاكين... سقطتْ كالورقِ الذّابلِ أسرابُ العصافيرِ في آبار الزَّمن... وأنا أنتشلُ الأجنحةَ الزرقاءَ يا ريتّا... أنا من تحفرُ الأغلالُ في جلدي شكلاً للوطن... نلتقي بعد قليل، بعد عام، بعد عامين وجيل..»

ـ «أهو نسيمُ الشّرقِ الّذي يُلْهِمُكَ؟» سألته فاوو..

ـ «هذا لمحمود درويش، شاعرٌ ومكافحٌ فلسطينيّ. ونحنُ الجزائريّينَ، كلُّ ما يمسُّ فلسطين يؤثّر فينا».

قال ذلك وهو يتذكّرُ وجوهَ رفاقِهِ الّذين سقطوا في ميدان الشّرفِ خلال العمليّاتِ الّتي أدارها في جنوبِ لبنانَ وفي حصارِ بيروتَ عام 1982، ثم تنهَّدَ وأضاف:

ـ «أووف إنّ ذلك الوقتَ قد ولّى إلى غيرِ رجعةٍ! ونحنُ الآنَ بعيدون عن تلكَ الفترة! تعرفين، أنا أعيشُ بقربِكَ لحظاتٍ ساحرةً، فاوو».

ـ «أنت تعلمُ، محمود، نحن لم نعدْ في سنِّ العشرين. والـ...»

ـ «لا، لا تفكّري في شيء، يا ملاكي... فلنعِشْ الوقتَ الحاضرَ فقط».

عند منتصفِ اللّيلِ، غادرا هذا المكان الرائع. وسارا بمحاذاة رصيفِ المرفأ، ثم توقفا إلى جانبه، وقفا قبالة أنوار المدينة وتعانقا. ذابا في ذلك الجوّ الّذي يهدهده نورُ القمرِ في قبلةٍ طويلةٍ أيقظتْ فيهما شياطينَ حبٍّ مُرْهفٍ.

لم يشعرْ أيٌّ منهما بالوقتِ ولم ينتبها إلى أنّهما هذا المساء، وبحركةٍ منهما، أشعلا نجوم السّماء. لم يكونا يدركان أنهما قد تآمرا لتوّهِما على القدرِ واخترعا إلهًا جميلاً حتى أنّ كلّ نساءِ الدُّنيا يسعينَ لرؤيةِ جمالِهِ يتكاملُ في أجسادِهِنّ المرحّبة.

أحاطَ محمود خصر فاوو بيديْه وضمّها إلى صدره وظلاّ معًا يتأمّلان انعكاسَ نورِ القمرِ الشّاحبِ على سطحِ المياه. قبلَ مغادرتهما طاولةَ المطعمِ بلحظاتٍ كان محمود قد كتبَ لها على منديلٍ من ورقٍ: «الآن، وقد اندثرَ الحلمُ الّذي طالَ أمدُهُ منذ أن ابتكرتيني، فبأيّ هبةٍ أجيء إلى لقاك».

ـ «إنّها كلماتُ صديقٍ اختفى في زحمةِ الحياة» قال وهو يناولها المنديلَ..

ـ «يووه! أنت تغوصُ في الشعر الآن؟» قالت مقهقهة..

ـ «إن رأسي في هذه اللحظات يجيشُ بكل هذه الكلماتِ الّتي تنعتني بيتيمِ عينيك».

ـ «آخ! أتمنّى أن أكشفَ ذلك الحاجبَ الّذي يغلّفُكَ».

ـ «أوه! صدّقيني، فاوو، ليس في حياتي أيُّ شيءٍ مميزٌ. طوالَ حياتي وأنا مرهقٌ منذ الطفولة». تبدلت نبرةُ صوتِهِ واكتستْ شيئاً من الحُزنِ وهو يروي لها بعضَ المراحلِ المؤلمة من حياته.

ـ «أنت تعلمين، فاوو، أنا لم أعرف الحذاءَ إلا في الثّانية عشرة من عمري، أيّ في اليومِ الّذي دخلتُ فيه إلى الثانويّة. كنّا ستةَ فِتيانٍ في القرية قد نجحنا في امتحانِ الدّخولِ إلى الصّفِّ السّادسِ الّذي يفتحُ لنا أبوابَ الثّانوية. ولم يكنْ هناكَ أحدٌ غيرُنا قد تخطّى شهادةَ المرحلةِ الابتدائيّة. كان بيننا ابنا عمّينِ، ابنا تُجّارٍ وملاّكي أراضٍ، ابنُ عمٍ لي والده تاجرٌ أيضاً وقد كان الوصيَّ عليَّ، وأنا ورفيقان آخران هما ابنانِ لفقراء مثلي.

كانوا يسمُّون عمّي «سيدي» لأنه كان متضلعًا من اللّغةِ العربيّة. لكن ذلك لم يخدمْهُ في شيءٍ سوى في المشاركة في مراسمِ دفنٍ أو حفلِ زواجٍ، وفي

إعدادِ لوائحَ بأسماءِ الّذين يقدّمون الاشتراكاتِ الماليّةَ للثورة. في ما بعد، ساعد الناسَ الفقراءَ أمثالنا من طريق منحهم قروضاً صغيرة. أمّا الباقي، فباستثناءِ الاحترامِ الّذي يكنُّه له أهلُ القريةِ والبلداتِ المجاورةِ، كان يُعتبرُ كأيّ قروي آخر. كانتْ أمّي، رحمها الله، قد ضحّتْ بكل ما كان لديها من مالٍ برغم قلّته، وسلّمته لعمي كي يشتري لي الألبسة واللّوازم الّتي يطلبها نظام المدرسةِ الداخليّة.

اشترى لي سيدي حذاءً أصفرَ بنعلٍ من الكريب، من الصّناعةِ المحليّةِ وجلدِ البقرِ الّذي لا يفنى، فانتعلتُه طوالَ السّنة. عندما حانَ موعدُ الدّخولِ إلى المدرسةِ في العامِ التّالي، دهنه عمّي عندَ اِسكافيّ القريةِ باللّونِ الأحمر، وهكذا كنتُ أعطي انطباعاً بأنني غيّرتُ الحذاءَ. إلاّ أنّ الأحمرَ سرعانَ ما تحوّلَ إلى اللّونِ الزّهريّ ثم انتقلَ إلى اللّونِ الأسمرِ الأدكن. كنتُ أمشي فيه كالملكِ. كان كلُّ همّي أن أحمي قدمَي من الثلجِ والحصى. عنما كنتُ ألعبُ الكرة، كنتُ أخلعُ حذائي وألفُّ قطعةَ قماشٍ حول قدمي اليمنى. على كلِّ حالٍ لم يكن ذلك ينفعُ، فالكرة كانتْ من المطّاطِ الطّري.

قبلَ نهايةِ الفصلِ الأوّلِ زارنا طالب إبراهيمي وزيرُ التّربيةِ الوطنيّة في عهدِ بومدين. فوالدُهُ الشّيخ البشير كان أحدَ زعماءِ جمعيّة العلماء المسلمين ويعيشُ في المنطقةِ وهو قريبٌ من الشّيخ مبارك المللي ومن مواليدِ مدينةِ «ميلة». تلك كانتْ أولَ زيارةٍ تُذكرُ يقوم بها وزيرٌ إلى المنطقةِ كلّها. وهكذا شاهدتُ للمرةِ الأولى في حياتي وزيراً بلحمِهِ وعظمِهِ. انتهت الجولةُ فجمعونا وكنّا عشرينَ طالباً في صالةِ العلومِ الطّبيعيّة حيثُ سجّلوا على قائمةٍ مقاساتِ ألبستِنا ومقاساتِ أقدامِنا. بعد مرورِ يومين استُدعينا إلى غرفةِ النّظارةِ العامّة خلالَ ساعاتِ التدريسِ وقدّموا لكلٍّ منّا ألبسةً وقرطاسية. وتكررتْ هذه الهباتُ مع بدايةِ كلّ موسمٍ دراسيٍّ حتّى الصّفِّ الأوّلِ الثّانوي.

أمّا العُطَلُ، أيّ عطلٍ! فلم يكن لهاعلاقةٌ لها بالعطل! ففي الصّيفِ كنتُ أكرّسُ وقتي لجمعِ القشِّ بعد مرورِ الحصّادة ـالدّرّاسةـ على حقولِ القمحِ، وكنتُ أبيعُه لضامنِ القرية بخمسةِ دنانيرَ عن كلِّ حمولةِ حمارٍ. كان القشُّ وروثُ البقرِ الجافُّ والحطبُ تكوّن المحروقاتِ الّتي نعتمدُ عليها نحنُ

القرويون. فالقشُّ كان يُستخدم في مجالات عدّة، فهو يُستعملُ كفراشٍ للدّوابِ في الزرائبِ، كما أنّه يغذّيها، بالإضافة إلى أنّ سهولةَ اشتعالِهِ تجعلُهُ أفضلَ المحروقاتِ لطهو الفطائرِ ووجباتِ الغداء.

كان كلُّ قرويٍّ يملك جزءاً صغيراً من الأرض عند مخرج القرية حيثُ بُنِيَتْ أكوامٌ عملاقة من القشِّ على شكلِ قبّةٍ مغطّاةٍ بطبقةٍ من الصلصال لحمايتها من الحريق والعواصف.

كان بعضُ القرويين يطلبون مني حمولةَ عشرة أو عشرين أو ثلاثين حماراً بحسبِ مساحة زرائبهم وعددِ أفراد عائلاتهم. كان الكثيرون منّا يقومون بهذا العملِ، ولكنّ العديد من القرويين كانوا يجمعون قشّهم بأنفسهم. وفي النّهاية نجحت في جمعِ ما أمكنني من تكملَةِ لوازمي وتجديدها ومن تأمين قوتِ عائلتي الصّغيرة واستمرّ هذا الأمرُ على مدى ثلاثةِ أعوامٍ.

ذات يوم، وبينما كنتُ أجدُ صعوبة كبيرة في تثبيتِ حمولةِ الحمار، التقيتُ في الطّريقِ عمدةَ القرية. وقد لفتت نظره الحمولةُ الزائدةُ للحمارِ الّذي هو وسيلةُ انتقالي. أوقف سيّارته الجيب المكشوفة الغطاء ليس بعيداً عنّي وناداني:

ـ «اسمعْ، أنت! ألستَ ابن «بن رويبح» الّذي يدرسُ في قَسَنْطِينة؟

ـ «نعم. أنا. ماذا تريد مني؟» أجبتُه دونَ أن أبعدَ نظري عن شبكةِ القشِّ الّتي كنتُ أبذلُ جهدًا كبيراً لإبقائها متوازنةً وأنا أمسكُ جيّداً بالسّرج.

ـ «[اللا إيبارك] ليباركك الله! ولكنّ ما تقومُ به كثيرٌ جدّاً. الآن فهمتُ لماذا يُقَدِّرُكَ الجميعُ، يا بنيّ. إن شبكتك تبلغُ ضعفَي شبكاتِ الآخرين. أنتَ لم تُخْلَقْ، يا بنيّ، لهذا العمل. كُفَّ عن ذلك. اذهبْ واستحمْ، وغداً صباحاً، تعالَ لمقابلتي في دار البلديّة. وقدّمْ نفسَك لسي ابراهيم، السّكرتير العام، في السّاعة الثّامنة تماماً. لا تتأخّر. ستبدأ باستغلال عطلتك على نحو أفضلَ من هذا».

ـ «لا يمكنني ذلك، سيّدي. بقي أمامي 25 حمولة يجب أن أسلّمَها إلى الحاج «بن بريو». لقد وعدتُهُ، سيّدي، سأحضرُ بعدَ غدٍ».

ـ «[تبارك أللا] ليباركك الله؛ حقّاً لقد تركَ بن رويبح وراءَهُ رجلاً. [ربي يعينك يا أولدي] أعانك الله يا ولدي، ولكن لا تنسَ يومَ الثّلاثاء إذاً». قال لي العمدة متعجّباً.

وهكذا كنتُ أنتقِلُ إلى سكرتيريا الأحوالِ الشخصيّةِ في كلّ صيفٍ، وهذا ما كان يسمحُ لي بالحصولِ على أجرٍ قيمته 300 دينار عن كلّ شهرٍ من أشهرِ العطلةِ الثلاثة. كان ذلك هو الحدّ الأدنى الّذي يتقاضاه موظفو السّلكِ العام. وقد أحسنتْ أمّي استعمالَ هذا المالِ الّذي كان بالنّسبةِ إلينا ثروةً حقيقيّة. فيما كنتُ غارقاً حتّى أنفي في قيودِ الأحوالِ الشّخصيّة، جاء زملاءٌ لي ليزفّوا إليّ نبأ نجاحي في شهادة البكالوريا. عندما كنتُ لا أسلّمُ الوثائق المدنيّة، كنتُ أهتمُّ بنقلِ قيودِ الأحوالِ الشّخصيّة إلى سجلاتِ الذّريّة. يبدو أنّ خطّي كان جميلاً عندما أجتهد. كان كلّ مركزِ العمدةِ في عيدٍ ذلك اليوم. وقد أعطوني إجازةً لبقيّةِ النّهار.

كادت أمّي المسكينةُ أن تجنّ من الفرحِ، وقد زغردتْ بصوتٍ عالٍ وقدّمتِ الليموناضة والقهوة والبيتيـفور المُعدّة في المنزلِ، على جميعِ أفرادِ العائلةِ وعلى الجيران الّذين جاؤوا لتهنئتها بنجاحي. لم أكن قد أنهيتُ الشّهرَ الثالثَ في عملي. وكان عليّ أن أتسجّلَ في الجامعة. كنتُ أرغبُ في دخولِ كليّةٍ تسمحُ لي بدخولِ السّياسةِ وأعتبرُ أنّ ذلك هو المخرجُ الوحيدُ للخروجِ وعائلتي من البؤسِ ولنكون في مأمنٍ من العوز.

كنتُ أريدُ أيضاً أن أكونَ مفيداً لوطني. وهذا ما لن أستطيعَه لو بقيتُ في قسنطينة. كان لديّ صديقٌ من قريةٍ تبعدُ عن قريتي سبعةَ كليومترات ولديه الطموح نفسه، فقرّرنا دخولَ امتحاناتِ القبولِ في المدرسة الوطنيّة للإدارة ونجحنا بتفوق. لكنّ النّظامَ الدّاخليّ كان قاسيًا في هذه المؤسسة الفخمة بالنسبة إلى شابينِ قضيا سبعة أعوام من شبابهما في ظلِّ نظام مدرسة ثانويّة داخليّة أيضاً. كان ذلك كثيراً!

كنّا نعتبرُ نيل البكالوريا كأنّهُ تسلّم لمفتاحِ الحريّة من خلالِ الحياةِ الدراسيّة الّتي نقدسُها والّتي نغذّي خلالها الآمالَ الكبار. الاختصاصانِ اللّذان لا يُدَرَّسان في قسنطينة، واللذان يمنحاننا إمكان البقاءِ في العاصمة الجزائر هما العلوم السّياسيّة والصّحافة. فتسجّلنا لدراسة العلوم السّياسيّة... ودام ذلك ثلاث سنواتٍ من الأعمالِ الشّاقة. كان الحِرمانُ والعوزُ هما نصيبي اليوميّ. ذاتَ مرّةٍ وقفتُ أمام الفرنِ، مقابلَ رفٍّ ملآن بالخبزِ الطّازجِ المُقرقش، وأكلتُ

بعينَيّ، كنتُ جائعًا جدّاً، ولا أملكُ سنتيمًا واحدًا في جيبي. كانت المنحةُ قد تأخّرتْ في الوصولِ، والقليلُ من المالِ الّذي كنتُ قد جلبتُهُ معي لم يكن يكفي لدفعِ بدلِ بطاقةِ المطعمِ لوجبةٍ واحدةٍ. أوه، إنّهُ ثمنٌ زهيدٌ، ولكنّني لم أكنْ أملكُهُ.

عشيةَ وصولِ المنحةِ، عشتُ حادثًا غيرَ عاديّ: بعدَ انقضاءِ فترةِ الظّهر، كنت أمامَ المطعمِ الجامعيّ في انتظارِ زميلٍ لي بإمكانِهِ أن يقرضني دينارًا واحدًا وعشرين سنتًا لشراءِ بطاقةِ المطعم. لم يكن لديّ فلس واحد وكنتُ قد نسيتُ البطاقات القليلة المتبقية لي في غرفتي. كانتْ تلك فترةُ امتحانات. بعد أكثرِ من ساعةِ انتظارٍ لم يظهرْ أحدٌ من معارفي. فقرّرتُ عندئذٍ التّوجّهَ خاوي البطنِ إلى الكليّة الّتي تبعدُ بضعَ مئاتٍ من الأمتار. كنت أتهيّأُ لعبورِ الشّارع عندما لمحتُ على الطريق خمسةَ دنانيرَ جديدة تلمع متلألئة. يا لها من رِزْقةٍ! كنتُ مبهوراً ببريقِ القطعةِ النّقديّةِ ودونَ أن أنتبهَ انحنيتُ لالتقاطها. فجأة أغرقني أزيزُ عجلات سيارةٍ في جحيمٍ لا قرارَ له. تسارعتْ دورتي الدمويّة. انتشلني صراخُ المارّة من رعبي. رفعتُ رأسي قليلاً ورأيتُ على بعدِ خمسةِ ميلليمترات من رأسي طرفاً حاداً وصدئاً لجانبِ سيارةٍ محطّمة. لقد كنتُ على مسافةِ إصبعٍ من تلقّي الرأسِ المعدني بصدغي. خرج سائقُ السّيّارة من سيّارته وهو يصرخ:

«هو رمى نفسَهُ تحتَ سيّارتي ـ!»

كان يعتقدُ أنّهُ دهسَني. لكن سرعانَ ما عاد اللّون إلى وجهه عندما أدرك أنه لم يمسّني. سمعتُ تنهّداتِ ارتياحٍ عندما نهضت. فتحتُ يدي اليمنى: القطعة النقدية الّتي كدتُ أن أفقدَ حياتي لأجلها لا تزال فيها. تأملتها جيّداً قبل أن أضعها في جيبي وسلكتُ طريق الكليّة دون أن ألتفت ورائي.

ظلّ يرنُ في رأسي أزيزُ عجلاتِ السّيّارة وأصواتُ النّاسِ الّذين شهدوا الحادثَ وتداعياتُ القرارِ الّذي سيحددُ تصرّفاتي في المستقبل إزاء المالِ والنّاس الأثرياء. بدأتُ أنظرُ باحتقار إلى كلّ ما هو سطحي وأسخرُ تماماً من المالِ والثراء. اعتبرتُ الحياةَ قصيرةً جدّاً كي نكرّسها للأعمال الثمينة، تلك الّتي تبقى بعد موت المرء.

بعد يومين على هذا الحادث، تسلّمتُ منحتي: تسعمئة دينار. أتدرين! كانت ثروة بالنّسبة لي، وقد وصلتْ مع عطلة الشتاء.

اشتريتُ كنزةَ صوفٍ وشالاً لوالدتي، ولباسًا لأخي الصّغير وسروالاً وقميصاً لي... وسخوتُ على نفسي أيضاً بزيارةٍ للحلاّق. جددتُ بطاقة الباص واشتريتُ بطاقاتٍ جديدة للمطعم تكفيني الأشهر الثّلاثة المقبلة. أمّا بقيّةُ ثروتي فقد خبّأتُها لأمّي. في ذلك المساء نفسه وأنا عائدٌ إلى المدينة الجامعية مررتُ أمامَ الفرنِ الّذي يُسيلُ خبزُهُ لعابي، واشتريتُ رغيفَ خبزٍ طويلاً. بعد أن دفعتُ الثّمنَ سألتُ الخبّازَ هل كان بإمكاني الحصولُ على خيطٍ أو أيّ ربطةٍ. حارَ الخبّازُ أمامَ طلبي، فأعطاني خيطَ الخيشِ ثمّ وضعَ يديه على الكونتوار ونظرَ إليّ نظرة مرحة. أمسكتُ رغيفَ الخبزِ وربطتُهُ بالخيط ثم علّقتُ طرفَهُ الآخرَ في حزامي، وتركْتُ الرّغيفَ يتدلّى على الأرضِ وقلتُ للخبّازِ وبعض الزبائنِ المذهولينَ:

ـ «أقسِمُ أنني لن أركُضَ أبداً خلفكَ ما حييتُ. أمّا أنتَ، فعلى العكس، ستركضُ ورائي أنّى ذهبت».

أنهيتُ كلامي ثم خرجتُ من الفرنِ وسلكتُ طريق «بلكور» الرّئيسيّ. وهو حيٌّ شعبي يقطعهُ شارعٌ تجاري أسلُكُهُ بالباص صباحاً ومساءً للذّهابِ إلى الكليّة.

كنتُ أسمعُ الكثيرَ من التّعليقاتِ تدور حولي، تراوح بين الشّفقة والضحكاتِ السّاخرة. فورَ وصولي إلى جوار المدينة الجامعيّة أدركتُ أنّه لم يبقَ الكثيرُ من ذلك الرّغيف الطّويلِ، وأنّ زمرةً من صبية الحيّ وبعضِ الطّلاب الّذين يُضحكهم تصرّفي كانت تتبعني».

عندما فتحَ محمود عينيه في اليوم التّالي، انتابه حَرجٌ كبيرٌ. فعلى كتفِهِ يستلقي صدرُ فاوو العاري. الجسدان ممدّدانِ ومتشابكان على سجادة بربرية الصنعِ تغطّي إحدى زوايا الصّالون المطلِّ على شرفةٍ تشرفُ على خطِّ التّماسِ بين منطقتَي بيروت المتحاربتين أثناءَ الحرب الأهليّة.

ـ «ووووه، لقد تأخّرنا» قال محمود وهو يحاول تخليصَ نفسه من ذراعَي فاوو نهضت فاوو على الفور:

ـ «اِذهبْ إلى الحمّام الموجودِ في الجهةِ المقابلة، وأنا سأقصدُ الحمّامَ الموجود في الأعلى».

التقط محمود ملابسه بسرعة وبقفزة واحدةٍ أصبحَ في الحمّام.

في السّاعة السّابعة والنّصف، افترقَ الاثنان عند مفرق شارع مار الياس. سلكتْ فاوو طريقَ السّفارة الفرنسيّة واتّجهَ محمود نحو الجانبِ المقابلِ حيث تقع الشقّة الدوبلكس الّتي يشغلها منذ بداية إقامته المختصرة في بيروت.

في السّاعة التّاسعة، ركنَ سيّارته التويوتا تيرسال البيضاء التّابعة للسّفارة في الموقفِ المخصّصِ للممثّليّةِ الدبلوماسيّة الجزائريّة. كلُّ ما كان قد خطّطَ له ذهبَ معَ الرّيحِ مع ذلك الاتّصالِ الهاتفيّ الطارىء الّذي تلقّاه من الجزائر العاصمة. وتلك الحميميّة الّتي قضاها مع فاوو لم تتمكنْ من تسوية الأمور. لم يستطع وهو يدخلُ مكتبَهُ ترتيب الأفكار المتكدّسةِ في رأسه. تناولَ الهاتفَ واتّصل بوسيط السّفارة. قدّم له طلبًا موقّعًا من السّفير والوكيلِ وطلبَ منه أن يجدَ له مكاناً على متنِ أيّةِ رحلةٍ متوجّهةٍ إلى الجزائر. اقترحَ الوسيطُ عليه السّفرَ غداً عن طريق بيروت ـ تونس ـ الجزائر، أو يوم الأربعاء على خطّ بيروتـالقاهرةـالجزائر أو بالطّريق المباشرِ بيروتـالجزائر، ولكن يوم الجمعة.

اختار محمود السّفر عبر المسار المباشر حتى يسمح له بالوقت الكافي لتوضيب حقائبه ولشراء بعض الحاجات. طلبَ رقمَ هاتفٍ في الجزائر، انتظر قليلاً ثم قال:

ـ «آلو! صباح الخير دهمان، أنت بخير؟ نعم، على أيّ حال نحاول التأقلمَ مع الموجود. قل لي، المعلم موجود؟ حسناً! قل له إني سأعود إن شاء الله يوم الجمعة... نعم مباشرة، هذا أفضل... إلى اللقاء».

قضى بقيّة يومه والأيّام الأخرى المتبقيّة بتصفية الأعمال الجارية في القسم الّذي يعمل به، وبإلغاء الأشغال والترتيبات الّتي كان يعتزمُ القيامَ بها لتجهيزِ بيتهِ استعدادًا لوصولِ زوجته وأولاده إلى لبنان.

كان كلّ يومٍ يخرجُ بصحبةِ فاوو الّتي ودّعتْهُ في اللّيلةِ الأخيرةِ والدّموعُ بعينيها على أملِ أن تراهُ يرجعُ بسرعة. لم تكن تظنُّ البتة أنّه يعودُ إلى وطنه في مهمّةٍ طويلة شاقّة.

اسم يطلق على مدينة جبيل اللبنانية التّي تقع على ساحل جبل لبنان .

الفصل الخامس

الفريق

يوم السّبتِ التّالي عَرّف محمود عن نفسه أمام البوّابةِ الحديديّة لمقرِّ بنك الجزائر في شارع تيليملي. كان هناك اجتماعٌ مقرّرٌ عقدُهُ ذلك الصّباح مع المسؤولين في تلك المؤسسة. كان على محمود أن يترأسَ فريقًا من الضّباطِ المتخصّصين بالمحاسبة والمال للتدقيق في ملفّات الاعتمادات التوثيقيّة الموطّنة لدى خُرطال بنك خلال الأشهر السّتة الأخيرة.

كانت مبالغُ ضخمةٌ جدّاً قد حُوِّلتْ عبر هذا المصرفِ نحو وجهاتٍ يصعبُ تحديدها. برغم من انتظامِ هذه الاعتماداتِ والقروضِ على مستوى إعدادِ الملفّاتِ فإنّ المستفيدينَ منها للاستيراد والتمويل، هم في معظمهم وهميّون ومن المستحيلِ اكتشافُهم. كانت كلّ أجزاء ملفّات المشكوك فيها كاذبةً وفي عدادها نسخة التّسجيل التّجاري ورقم التّعريف الضريبيّ. العناصرُ الوحيدةُ الحقيقيّة هي أرقامُ الحساباتِ المصرفيّة الّتي حُوِّلت إليها هذه المبالغُ وتدفّق الدنانير على الحسابات الموطّنة في خُرطال بنك.

لقد كان حادثُ مرفأ مدينة الجزائر هو الذي أطلقَ شرارةَ المواجهة في البداية. فأثناء القيامِ بدورة تفتيشٍ روتينية، كان مفتشٌ محققٌ في الجمارك يقومُ بمهمةِ جَردٍ على أرصفةِ المرفأ في إطار عمليةٍ لتخفيفِ الازدحام في المرفأ عندما اكتشفَ في مكان منزوٍ من الرّصيفِ حاويةً تحتوي على مئاتِ زجاجاتِ الويسكي من مختلف الماركات بحالةٍ مزرية.

كانت الزجاجاتُ تحتوي على مياهٍ من البحر. وقد أُعْلِنَ أنّ الحاوياتِ السّتين قد سُلّمت إلى صاحبها. نَبَّهَ المفتشُ رؤساءه. وباشرتْ إدارةُ الجمارك العامّة التّحقيق من أجلِ كشفِ ملابساتِ عمليّةِ الاختلاس. في تلك المرحلةِ من التّحقيقِ لم يخطرْ على بالِ مفتّشي الجمارك هولُ الكارثةِ ولا تداعياتُها ولا حجمها. فالّذين أنجزوا العمليّة واهتمّوا بالملفّ كانوا قد استعملوا الرّمز الشخصيّ لضابطٍ جمركيٍ قد توفّي قبلَ ثلاثةِ أشهرٍ.

باسم شخصٍ لا وجودَ له، هو صاحبُ (D3) كانتْ وثيقةُ التّخليصِ الجمركيّ تسجيلٍ تجاري ورقمِ تعريفٍ مصرفيّ مزورين بنسخةٍ مصوّرةٍ بالسّكانر عن الوثيقةِ الحقيقيّةِ وبيان شحنِ البضاعةِ الّتي قامَ بها الأشخاصِ الوهميّون أنفسهم وبيان رفعِ البضاعةِ المتعرّفِ عليهِ منَ التّواقيعِ الزائفة كوجودِ فاعليها أيضاً؛ فقد ارتفعَ تحويلُ المالِ الّذي أجراهُ المصرفُ التوطينيّ (وكالة خُرطال بنك) إلى مصرفٍ في موناكو إلى 500 مليون دولار أميركي خلالَ هذه العمليّة وحدها. إذا وضعنا جانباً الرّسمَ الّذي تقاضتْهُ هذه الوكالةُ الماليّة التكميلية وهو ما يقربُ من 80% من المبلغ الإجمالي، فإنّ بقيّةَ المالِ كان ثمرةَ غشٍ وتلاعبٍ بالحسابات تشوّشُ الآثار الّتي تساعدُ على الوصولِ إلى مصادرِ التّمويلِ الأساسيّ.

غادر محمود بسيّارتِهِ مرأبَ المصرفِ نحوَ السّاعةِ الحادية عشرة وخمس وأربعين دقيقةً. كان برفقتهِ إدريس بوخدنة الكابتن في دائرةِ التّحرّي والأمن وخبيرُ المحاسبة (DIS).

تنهّد إدريس بعمق قائلاً:

ـ «إيه، ستكون هذه هي المرّةُ الألف الّتي أقوم بها بالعمل نفسه. بدون شك هو متعفنٌ في أعماقِ دِرْجٍ آخر. إنهم يُنهكون طاقتَنا من أجلِ لا شيء. لن يكونَ للأمر أيّةُ تتمّةٍ. أنا أقولُ لك ذلك، أيّها الرّئيس!»

ـ «وكيف ذلك؟ أتقولُ أنّك عملتَ من قبلُ على الملفّ نفسه؟ متى؟ ولأجلِ من؟» سأله محمود بدهشة.

ـ «نعم، وقد كتبتُ مذكّرةً تؤكّدُ نتائجَ فريق المفتشيّة العامة للماليّة (I.G.F.) حول تمويلِ اعتماداتِ هذا المصرف ورسومه. وطالبنا بضع مرّاتٍ نحن ورجالُ المصرف المركزيّ للحصولِ على موازنات خُرطال بنك المالية بالأرقام، ولكن بدون جدوى. تمويلاتُ فروعِ هذه الهولدينغ الّتي لا رادع لها تتعارضُ تماماً مع وضعِ الأنظمةِ المعمولِ بها. حتّى أنني في المناسبة وجّهتُ تقريرًا بشأن التّصرّفاتِ غير المسؤولةِ لبعضِ العاملين في المصرف المركزي. حميّةُ هؤلاء، على شاكلةِ صديقنا منذ قليل، جعلتْهم لا يرونَ أنّ رأسمالِ المصرفِ مرتبطٌ بالثّقةِ الحتميّةِ والدائمة...»

ـ «عفوًا للمقاطعة. إنّ ما لم أفهمْهُ، أثناء حديثنا عن هذا المَعْلَمِ، هو كيف أنّ مصرفَ الهولدينغ تمكّنَ من جذبِ مئاتِ الملايين من الدولارات الأميركيّة بعنوان الادّخار المؤسساتيّ؟ هل من الممكنِ أنّ هذا العالمَ الجميلَ فاسدٌ كلّهُ حتّى رأسه؟»

ـ «هذا عبارة عن الكُمِّ الثّاني للقميص. فالتّحقيق الّذي قامت به مؤسّستُنا في تلك الفترة إثرَ انقضاضِ المؤسّساتِ العامّة على خُرطال بنك كشفَ على سبيل البيانِ، أنّ مصرفَ التّنميةِ تصرّفَ بإيعازٍ من مجلسِ الإدارة المنعقدِ في شهر يوليو/تموز 2002 الّذي قرر حينذاك إيداع مليارات عدّة في خُرطال بنك، لأن المَشورة المحدودة الّتي أطلقها إلى جانبِ كلِّ المصارف، قد كشفت أنّ أفضلَ عرضٍ لسعرِ الفائدةِ جاءَ بالتّحديدِ من خُرطال بنك. عندما قدّمت بقيّةُ المصارفِ5 ,5 % كأفضل سعرٍ للفائدة، قدّم خُرطال بنك5 ,8 %. أما بالنّسبةِ إلى المؤسّسات والأفراد، فإن ذلك المصرفَ قدّمَ سعرَ فائدةٍ يمكنه أن يبلغ الـ 17%، دونَ الكلامِ على المردودات المقدّمة في الأكياس البلاستيكيّة السود الخاصة بالقمامة مع كل إيداعٍ».

صحّحَ إدريس بوخدنة جلستَهُ على المقعد الأمامي للسّيارة وأضاف:

ـ «سأكشفُ لك عن الحماقةِ الكبرى الّتي ارتُكِبَتْ منذُ البدايةِ، والّتي مرّت مرور رسالةٍ بالبريد، دون أن يقومَ أحدٌ بأيّةِ حركة: تلك المتعلّقة بالضّمانات النظاميّة الّتي يستوجبُها نصُّ إنشاءِ مصرفٍ».

ـ «نعم، فسمعةُ المصارفِ محميّةٌ من خلال إجبارِ المصارفِ على إيداعِ ضماناتٍ من أجلِ القدرةِ على الإيفاء. والمفترض أنّ المصرفَ المركزيّ يراقبُ بشكلٍ دائمٍ هذه الأرصدة كي يتصرّف لدى حصول أيّة إشارةٍ تدلّ على تضاؤلها ولحماية مطابقةِ النِّسبِ الاحترازيّة»، قال محمود، وقد أزعجَهُ بطء إدريس في عرضِهِ للمعلوماتِ الّتي يعرفها عن خُرطال بنك.

كان محمود قد اختارهُ من أجلِ براعتِهِ وخبرتِهِ بالشّؤونِ الماليّة بسبب موهبتِهِ الفائقةِ في التّحقيقِ وخاصّةً بعدَ أن علِمَ بالنتائجِ الأوليّة للتّحقيق الّذي بشأن تحرّكاتِ رؤوسِ الأموالِ نحو (DIS) قامت به دائرة التّحري والأمن الخارج باتّجاهِ تبادلاتِ المصرفِ الجزائريّ.

ـ «نعم، حضرة العقيد! لقد استغربنا التّصرفَ اللامسؤولَ لعناصرِ الإدارةِ العامّة في المصرفِ الجزائريّ، الّذين لم يتنازلوا ويدعوا مديريّ خُرطال بنك إلى مراعاةِ النّظام بعد الاطّلاعِ على المستنداتِ الماليّةِ النّظاميّةِ التي يقدِّمونَها، والّتي تكشفُ بوضوحٍ الفروق في ضبطِ نسبةِ التّأمينِ المودَع».

ـ «يا إدريس، من الأساس، كان هناك تزويرٌ في توزيعِ الورقِ مع ذلك الرجل. لقد علمتُ أنّه بالنّسبة إلى خُمْسِ الـ 500 مليون دولار المطلوبةِ من المصرف طِبقًا لوديعة من طبيعتها، أمّنَ قرضاً مصرفياً مؤاتيًا من مصرف ابتدائي آخر وطّن فيه وارداته من الأدوية». أجاب محمود وهو يتهيّأ لتجاوزِ منعطفِ المدينة العلميّة نحو الشّارع المؤدّي إلى «تاغاران».

«تماماً، سيّدي العقيد، مصارفُ لا تقومُ نهائيًا إلاّ بوساطةٍ ماليّةٍ ونُبحِرُ وفقَ رؤيةِ الآخرين وتعمل بمالهم. وهكذا، فحالما يحصلُ أقلُّ خللٍ فإنّ السّفينةَ هي الّتي يتسرّبُ إليها الماء وتتعرّض للغرق». قال إدريس مبتسمًا، وبعد أن أخذ نَفسًا قال دون أن يبعدَ نظرَهُ عن رئيسه:

ـ «هذا لا يتّفِقُ معَ النَّصِ والضّماناتِ المنصوص عنها في القانون الرقم 10/90 الصّادر في 14 نيسان (أبريل) 1990 بشأن الاعتمادِ والعملةِ، القانونُ الّذي شكّلَ مركزَ العقدةِ لإصلاحات «مولود حمروش»[8].

ـ «أوه! هذا الآخر، لقد كان ثعلبًا ماكرًا أعتقدَ أنّه بإمكانهِ تحطيمُ هذا النِّظامِ من الدّاخل. لديه، في رأيي المتواضعِ، ثقةٌ كبيرةٌ بالتأثيرِ السّياسيّ في سبيلِ تغييرِ النظامِ القائمِ على العنفِ وغيابِ كلِّ شفافيةٍ وكلِّ قيم أخلاقيّة. إنّ ما أعجزُ عن تفسيرِهِ هو بأيّةِ حُجَجٍ يبرِّر مسؤولو المصرفِ الجزائريّ تغاضيَهم الفاضحَ عن خُرطال بنك. لا بدَّ أنّ إنذارًا وجّه إلى هذا المصرفِ كي يعرضَ وضعَهُ الماليّ بانتظامٍ وليعالجَ كلَّ ما يتفرّعُ منه. والأشدُّ خطورةً أيضاً ما يقومُ به تجمّعُ المصارفِ الَّذي بدَلَ أن يكتفيَ بمهمّاته الأساسيّةِ، وضعَ نفسَهُ بكلِّ بساطةٍ في تصرّفِ المصرفِ المركزيّ لخدمةِ الجهازِ التّنفيذيّ لإدارةِ هذا المصرفِ نفسِهِ؟ يجبُ أن لا نُبعدَ النَّظرَ عنْ كلِّ ما يدورُ حولَ أمبراطوريّةِ رياض خُرطال».

ـ «من المسلَّمِ به أنّ كلَّ تعسُّرِ الأعمالِ الملحوظِ بعدَ فواتِ الأوانِ كان مغطّى لأنّ رياض خُرطال بنى لنفسه دِرْعاً دقيقة من خلالِ علاقاتهِ المميزةِ مع رجال السّلطة، فهو يعطي انطباعًا بأنّه لا يمكن المسُّ به».

ـ «ولكنه حقاً كذلك، سيّدي العقيد؟» قال إدريس بصوت مرتفع..

ـ «نعم، في النّهايةِ، عندما ندفعُ ثمنَ خدماتِ شقيقِ الرّئيسِ كمستشارٍ قضائيّ، وعندما يغدقُ رئيسُ الجمهوريّة بنفسِه عليك الكلماتِ المعسولةِ وينعمُ عليك بظهورهِ إلى جانبك على مرأى من النّاسِ، فهذا يُشنّجُ ويعرقلُ كلَّ عملٍ تقوم به مصالحُ الرقابة. لكن لا شيءَ يبرر هذا التقصير».

سكتَ محمود لحظاتٍ. شَغّلَ وامِضَ السّيّارةِ وألقى نظرةً إلى مرآةِ السّيّارةِ الأماميّةِ قبلَ أن يتوقّفَ في محطّةِ «تاغاران» للوقودِ ليست بعيدة عن مقرِّ وزارةِ الدِّفاع. استدارَ كلّيةً نحو إدريس وقال:

ـ «اسمعْ يا إدريس، لقد استُدعينا من أجلِ القيامِ بعملٍ؛ نحن سننفّذُ مهمّتنا حتّى النهاية. بالنّسبة إلى الباقي، كلّما انتهينا في وقتٍ مبكرٍ أكثر، كان ذلك أفضل. لقد وعدني الرّئيسُ بأن أستعيد منصبي فور انتهاء هذا العمل».

ـ «إن شاء الله، يا خو».

ـ «سنلتقي بعدَ قليلٍ في المكتبِ كي نحدِّدَ الوضع».

بينما كان إدريس يمشي بالاتّجاهِ المعاكسِ نحو الوزارة، قَرَّبَ محمود سيّارتهُ باتّجاهِ مضخّاتِ الوقود. دار حولَ محطّةِ الوقودِ الواقعةِ في الخارج وسلكَ اتّجاهَ «الأبيار» مستغلاً وصولَ باصٍ يستعدُّ لتسجيلِ إشارةِ التّوقّفِ الاختياريّ للباصاتِ الّذي أصبحَ إجباريًا منذُ بدءِ العملِ بالنّاقلاتِ الخاصّةِ.

كان وهو يقودُ سيّارته يُنَقِّلُ إصبعَهُ على الملامسِ العديدةِ لجهازِ التّسجيلِ في سيّارته التويوتا. فارتفعَ صوتُ مارسيل خليفة النّقيّ كالأنغامِ الّتي تصدحُ من أوتار عودِهِ، وملأ السّيّارة:«بين ريتّا وعيوني... بندقيه، والّذي يعرفُ ريتّا ينحني ويصلّي لإلهِ العيونِ العسليّه... وأنا قبّلتُ ريتّا عندما كانت صغيره. وأنا أذكرُ كيف التصقتْ بي وغطّتْ ساعدي أحلى ضفيره، وأذكر ريتّا مثلما يذكرُ عصفورٌ غديرَه. آه ريتّا، بيننا مليونُ عصفورٍ وصوره ومواعيدُ كثيرة أطلقتْ ناراً عليها بُنْدُقِيّه...»

تنهّدَ محمود أمام هذا اللفظِ الأخيرِ واستعادَ وجهَ فاوو المبتسم. انطلقتِ السّيّارةُ مسرعةً نحوَ مرتفعاتِ مدينةِ الجزائرِ ومحمود مستسلمٌ للأغنية. عاد المُطْرِبُ ليتابعَ شكواهُ بعد فاصلٍ موسيقيّ: «اسمُ ريتّا كان عيدًا في فمي... جسمُ ريتّا كان عرسًا في دمي. وأنا ضِعْتُ بريتّا سنتين، وهي نامتْ فوق زندي سنتين، وتعاهدنا على أجملِ كأسٍ واحترقْنا في نبيذِ الشّفتين، وولِدْنا مرّتين».

فجأةً داسَ محمود بعنفٍ على دوّاسةِ الفراملِ وقد تسارعتْ دورتُهُ الدّمويّة وإذ بالسّيّارة تتوقّفُ محدِثةً بعجلاتها أزيزاً صاخباً. لقد قرّرتْ سيّدةٌ ترتدي جلباباً أسودَ وتجرُّ طفلاً عبورَ الشّارعِ فجأةً على بعدِ سنتيمتراتٍ فقط من السّيّارة. لم يكنِ المكانُ يسمحُ بذلك. أحسَّ محمود بِدفعةٍ كبيرةٍ من الأدرينالين تسري في عروقه وهو يرمقُ السّيدةَ بنظرةٍ صاعقةٍ. إلاّ أنّها لم تلتفتْ إلى جانبها البتة. تابعت السّيّارة طريقها. «آه... ريتّا، أيُّ شيءٍ ردّ عن عينيك عينيّ ؟ سوى إغفاءتين وعيونٍ عسليّه. قبل هذي البندقيّه، كان يا ما كان يا صمتَ العشيّه، قمري هاجرَ في الصّبحِ بعيداً في العيونِ العسليّه. والمدينه كنَسَتْ كلَّ المغنين، وريتّا.. بين ريتّا وعيوني بندقيه..»

ثم علا تشويشٌ يعلنُ انتهاءَ شريطِ التّسجيل.

اجتاحَ السّيّارةَ صوتٌ رخيمٌ أجشّ: «[الله ينالا بوك ياجزّي كي حلات الهذرة مع حبيبي إريزّو انقطاع.] اللعنةُ عليك يا جزي! عندما بدأتُ أستسيغُ الكلام مع حبيبي، انقطعَ الخطّ!

ـ «[ينعال ولديك]! صرخ محمود قبلَ أن يغَيِّرَ بيدِهِ مفتاحَ الرّاديو. وإذ بالإذاعةِ المحليّة تتدخّلُ بدون استئذانٍ وتقتلعه من تأمّلاتٍ بعيدةٍ، مع قصيدةٍ لمحمود درويش وبصوتِ الفنّان اللبنانيّ العذبِ والدافئ. خففتِ السّيّارة سرعتَها عندَ الاقترابِ من منعطفِ سكالا العريض. فجأةً علا زمورُ سيّارةٍ خلفَ التويوتا.

ثبّتَ محمود مرآةَ سقفِ السّيّارةِ للحظةٍ ورأى مقدمّةَ سّيّارةِ مرسيدس تحاولُ يائسةً تخطّيهِ في وسط المنعطف. حاولَ محمود في البدايةِ أن يتعرّفَ على النّظرةِ المختبئةِ خلفَ الـ«ري بان» السّوداء، ثمّ بحركةٍ من يدهِ طلبَ من سائقِ السّيّارة الجنونيّة أن يصبرَ ويقودَ سيّارتَهُ بهدوء. إلاّ أنّ السّائقَ ضغطَ

بتوتّرٍ أكبرَ على زمّورِ سيّارتِهِ ووجَّهَ الشّتائمَ إلى محمود بكلِّ احتقارٍ وهو يقومُ بحركاتٍ بذيئة.

ـ «[إنعال ت...يممك!] [يلعن جنس أمّك] أيُّها الفاسق!» شتمَهُ محمود وهو يدوسُ على الفراملِ محاولاً أن يجبرَ السّائقَ على التّوقُّفِ.

وصلت المرسيدس إلى جانبِ التويوتا دونَ أن تتمكنَ من تجاوزِها ومن داخلِها تلعلعُ نبرةٌ نافرةٌ لصوتٍ يتلوّى على أنغامِ الرّاي: [قلبي أوّا قلبك عانيد البوشي معالقين...] [قلبي وقلبك معلّقان عند الجزّار]. تفحّصَ محمود بعصبيةٍ وجهَ السّائقِ، إنّهُ شابٌّ أسمرُ، وجهُهُ كحدِّ السّكّينِ معقوفُ الأنفِ. نظّارتُهُ الشّمسيّةُ مرفوعةٌ على رأسه تكشِفُ عن عينينِ صغيرتين تلعنُ إحداهُما الأخرى. أدارَ السّائقُ رأسَهُ على الفورِ أمامَ نظرةِ الضّابطِ الصّاعقة. إنّ بنيةَ الضّابطِ المهيبةَ هزمتْ تعجرُفَ المُتكّلفِ الصّغيرِ فخاف. كان هناك سيّارةٌ تنزلُ بالاتّجاهِ المعاكسِ مما استدعى من محمود التصرّف السّليمَ والحكمةَ. فأمرَ سائقَ المرسيدس:«اذهبْ، أيّها الـ... الصّغير. لديكَ حظٌّ مومسٍ كوني اليومَ في كاملِ عقلي...». ضغطَ قليلاً على دوّاسةِ الفراملِ فخففتِ السّيّارةُ سرعتَها فاسحةً في المجالَ لمرورِ المرسيدس. لشدّةِ دهشتهِ كادَ السّائقُ الشّابُّ يصدمُ السّيّارةَ المتّجهةَ نزولاً بالاتّجاهِ المعاكسِ. ثمّ ما لبثتِ المرسيدس أن اختفتْ هي وهديرِ محركّها القويّ الصاخبِ.

رنّ الجرسُ القويّ لهاتفِهِ الخلويّ. فتناولَ محمود الجهازَ بعصبيّةٍ وألقى نظرةً على الشّاشةِ ثم ألصقَهُ بأذنِهِ:

ـ «نعم، جوزيف! لقد دخلتُ لتوّي إلى الأبيار... بوف؛ لنقلْ بعدَ ثلثِ ساعةٍ... حسناً! إلى الـ...»

تركَ الجهازَ يسقطُ بدونِ اكتراثٍ على المقعدِ الأماميّ وخفّفَ سرعتَهُ قبلَ أن يسلُكَ تقاطعَ «الشّاتو ناف» حيثُ كان شرطيّا مرورٍ منهمكَينِ بتنظيمِ السّيلِ الّذي لا نهايةٌ لهُ من السّياراتِ الّتي تجتاحُ يومياً شوارعَ العاصمة. ما إن خرجَ من التّقاطعِ حتّى صحّحَ محمود اتّجاهَ السّيّارةِ وزادَ السّرعةَ. قفزتِ السّيّارةُ وانطلقتْ على الطّريقِ المستقيمِ باتّجاهِ تقاطعِ الشوفاليه. بعدَ ربعِ ساعةٍ توقّفَ أمامَ صفٍّ من أرصفةِ المطاعمِ. أمامَ كلِّ كُوّةٍ زجاجيةٍ تجدُ كوانينَ

شواءٍ من الحديدِ المشغولِ تعلوها مداخنُ مرتفعةٌ. كان المكانُ عابقًا بالدّخان. رائحةُ اللّحمِ المشويِّ دغدغتْ أنفَهُ. كان يوسف يروحُ ويجيءُ أمام كوّاتِ مطعمِ الشّواءِ الكبيرِ وهو يُكِرُّ بيدِهِ اليُمنى سبحتَهُ الفضيّةَ الطويلةَ الّتي علّقَ بطرفِها علاّقةَ مفاتيحَ من مختلفِ الأصنافِ. ارتسمت ابتسامةٌ عريضةٌ على شفتيهِ عندَ رؤيتِهِ صديقه.

ـ «أنتَ وحدَكَ؟» سأله محمود.

ـ «ذهبَ محمد ليعطي حماته اللّحمةَ، سينضمُّ إلينا بعدَ قليل». أجابَهُ يوسف باسترخاءٍ ثمَّ تبادلَ الرّجلانِ القُبلَ.

ـ انظرْ، ها هو! عندما نتكلّمُ عن الذِّئبِ...قال يوسف ممازحاً.

ـ كان محمد شماسّي يرتدي زيَّ الهيئةِ التّجاريّة لشركةِ الطّيرانِ الشّابةِ ستروةٌ خضراءُ فاتحةُ اللّونِ وقميصٌ أبيضُ وبنطلون كحليٌّ ـ أقفلَ عن بُعدٍ القفلَ المركزيَّ لأبوابِ سيّارتِهِ الـ «بي أم دوبل فيه» وانضمّ إلى رفيقيه. اتّجَهَ الثلاثَةُ نحوَ مدخلِ المطعمِ. جلسوا إلى طاولةٍ في إحدى زوايا الصّالةِ الأولى، بعيداً عن بابِ الدّخول. جلسَ محمود وظهرُهُ إلى الحائطِ بحيثُ يكونُ وجهُهُ مقابلاً للمدخلِ تاركاً المكانينِ المقابلينِ لرفيقيه، وهذا لم يتركْ محمد شماسّي بدونِ تعليق. فقفزَ منتهزاً المناسبةَ ليغمزَ بطرفِ عينِهِ إلى الجالِسِ قبالتِهِ:

ـ «[ياعرفلها، آه؟] هو يعرف كيف يفعل ذلك». قال شماسّي.

ـ «إيه! الحركاتُ الجيّدةُ، يا [خو] يا أخي!» قال يوسف مسانداً بابتسامةٍ عريضةٍ تعلو شفتيه.

تظاهرَ محمود بأنه ليس مبالياً بملاحظات أصدقائهِ، ثمّ قالَ لرئيسِ محطّةِ خُرطال للطّيران:

ـ «إذاً يا محمد، هل كلُّ شيءٍ على ما يرام؟»

ـ «بوف! حسب الظروف،[رانا] إنّنا نتأقلمُ مع تقلّباتِ الزّمن!» أجابهُ شماسّي ببرود.

ـ «والشّركة؟ ألا تزالُ صامدة؟» سأله محمود مجدّداً بينما يوسف ينظرُ بانتباهٍ واهتمام.

ـ «على كلِّ حال، مع هذه الاضطراباتِ الأخيرة، هناكَ الكثيرُ من المخاوفِ في الأجواء». أجابَ شماسّي بحدّةٍ هذه المرّة.

ـ «قمْ بعملِكَ ولا تبلِّلْ نفسَكَ كثيراً». قالَ لهُ يوسف مشفِقًا على حالِهِ.

ـ «أنتَ تعرفُ أخاك. أنتَ تعلمُ، يا يوسف أنّهم لا يشاركونني في شيءٍ. أنا أتقاضى بدلَ الأتعابِ الّتي أقومُ بها، هذا كلُّ ما في الأمر». أجابَ شماسّي وهو ينظرُ إلى عيونِ رفيقَيهِ.

لم يتمكّنْ محمود من أن يمنعَ نفسَهُ من الاِبتسامِ لدى سماعه كلَّ هذه الرّسائلِ غيرِ النّاجعةِ والملأى في الوقتِ نفسِهِ بالتلميحاتِ، ثمّ قال:

ـ «إيه نعم! الظروفُ قاسيةٌ يا أصدقائي! [ربّي يستر] اللهُ يحمينا».

تنهّدَ محمود وحنى رأسَهُ جانباً كي يرى النادلُ الشّابُّ الّذي يحلِّقُ أمامَهم حاملاً دفتراً صغيراً وقلمَ حبرٍ بيدِهِ. ما إن طلبوا الطّعامَ حتّى اختفى النّادلُ على الفور. استمرّ الغداءُ ساعةً تطرّق خلالها الأصدقاءُ الثّلاثةُ إلى بضعة مواضيعَ دونَ أن يصطدمَ أحدُهم بالآخر. كان كلٌّ منهم يعرفُ اختلافَ منطقِ الآخرِ ويحترم الحدودَ الّتي تفرضُ نفسَها في ظلِّ ظروفٍ مشابهة.

عندما أخذَ محمد شماسّي يحدثهما بزهوٍ عن ازدهارِ الوضعِ الماليّ لخُرطال بنك، لم يتمكنْ يوسف المُتشكِّكُ بطبعهِ من منعِ نفسِهِ من أنْ يقولَ بجفافٍ، متظاهرًا بتوجيهِ الحديثِ إلى محمد شماسّي، ولكنّهُ في الواقعِ كان يتكلّمُ بدافعِ الفضولِ محاولاً تأكيدَ المعلوماتِ الّتي حصلَ عليها من كولونيلٍ في دائرةِ التّحرّي والأمن: (DIS).

ـ «سمعتُ من صديقٍ أنّ المصرفَ الجزائريّ ردَّ عملياتٍ لخُرطال بنك».

ـ «نعم، لكنْ هذا ليس سوى تصرفٍ احترازيٍّ. لا شيءَ جديٌ حتّى الآن». أجابَ محمود بشرود.

ـ «أقصدُ بأنّ المصرفَ المركزيّ يتصرّفُ على هذا النحوِ، لأنّ هناك اضّطرابات منذُ بعضِ الوقت!» قال يوسف على عجل.

ـ «في نهايةِ الأمرِ هي مجرّدُ ضوضاء، لطالما كان هناك جلبةٌ منذ تأسيس هذه المؤسّسة»، قال محمود ساخراً.

لم يتمكّنْ محمد شماسّي المذهول من تمالكِ خيبتِهِ حيال الخطرِ الظّاهرِ الّذي يتهدّدُ وجودَ المؤسّسةِ الّتي يعملُ فيها.

كلُّ فردٍ مِنّا يعتقدُ في لحظةٍ من وجودِهِ بأنّ مصيرَهُ مرتبطٌ بهذهِ المؤسّسةِ أو بذلك العمل. وأكثرُ أصحابِ هذه الأفكارِ سوءاً يقلّصونَ زاويةَ نظرتِهم إلى الأمورِ بمقدارِ مصالحهم الآنيّة. من جهة أخرى، كلُّ واحدٍ يجمِّلُ الحقيقة كما يحلو له ويطمرُ في أعماقِ نفسِهِ أسبابَ تفاؤله

لم يكن قد مضى أسبوعانِ على لقائِهِ الأخيرِ مع البيغ بوس. ولكنّ رياض خُرطال لم يكنْ قد تركَ لديهِ انطباعًا بأنّهُ شخصٌ يتعرّضُ لضغطٍ ما أو يواجه اضطرابات.

حتماً كان كلامُ صديقيه مثقلاً بالمعاني، ولكنّ المحاولةَ لا تزالُ صعبةً وأمانيهِ ومخاوفهُ لا تتركُ مكاناً للشّك. فقرّرَ متابعةَ كلامهما بلامبالاةٍ. ولم يعبأ بالحماسة التي أبداها يوسف عندما وجّهَ كلامَهُ إلى العقيدِ في دائرة التّحرّي والأمن: (DIS) .

ـ «هل تذكرُ يا محمود ما كنتُ أقولُه لك، حتّى قبل أن تطلبَ نقلَ تعيينك إلى الخارج...».

ـ «عمَّ تتحدثُ؟ لم أتابعْك. أنت تعرفُ، لم نعدْ في العشرين من العمر». قال محمود بشيءٍ من الانزعاج.

ـ «كنتُ قد قلتُ لك إنّ العام 2003 سيشهدُ انهيارَ أمبراطورية خُرطال».

ـ «ولكنّ الحالَ ليس كذلك، يوسف. أعتقد أنك تذهبُ بعيداً جدّاً بأفكاركَ، يا صديقي». أجاب محمود.

ـ «دعْهُ يسقط، كولونيل. يوسف مُقلقٌ وأحياناً يكونُ انهزامياً».

ـ «هيّا، اضحكْ بهذا على أُناس آخرين. سترى ذلك جيّداً. هذا إن عشنا حتّى تلك اللّحظة، قال يوسف وهو ينظر إلى محمد شماسي «فهؤلاء النّاس على وشكِ الانتفاعِ بالمال العامِّ واستغلاله».

ـ «الأمرُ يتعلّقُ ببعضِ الخروق في نقلِ رؤوسِ الأموالِ نحوَ الخارج، لا شيءَ أكثر، قال محمود بوقار.

قاطَعَهُ يوسف الّذي لم يقبلْ بأيِّ تنازلٍ ولو طفيفًا:

ـ «تقولُ خروقٌ؟ عندما يتعلّقُ الأمرُ بتحويلِ مئاتِ الملايينِ من الدّولاراتِ بينَ منافعَ وخدماتٍ في إطارِ التّجارةِ الدّولية، أتعتبِرُها خروقاً بسيطةً بالنّسبةِ إليك؟»

ـ «ولكن يا صديقي، مصرفهم عاجز عن تقديمِ أبسطِ تبريرٍ لنصفِ تحويلاتِهِ المرتبطةِ بالخدمات. كنتُ هناك في الأسبوعِ الماضي. حساباتُهم فوضى حقيقية». قال محمود باشمئزاز.

ـ «الأمرُ لا يتعدّى ذلك. رياض خُرطال هو مسخُ مختبرٍ حقيقي. إنّهُ فرانكشتين محليّ. ما إن نما بالاحتيالاتِ المشوّهةِ والانهياراتِ الماليّةِ حتّى التفَتَ إلى خالقيهِ ليلْتَهِمَهُم. فأصبحَ من الصّعبِ التّحكمُ بِهِ. بينما هم مرتبكونَ أمامَهُ الآن. أليس كذلك يا محمود؟»

لم يجبْهُ محمود. اكتفى بالموافقةِ قبلَ أن ينظرَ إلى عينيّ يوسف مُبديًا كلَّ الاهتمامِ بأقواله.

ـ «أقولُ لكما إنّهم مرتبكونَ فعلاً. لهذا السّببِ يجمّدونَ كلَّ الملفّاتِ الفضائحيّة. أتذكُرانِ فضيحةَ حديدِ البناءِ والأدويةِ، وسأدعُ جانباً الـ...»

ـ «أنت تبالغُ قليلاً، يا صديقي. أهُمْ شياطينُ الصّحافةِ القدامى الّذين يُلهبونَ أفكارَكَ؟ منطقيًا،هناك اثنتا عشْرةَ وكالة من أصلِ مئةٍ وخمس وثلاثينَ مقبولةً لدى المصرفِ الجزائريّ ومسموحٌ لها بكل شرعيّةٍ بتحويلِ الأموالِ الأجنبيّةِ للّدفعِ مقابلَ الدينارِ لصفقاتِ زبائنهم». قال محمود بسخرية.

كان يعلمُ أن صديقَهُ على حقٍّ، ولكنّهُ لجأ إلى الإثارةِ كي يتأكّدَ إذا كان لدى يوسف معلوماتٌ حقيقيةٌ أو على الأقلِّ لِيوثّقَ مصادرَهُ. لقد مرّتْ ثلاثةُ أشهرٍ على إكبابه هو وفريقهُ على التّنقيبِ في هذهِ الملفّاتِ في سبيلِ تقليصِ أُطُرِ هذهِ الكارثةِ الماليّة.

عندما استقبلَهُ اللّواءُ للمرّةِ الأولى إثرَ عودتِهِ من بيروتَ، أوصاهُ بالتّحرُّكِ بدقّةٍ وبالتصرُّفِ مستنداً إلى تقنيّاتِ نظامِ الفخاخ. إنّ منصبَهُ على رأس«خليّةِ مراقبةِ وقمعِ الفساد» يقتضي الكثيرَ منَ الحذاقةِ. كان يدركُ أنّهُ هو نفسه وفريقهِ أيضاً يخضعونَ لرقابةٍ مشدّدة. فبالنّسبةِ إلى عنصرٍ مدرّبٍ على طرقِ ووسائل التّجسّسِ والتّجسّسِ المضادّ، لم يكنْ لديهِ أيّةُ صعوبةٍ في فكِّ رموزِ

رسائلِ الجنرال الّتي قلّما احتوت على تلميحاتٍ، مع أنّ علاقاتهما كانتْ دائماً محكومةً بالحذرِ المتبادلِ برغم زمالتهما الطّويلةِ في الجهاز.

كان الكولونيل قد فهمَ كلامَ رئيسهِ المباشرِ، مع أنَّهُ مغلفٌ بالأخوّةِ، على أنّهُ تحذيرٌ يحدُّ من مجال تحقيقاته. فألحّ بدورِهِ على معاونيْهِ كي لا يتركوا شيئاً للمصادفة، تحسّبًا للضغوطِ الدّاخليّةِ والخارجيّةِ. إلاّ أنّهُ في بياناتِ المعلوماتِ الّتي يُعِدُّها، كان يتفادى ذكرَ كلِّ ما له علاقةٌ بشخصيّاتٍ (B.R.H) الأسبوعيّة محدّدةٍ أو يتعلّقُ بكياناتٍ لا تزالُ في دهاليزِ النّظامِ أو الشّخصياتِ البارزةِ فيه.

كلّما تقدّمَ التّحقيقُ وجدَ نفسَه هو ومعاونوه وجهاً لوجهٍ أمامَ أسئلةٍ وألغازٍ تؤكّدُ الشّائعةَ الشعبيّة. وهكذا بدأ بجمعِ ملفّاتٍ خاصّةٍ متوازيةٍ مع مُتَطَلِّباتِ مهمّته. كان إدريس بوخدنه وماريو المؤتمنَينِ الوحيدَينِ لديهِ من بين مساعديهِ في كلِّ هذه المسألةِ. كان هؤلاء الثّلاثةُ واعينَ أنهم يتحرّكونَ على أرضٍ مُلَغّمةٍ ويخاطرونَ بدسِّ أنوفهم في قفيرِ النّملِ هذا. حتّى الحماية الموعودة من الرّئيسِ الأعلى للنِّظامِ لا قيمةَ لها بإزاء ردود الفعلِ العنيفةِ للذين تدينهم الشّائعة الشّعبيةُ الّتي يبيّنها التّحقيقُ الجاري يوماً بعد يوم.

بالنّسبةِ إلى ما يُشاعُ فإنّ رياض خُرطال لم يكنْ سوى فرّاعةٍ يختبىء خلفَها أشخاصٌ يتحرّكونَ في دائرةِ أصحابِ القرارِ. كان محمود يحاولُ دائماً عدمَ الاعتمادِ على الأحكامِ المسبقةِ المتّصلة بهذا الشّخصِ.

عندما لم يكن ارتقاءُ خُرطال الخاطفُ يشكّلُ الفكرةَ المفضّلةَ ويحتلُّ مكانةً في مقطم الصّحافةِ العالميّة المؤيّدةِ والمعارضة، كان يشكّلُ موضوعًا دسمًا للمحادثاتِ ويثيرُ البلبلةَ في كلِّ سفاراتِ العالم.

عندما كان في منصبهِ في بيروتَ لم يكن محمود يهتمُّ بهذا الشّكلِ الدّقيقِ بقصص خُرطال. بالنّسبة إليه، ما كان يُقالُ عن خُرطال وعن تحرّكاتِهِ لم يكن سوى الجزءِ المرئيّ من جبلِ الجليدِ العائم. الوطنُ يجتازُ مرحلةً من الفورةِ الّتي شجّعتْ عليها سنواتُ الإرهابِ من قبلُ. لم يكن يفكّرُ للحظةٍ واحدةٍ أنّهُ ذات يوم سيحملُ على كاهلِهِ هذه المسألة.

كان قد اعتقدَ على نحو فعلي، متأثرًا ومخدوعًا بحسّهِ الوطنيّ، بأنّه يملكُ إرادةً حقيقيّةً تمكّنُهُ من القضاءِ على أحوال الفسادِ هذه. مع ذلك لم ينسَ

أصدقاءه وزملاءه الّذين ذُبحوا لانتمائهم خلال أشهر عدّة، إلى الفريقِ المشهورِ باسم «فريق الرّئيسِ بوضياف النّزهاءِ الإثني عشَر» الّذين أنجزوا تحقيقاتٍ كبرى عن الفسادِ والارتشاء والمحسوبيّة...

عندما تؤلِمُهُ ذكرياتُه، يجدُ عزاءَهُ في تضحياتِ هؤلاءِ الضّبّاطِ وفي الآمالِ الّتي هبّتْ في نفوسِ الشّبابِ عبرَ نشاطِ الرّئيسِ بوضياف عندما هاجمَ المافيا السّياسيّة والماليّة الّتي ظلّتْ تنهشُ الوطنَ من الدّاخلِ كمرضٍ عُضالٍ يقضي على أقوى الرّجالِ.

بالنّسبةِ إلى محمود، كان رياض خُرطال لغزاً.

كانت تتردّدُ على فكرهِ بين الحينِ والآخرِ صورةُ ذلكَ الشّابِّ الخجولِ الّذي كان قد تركَهُ في حي «الشرّاقة» والّذي كان لا يزالُ يتدرّبُ في صيدليةِ «خُرطال لعمري» وزيرِ المواصلاتِ السّابقِ الّذي عاد إلى الأعمال منذ الانقلابِ الفاشلِ على هواري بومدين.

ذلك الانقلابُ قاده رئيسُ الأركانِ العامّة في الجيشِ وبعضُ الضّبّاطِ في قسمِ الأمنِ الّذين كانوا يؤمنونَ، في مرحلة من تاريخِ الجزائر، بأنّهم يتمتّعونَ بقوّةٍ تُمكِّنهم من إطاحةِ الرّئيس بومدين. اعتقدوا أنّهم الوحيدونَ ورثةٌ عبد اللّطيف أيّ وزيرُ التّسلّحِ والعلاقاتِ العامّةِ والأبُ الطّبيعيّ (MALG) بوسّوف، رئيسِ الـ للأمنِ العسكريّ.

كان ذلك جهدًا ضائعًا بالنّسبةِ إلى هؤلاءِ الضّبّاطِ الطّموحينَ الّذين شكّوا لحظةً في قوّةِ هواري بومدين وفي عصبةِ «وجدة» المحيطة به. ومن طرائفِ التّاريخِ وسخريةِ القدرِ أنّ هذهِ العصبةَ نفسَها هي الّتي شجّعتْ منذُ تلكَ المغامرةِ الفاشلةِ بعضَ الّذين يحومونَ حولَ دوائرِ السّلطةِ لتزرعَهم في عالمِ الأعمالِ وتبقى بفضلهم طليقةً تتمتّعُ بامتيازاتِ مختلفِ الاحتكاراتِ الّتي أعادَ النّظامُ ترميمَها.

كان والدُ رياض خُرطال جزءاً منهم. عندما أنهى رياض خُرطال دراسة الصّيدلةِ في جامعةِ الجزائر، تمتّعَ بدعمٍ من ذويهِ، فلم يتأخرْ في انتزاعِ منصبِ صيدليٍّ في مستشفى «بارنيه بحسين داي».أُعفيَ من واجباتِهِ في الخدمةِ

الوطنيّةِ برغمِ وضعِهِ الجامعيِّ فأدارِ في أوّلِ فرصةٍ صيدليةَ والدِهِ بالوكالةِ قبلَ أن ينطلقَ في استيرادِ الأدوية.

أسّسَ شركةَ خُرطال للصّيدلةِ بالتّعاونِ مع زملاء من الحيِّ كانوا قد هاجروا إلى فرنسا. نجاحُهُ اللافتُ لاقى الإعجابَ وسرعانَ ما جعلَ الشّائعاتِ تدورُ حولَهُ.

كان محمود جزءاً من أولئك النّاسِ الّذين دهشوا لفكرةِ أنّ صيدلياً بسيطاً يُقيمُ في كفرٍ صغيرٍ كـ«الشّراقة» يصبحُ أوّلَ ربِّ عملٍ في البلادِ تُقَدَّرُ أرباحُهُ بِملياري دولارٍ سنويّاً. لا ثروةَ جدّهِ البجّاوي (والد أمِّهِ) ولا ثروةَ أبيهِ تمكنهما أن تفسّرا أسطورةَ الجِنِّ هذه الّتي تركتْ كلَّ العالمِ حائراً.

تكوّنت الهولدينغ في غضون وقتٍ قياسيّ. أصبحَ رياض خُرطال ساحراً حقيقياً. فكلُّ ما يلمسُهُ يتحوّلُ إلى ذهبٍ. استغلّ الصّيدليُّ الشّابُّ انفتاحَ السّوقِ موزّعاً استثماراته في جميع الاتجاهات. لقد تحقَّقَ حلمُهُ المجنونُ بفضلِ تلاقي ظروفٍ مؤاتيةٍ وغيرِ عاديّة.

مولود حمروش رئيس حكومة الجزائر في الفترة الممتدة من سبتمبر/ أيلول 1989 إلى 3 يونيو/ حزيران 1991، وقد شرع في تطبيق إصلاحات جذرية على النظام ترمي إلى تحرير الاقتصاد والحياة السياسية. يعتبر الأب الشرعي للتعددية الإعلامية وحرية الصحافة. أبعد إثرَ انقلاب عنيف ساهمت فيه أطراف عدة مناوئة للديمقراطية بما فيها الجبهة الإسلامية للإنقاذ.

الفصل السادس

المالُ والرّعاع

في نوفمبر/تشرين الثاني عام 1995 اخْتير رئيسِ الجمهوريّةِ السّابعِ من بينِ أربعةِ مرشّحينَ خاضوا الانتخاباتِ بتصويتٍ اتّسمَ بتوتّرٍ كبيرٍ. فالزُّمَرُ الإرهابيّةُ كانتْ قد أطلقتْ شعارَ «صندوق الاقتراع مقابل التّابوت» مهدِّدةً بالموتِ كلَّ من يحاولُ ممارسةَ حقّهِ بالتّصويت.

جُدّد عهد الرّئيسِ في جوٍّ متوتّرٍ جدّاً. فالإرهابُ بلغَ ذروته. بعدَ أقلِّ من عامين، وقعتْ أحداثُ «الراييس» و«بن طلحة» حيث ذُبحَ مئاتُ المواطنينَ في ظروفٍ مضطربةٍ وغامضةٍ.

كان وزيرُ الدِّفاعِ الوطنيّ المرشّحُ لرئاسةِ الجمهوريةِ في أوج تحمّسِهِ وهم يرافقونَهُ أمامَ مِنَصّةٍ أُقيمتْ في فناءِ حديقةٍ تابعةٍ للدّولةِ استُخْدِمَتْ مقرّاً للحملةِ الانتخابيّة.

كانت الدروع البشريّة التي يشكّلها حرّاسُهُ الشّخصيّونَ تتحرّك بدقّةٍ وسطَ العديدِ منَ الصّحافيّينَ ومراسلي التّلفزيوناتِ الّذين احتشدوا لِلحصولِ على أوّلِ تصريح من الرئيس الّذي أُعيدَ انتخابُهُ مجدّداً.

ألقى الرّئيسُ نظرةً على جمهورِ الصّحافيّين وعلى مصابيحِ الكاميراتِ وسطَ انهمارِ أضواءِ الفلاشاتِ عليه، ثمّ انتابتْهُ موجةُ ضحكٍ معديةٍ مستمرّةٍ دامتْ بضعَ دقائقَ قبلَ أن يتمالكَ نفسَهُ. اختُصرت مدّة المؤتمرِ الصحافي لأسبابٍ تخصُّ فقط مُعِدّي هذا المؤتمرِ. في صالونِ الفيلّلا الواسع، جلسَ مجموعُ الأعضاءِ الّذينَ كوّنوا النّواةَ الصّلبةَ في الحملةِ الانتخابيّةِ حولَ الرّئيسِ. بعدَ التهانئ الاعتياديّة تبادلَ الرّئيسُ نظرةً خاطفةً مع الجنرال «أحمد تيلفاف»، الّذي هزّ رأسَهُ خفيةً. فوقفَ الرّئيسُ عندئذٍ وبدأ بالكلامِ:

«أخواتي، إخواني الأعزّاءُ، أُصِرُّ أن أشكرَكم جزيلَ الشُّكرِ على العملِ الّذي بذلتموه وعلى التّضحياتِ الّتي قمتُم بها خلالَ الإعدادِ وخلالَ سيرِ الحملةِ الانتخابيّة. فبفضلِ تفانيكم وتضحياتكم حقّقْتُم نجاحاً ضخماً ونصراً كبيراً للجزائر.

أنا مقتنعٌ أنّكم ستستمرّونَ بالعملِ بالتّوجُّهِ نفسه حتّى النّصرِ الأخير، نَصْرُنا بتخليصِ بلدِنا من شّرِّ التطرّفِ الإسلاميّ كي يعمَّ السّلامُ والأمانُ شعبَنا الشّجاع. فكّروا في أخذِ قسطٍ من الرّاحةِ لبعضِ الوقتِ. أعتقدُ أنّكم حقّاً تستحقّونه. وليجمعْنا اللهُ على دربِ النّصرِ! إذاً سيتصل بكم لاحقاً سي أحمد وسي محمد. مرّةً أخرى أعبِّرُ لكم عن شكري العميقِ على العملِ الّذي قمتم به». وليحفظْكم اللهُ جميعاً.

نظرَ الرّئيسُ إلى الجنرال تيلفاف الّذي نَهَضَ فجأةً. وهبّ أعضاءُ الهيئةِ الانتخابيّةِ واقفينَ دفعةً واحدةً تتملّكُهم موجةُ رضىً وقلوبهم مفعمةٌ بالفخر.

وقد حاول معظمهم توجيه ابتسامةٍ خجولةٍ نحوَ الجنرال تيلفاف والرّئيس، على أملِ إبرازِ أنفسِهم. دعا الجنرالُ المستشارُ الرئيسَ ليتقدّمَهُ عندَ مدخلِ الصّالون. اصطفّ معاونُوهُ الأربعةُ إلى يسارِهِ وأخذوا يصافحونَ كلَّ المغادرين. تقدّمَ أعضاءُ الحملةِ الواحدَ تلوَ الآخرَ بخطواتٍ صغيرةٍ نحوَ الرّئيسِ ورجالِهِ عندما خرجَ آخرُ رجلٍ. صفّقَ الرّئيسُ:

ـ «آه! كان يوماً رائعاً![الله يكثّر من أمثاله!] فَلْيُعِدْهُ اللهُ علينا».

ـ «نعم، سيّدي الجنرال! لقد نجحنا حيثُ حطّم الآخرون أسنانَهم» أجابَهُ الجنرال تيلفاف.

كان كثيراً ما ينادي الرئيسَ بعبارة سيّدي الجنرال بسببِ الفترةِ الطّويلةِ الّتي قضياها معًا في صفوفِ الجيشِ الشّعبيّ الوطنيّ (ANP) وللإشارة إلى درجةِ الحميميّة بينهما.

جلسَ رجالُ الرّئيس الثّلاثةُ (الجنرالُ المستشارُ أحمد تيلفاف ومحمد دوغمة رئيسُ الدّيوانِ في الرّئاسةِ وعبد الكريم كروما رجلُ ثقةٍ لدى الرّئيسِ ويتولّى مهمّة المستشارِ كذلك) مرتاحينَ حولَ رئيسِ الدّولة.

أخذ محمد دوغمة يقدِّمُ القهوةَ للحاضرين. بعدَ أن ارتشفَ الرّئيسُ رشفةً أولى، قالَ لصديقه الجنرال تيلفاف:

ـ «أعتقدُ أنّ يديكَ الآن مُطْلقتان كي تبدأَ بتنفيذِ مشروعنا...»

ـ «نعم، سيّدي الجنرال. نعتقدُ أنّهُ الوقتُ المناسبُ لاجتثاثِ الشّرِّ من جذوره. سي محمد حقّقَ تقدّمًا كبيراً في درس المشروعِ وإعدادِ خطّةِ التنفيذ».

ـ «هذا واضحٌ، سيّدي الرّئيس، سنُطالَبُ في البدايةِ بتطويقِ هذا الكمِّ الهائلِ من مقدار المالِ غيرِ المحدودِ الّذي يجري خارجَ مسالكِ الدّولةِ. لم يسبق البتة لِبُنْيَتِنا الماليّةِ أن امتصّتْ أكثر من 3% من هذا المقدار. في العام 1990، كانت حكومة حمروش تقدّرُ هذه الأموال بِـ37, 000 مليار دينار ثقيل[9]».

توقّفَ رئيسُ مكتبِ الرّئاسةِ لحظةٍ، بلّلَ شفتيه بقفا لسانِهِ ثمّ أضافَ بكلِّ ثقةٍ:

ـ «هذه المليارات السّبعةُ والثلاثون تضاعفتْ خمس مرّاتٍ منذُ ذلكَ الحين. مع غيابِ سلطةِ الدّولةِ، السّوقُ الموازية (الطرابندو) في مجملها تقريباً تحتَ رقابةٍ مباشرةٍ من الجبهةِ الإسلاميّةِ للإنقاذ».

ـ «هذه السّوقُ الموازية باتت سوقًا للملتحينَ وأحدَ مصادرِ تمويلِ حزبهم الأساسيّة». قال عبد القادر كروما.

ـ «لم يكتفِ تجّارُ التّهريبِ بتمويلِ الجبهةِ الإسلاميّةِ للإنقاذِ (FIS)، بل انخرطَ جميعُهم في الشّبكاتِ الإرهابيّةِ بطريقةٍ أو بأخرى». قال الجنرالُ تيلفاف مستشارُ القضايا الأمنيّة ورئيسُ المجلسِ الأعلى للأمن.

ـ «تماماً، أيّها الجنرال» قالَ الرّئيسُ موافقًا وهو يهزُّ رأسَهُ. «نحنُ لدينا الشّعبُ إلى جانبنا. نحنُ مطالبونَ بتلبية تطلّعاتِهم. علينا أن نُريحَهم من البؤسِ الّذي يعانونه يومياً باستئصالنا هذهِ الحثالةَ من جذورها. إذا نجحنا في جذبِ رؤوسِ أموالِ السّوقِ الموازيةِ إلى مسالكَ يمكنُ مُراقبتُها، فسيكونُ بإمكاننا السّيطرة بسهولةٍ على تحرّكاتها. يعرضُ أصدقاؤنا في النّظامِ المشاركة في مساندتنا في هذه المهمّة. إنّهم مستعدونَ لتحريكِ أجهزتهم وإحياءِ شبكتهم النّائمةِ لتسييرِ هذا الأمر».

ـ «سيّدي الرّئيس، حجرُ الأساسِ في هذا الصَّرحِ يكمنُ في إطلاق مصرفٍ تابعٍ للقطاعِ الاقتصاديّ الخاصِّ، تُحوّلُ إليهِ هذه الأموالُ الخارجةُ عن القانون، أقصدُ مالَ المهرّبين. ستتمتّعُ هذه المؤسّسةُ بقُدراتٍ وبسلطاتٍ وبحرّيةِ المبادرةِ وبالتّدخّلِ السّريع الّذي يلائمُ انطلاقتَها. نحنُ سندعمُ تعهداتِها نحو أصدقائنا. سيكونُ ممكنًا بالنّسبة إلينا أن نلوي عنقَ البيروقراطيةِ الّتي تقضمُ

مصارفنا العموميّة وتجمّدُ نظامنا المصرفيّ. الدّراساتُ التّقنيّةُ والماليّةُ والعمليّةُ كلّها جاهزة. يبقى أمامنا متابعةُ أعمالنا. من المقدّرِ أنّهُ سيكونُ بالإمكانِ بلوغُ الهدفِ الأوّلِ في مهلة تراوحُ بين 28 و30 شهراً.

تكلّمَ رئيسُ الدّيوانِ الرّئاسيّ بهدوءٍ وبصوتٍ منخفضٍ كاشفًا بعض استنتاجاتِهِ. كان الرّئيسُ وعبد القادر كروما يتابعانِ كلامَهُ دونَ اعتراضٍ. أمّا الجنرال تيلفاف، فكانَ بين الحين والآخر يدوّنُ ملاحظاتٍ سريعةٍ على دفترٍ صغيرٍ.

عندما ختم رئيسُ الدّيوانِ شروحه، ألقى الجنرال تيلفاف نظرةً سريعةً على بعضِ هذه الملاحظاتِ ثم وجّهَ الكلامَ إلى محمد دوغمة:

ـ «حسناً، أعتقدُ أنّهُ لا يزال هناك بعضُ النّقاطِ مع مصالحِ الحكومة تحتاجُ إلى توضيحٍ. فلا بدَّ لهذا المصرفِ أن يتمتّعَ بحريّةِ التّحويلِ وتبديلِ الأموالِ من الخارج وإليه. و كذلك يبقى تدقيقُ بعضِ الأشياءِ مع أصدقائنا في المؤسّسة».

ـ «سيكونُ هذا مصرفًا تجاريًا أوّليًا معتمدًا لتحويلِ الأموال. كونُهُ خاضعًا لموافقةِ المصرفِ الجزائريّ المسبقة، على غرارِ المصارفِ العامّةِ، فإنّ عملياتِ التّبديلِ والتّحويلِ لن تواجهَ أيَّ تجميدٍ، لأنّ سيولةَ الدّينارِ لا يمكنُها بأيّ حالٍ أن تشكّلَ عوائقَ حقيقيّة. رؤوسُ الأموالِ الخاصّة ترفضُ أصلاً القروضَ. هذا الترتيبُ يُسهّلُ مهمّة جماعةِ الماليّة والمصرفِ الجزائريّ لدعم إنشائها بالتشجيعِ على الحسم». أجاب رئيسُ ديوان الرّئاسة.

ـ «يبدو يا سي أحمد، أنّهُ لم يبقَ إلاّ القيامُ بضربةٍ عنيفةٍ كي تسيرَ الأمورُ على نحو جيد». قال الرّئيس بنبرةٍ مرحة.

ـ «[جماعة المؤسسة، تباركا أللا فيهم] رجالُ المؤسسة، يباركهم الله، رتّبوا الملفَّ من أوّلهِ إلى آخرهِ، سيّدي الرّئيس. يبقى لديّ فقط مسألةٌ صغيرةٌ تحتاج إلى توضيحٍ منهم: اختيارهم (أوليد خُرطال) ابن الخُرطال. أسيكونُ على المستوى المطلوبِ؟ هل يملكُ نفوذًا قويًا لإنجاحِ المشروع؟ ثمّ، أسيثقون به؟ في (FIS) لقد كان أمينَ صندوقِ الفرعِ البلديّ للجبهةِ الإسلاميّة للإنقاذ الشرّاقةِ بحسب معلوماتي؟» سأل الجنرال تيلفاف.

ـ «تماماً، سيّدي الجنرال، يعتقدونَ أنّهم يستفيدون من هذا الوضع. لأنّ النّاشطين الإسلاميين وداعميهم يحتاجون إلى وسيطٍ مع امتداداتِهم في الخارج. في الجزائر، يجبُ الاعترافُ بواقعِ الحال، فمنذ تطبيقِ قانونِ منعِ التصرُّفِ بمبالغَ كبيرةٍ على مستوى المصارفِ، والشّبكاتُ الأرهابيّةُ تجدُ الكثيرَ من الصعوبات...»

«...ـ «[الله إيباراك] حسناً. لنأملَ أن تتحسّنَ الأمورُ في الاتّجاه الجيّد

ثمّ انتقلَ الرّجالُ الأربعةُ إلى مواضيعَ أخرى، متجاهلينَ تماماً الجلبة المرتفعةَ في باحةِ الفيلّلا والتحرُّكَ الهائجَ الّذي بدأ يتّخذُ شكلّهُ ليجتاحَ بعد ذلك شوارعَ العاصمة: شبابٌ وعائلاتٌ تكدّسوا في سيّاراتٍ من مختلفِ الماركات وأعلام تخفق في المسيرةِ الضّخمةِ الّتي تجوبُ شراايينَ المدينة.

وانطلقتْ مهرجاناتُ زماميرِ السّياراتِ يقطعُها أزيزُ طلقاتٍ ناريةٍ ابتهاجًا من كلِّ الجهاتِ منتزعةً الزغاريدَ الانفعاليّةَ المفعمة بمشاعرِ البهجةِ من أفواهِ النّساء المنحنياتِ على الشُّرُفات.

دينار ثقيل أي دينار واحد مضروب في مئة .

الفصل السابع

المُتربصون

ذلك المساءُ فيما كانتِ المدينةُ تشتعلُ بالجماهيرِ المبتهجةِ، كان رياض خُرطال يغادرُ بسرعةٍ كبيرةٍ مرأبَ فندقِ الأوراسي خلفَ مِقوَدِ سيّارتِهِ المرسيدسـ بنز وتتدافعُ أمامَ عينيه مشاهدُ لا تُحصى.

لا يزالُ صوتُ سي طيِّب يرنُّ في رأسهِ:«من حسنِ الحظِّ أنّك فكّرتَ في إنشاءِ مؤسّسةٍ ماليّةٍ. ألا يُقالُ إنّ المالَ هو عصبُ الحربِ؟»

ـ «نعم، ولكنّ القانونَ يتطلبُ رأسمالاً اجتماعيًا قيمته 50 مليار سنتيم، وأنا لا أملكُ هذا المبلغ». قال رياض بخجلٍ موجّهاً كلامَهُ إلى رفيقِ والده المتوفّى. كانت زوجتُهُ جويدة قد أبدت انفتاحاً حذِراً على نهايةِ حلمِهِ المجنون. كانت تدري أنّ أهلَها غيرُ مستعدّينَ لتقديمِ أيّةِ مساعدةٍ لزوجِها الطّموحِ. هذا صحيحٌ، كما تقولُ في قرارة نفسها، هذا إن لم يحاولوا عرقلتَهُ. لم يكن رياض مع ذلك قد تآلَفَ مع ثروةِ والدَي زوجتهِ؛ ولكن أُبُوّةَ هؤلاءِ المفرطةَ تجاهَ ابنتِهما الوحيدةِ الّتي لا يزالانِ يحتضِنانِها تدفعُهُما إلى الاعتراضِ على أيّةِ مبادرةٍ يقدّمها صهرُهُما. كانا يعتبرانِ رياض خُرطال لامبالياً بعضَ الشّيء بحيثُ لا ينبغي له أن يغامرَ خارجَ منضدةِ صيدليّتهِ الّتي ورث إدارتَها من أبيه.

عندما عرضَ رياض بوجودها نيّتَهُ إنشاءَ مصرفٍ بالشّراكةِ مع قصّاص ومهدي، أبدتْ جويدة انزعاجًا واضحًا.

أعلنَ مهدي حينذاك أنّهُ لا يمكنُهُ تأمين سوى مليونَي فرنكٍ حاليًا واقترحَ اللّجوءَ إلى والديّ جويدة. أرْفَق اقتراحَهُ بغمزةِ عينٍ هازئة نحو تلكَ الّتي انزعجت وأجابت بصوتٍ متردّد:

«آه! لا علمَ لي أنا بأيِّ شيءٍ. دعني أنا خارجَ حكاياتكم!»ـ

قال رياض خُرطال بجفافٍ وقد اعتَرَتْهُ انتفاضةُ عزَّة وإباء:

ـ «أبداً! لا مجالَ لذلك. لنجدْ شيئاً آخرَ! إذا لم يكن بالإمكانِ جمعُ هذا المال، فلا داعي إلى الطلب من أيٍّ كان.

وَضَعَ التَوَتُّرُ الظاهرُ لصاحبِ البيتِ حدّاً لهذا النقاش. عندما غادرتْ جويدة الصّالون، تناولَ مهدي زجاجة جوني ووكر بلو لايبل وملأ ثلاث كؤوسٍ وزّعها على المجموعة. احتسوا الشّرابَ وقتاً طويلاً من الّليلِ وهم يتحدّثون عن أمورٍ متنوّعة.

كان حديثُهم مُفْعمًا بحماسة متزايدة وبكثيرٍ من التّصميم.

كي يُلْهِبَ حماسة صديقيه، روى لهما قصّاصُ المشهدَ الّذي دارَ أمامَ عينيه في صباحِ اليوم نفسِهِ عند نوافذ أحدِ أفخمِ المصارفِ في الجزائر:

ـ «لا بدَّ أن ذلك الشخصَ كان صاحبَ مؤسسةٍ مشهورةٍ بصناعةِ الملابسِ الجاهزة. خرجَ هائجاً من مكتبِ مديرِ الوكالةِ المصرفيّةِ الواقعِ خلفَ النوافذ. ما إن وصلَ إلى بابِ الخروجِ حتّى قفل راجعًا. كانتْ عيناهُ تقدحانِ دمًا، وزاويةُ فمِهِ تفيضُ بالزَّبدِ الأبيضَ؛ كان يصرخُ: «تريدوننا أن ننتهي؟ ألا تعني لكم حياةُ ألفٍ وثلاثمايةِ عائلةٍ شيئاً، يا بيروقراطيي خصيتيَّ! لسْتُم سوى عصابةٍ من الحركيين![10]. أنتم خُنتم الوطنَ والشعبَ، هذا ما جعلَ قفا كلِّ واحدٍ منكم يُصبحُ سمينًا! الدولةُ لا تعطي بخشيشاً، لهذا السّببِ أنتم تتجاهلوننا. تقولونَ إنّها التّوجيهات؟ بل هي توجيهات أختك أيُّها المرتشي!

يبدو كأنّهُ كان يوجّهُ الكلامَ إلى الشّخصِ المسؤولِ عن غضبِه والّذي لا يمكنُ رؤيتُهُ خلفَ النوافذ.

عندما توسّل إليه موظفُ الأمنِ وهو يمسكُ ذراعَهُ أن يهدأ ويخرجَ، أضاف بإصرار:

ـ «فلتأتِ المصارفُ الخاصّة بسرعةٍ! وسنرى حينذاك إذا كانتْ بيروقراطيتكم ستساعدُكم على العيشِ من مالِ الآخرين ومن أملاكِ الدّولة!»

علّقَ جميع الموجودينَ في الصّالةِ بِصوتٍ واحدٍ مؤيّدين رأيه.

ـ «أنتما تلاحظان يا صديقَيّ، إنهم بانتظارنا!» قال قصّاص وقد لمع بريقُ فرحٍ في عينَيهِ الضيقتين كعيونِ الصينيين.

ـ «سيكون هذا رائعاً!» قال رياض بحماسة. «سنستولي على مفاتيحِ النّجاحِ من حماقاتِ هذا النّظام المصرفيّ المغفّلِ الّذي لا يريدُ أن يُبَدِّلَ ريشَهُ. كيف لا

تتوقّعُ أن ينجحَ مصرفُنا عندما نرى كيفَ تتصرّفُ هذه المصارف العموميّة؟ لا يوجدُ أيُّ نصٍ قانونيّ يمنعُ الجزائريّينَ من القيامِ بعملياتِ الاستيرادِ. لكنّ هذهِ المصارفَ تمنعُهم من ذلكَ بِحجّةِ أنّ توطينَ الفواتيرِ المتعلّقَةِ ببعضِ المنتجاتِ ممنوعٌ. بينما ينفّذ جزائريون آخرونَ محميّونَ بالأقوياء عملياتِ استيرادٍ معتَبرة برغم أنّها غيرُ قابلةٍ للتّوطينِ المصرفيّ. ومع مصرفنا هذا، إن شاء الله، سنحطّمُ هذه الطريقةَ الانتقائيّة وهذا التّمييزَ التّعسفيّ في العملِ طَوعاً أو كرهاً...»

ـ «هذا أكيد! فالجزائرُ بلدٌ يحتاجُ إلى الجميعِ وإلى كلِّ شيءٍ. عندنا، كلُّ شيءٍ مطلوبٌ، وكلُّ القطاعاتِ تحتاج إلى مختلف أنواعِ الاستثمارات. فلو نظرنا إلى المستثمرينَ الأجانبَ مثلاً لوجدنا أنهم يحلمون جميعاً بالاستثمارِ في الجزائرِ ومقبلونَ على ذلك لولا عراقيلُ السُّلطات في طريقهم». قال قصّاص بلهجة عمليّة.

ـ «يجبُ علينا، بحسب خطّتنا الهجوميّة، فورَ وقوفِنا على أقدامِنا، أن نُقنعَ الجزائريّينَ بالخدماتِ الملموسةِ والسّهلةِ والموثوق بها والحديثةِ. سنكونُ نحنُ أوّلَ من يُعمِّمَ البطاقةِ المصرفيّة في الجزائر. سترون». تحدّاهما محمد بابتهاج.

شعرَ الثّلاثةُ بالحماسة. شربوا نخبَ قرارِهم، متناسينَ العقبةَ الّتي لا يمكنُ تخطّيها والّتي عليهم التّغلّبُ عليها إذا أرادوا تنفيذَ مشروعهم: ضرورة تأمينُ مبلغِ اثني عشَرَ مليارِ سنتيمٍ لفتحِ ملفِّ إيداعٍ تكوينيّ للمصرف، وهذه هي النّقطةُ العقدةُ في كلِّ هذه المغامرة.

0. أشخاص من أصلٍ جزائري كانوا عملاء للجيش الفرنسي.

الفصل الثامن

المنديل النسائي

ضغطَ رياض فجأةً على الفراملِ عندَ وصولِهِ إلى تقاطعِ ملعبِ «واغنوني». كانتْ سيّارةُ شرطةٍ تعبرُ الطّريقَ المجاورَ بسرعةٍ جنونيّة. انطلقتْ سيّارةُ المرسيدسـس تسلكُ شارعَ الّتيليملي قبلَ أن تتوارى سريعاً في متاهاتِ هذا الحيِّ الّذي كان في الماضي من أرقى الأحياءِ في العاصمة.

ما إن دخلَ منزلَهُ حتّى تخلّصَ من سترتِهِ عندَ عتبةِ بابِ الدُّخولِ ورمى علاّقَتَي المفاتيحِ اللّتينِ في يدِهِ على الكونسولِ الصّينيّ في مدخلِ المنزلِ وأسرعَ إلى المرحاض. كانتْ مثانتُهُ مُثْقلةً بالكحولِ وتسببُ لهُ مغصاً مؤلماً في أسفلِ بطنهِ.

بعدَ دقائقَ، وبعدَ صفعاتِ بعضِ الأبوابِ انضمَّ إلى زوجتِهِ وابنتِهِ الجالستينِ إلى طاولةٍ في وسطِ المطبخِ الواسعِ. كانت جويدة قد أعدّتْ ذلك المساء وجبةَ اللّزانيا المفضلةَ لدى رياض. إنّ إعدادَ وجبةِ اللّزانيا لزوجها على العشاءِ كانت تعتبرُ رسالةً محمّلةً بمعاني الإثارة الموجّهةِ إليه. لقد أخبرتْها جدّتُها لوالدها نانا جوهر ذاتَ يومٍ، وهي تحثُّها على الارتفاعِ إلى مستوى المرأةِ النّاضجةِ الّتي تتوحّدُ مع كلِّ بناتِ حوّاءَ في المناجاةِ النّسائيّة، وباحَت لها بأنّها، في عهد صباها، كانتْ تستعملُ لُغةَ المناديلِ للتّواصُلِ مع الحاج.

كانت تضعُ الفولارَ الأحمرَ للدّلالةِ على وجودِ حدودٍ للتعفُّفِ عن زوجها. وعندما كانت تنتهي من فترةِ حيضِها كانتْ تَضَعُ المنديلَ المزركشَ الزّاهي الألوان الّذي أحضرهُ لها زوجُها معهُ من مكّة. وهكذا لا ينسى زوجُها وهو ذاهبٌ إلى دكّانهِ أن يَضَعَ لها النُّقودَ على الرَّفِّ قربَ فرنِ المطبخِ. هذا المالُ كانتْ تنفِقُهُ في اليومِ نفسه في حمّام النِّساء. وهكذا، قالتْ لها جدّتُها، كانا يعيشانِ حياتهما الجنسيّة بكثيرٍ منَ الحياءِ.

كانوا يعرفونَ التمتُّعَ بصمتٍ، وكانوا يعرفون ما معنى أن تخضعَ الأنثى لبَعلِها. هذا النّوعُ من النّقاشِ بينَ النّساءِ كان دومًا لدى جويدة مصدرَ تساؤلٍ. كانت تفكّرُ في جدّتها الّتي كانت تريدُ من خلالِ ما تبوحُ لها بِهِ أن ترفعها إلى طبقةٍ

عاليةٍ في التّسلسلِ العائليّ، لكنّ جويدة مع ذلك لم تتمكنْ من فهمِ سببِ تحدُّثِ النَساء بكلِّ حرّيةٍ في ما بينهنّ. إنّهنّ يسمحنَ لأنفسِهنّ بالتّفَوُّهِ بعثراتِ لسانٍ يمتنع عنها الرجالُ بين الأشقاء، وبين الأبِ وابنِهِ، وعل نحو أقلّ بكثيرٍ بينَ الأخِ والأختِ وبينَ الزّوجِ وزوجتِهِ. عندَ النّاسِ الّذين تلقّوا التّربية الجيّدة، لا يُسمحُ بالتلفُّظ بكلامٍ فاحشٍ أمام امرأةٍ أو أمامَ زوجين. فعندما تغمزُ جويدة زوجها بطرفِ عينها كانتْ تدركُ أن رسالتها وصلتْ إلى مبتغاها. ولم تكن ابنتها الوحيدةُ «ماليسّا» تلاحظُ شيئاً من الرّسائلِ المتبادلةِ بين والديها في جوٍّ حافل بالدّهاءِ والمرحِ. حتّى قبلَ أن تسكُبَ جويدة العشاء، تناول رياض بين أصابعِهِ النّاعمةِ ذاتِ الأظفارِ المُعْتنى بها جيّداً، طرفَ لزانيا مغطّاةٍ بالجبنةِ المحمّرةِ: «!همم، إنها لذّةٌ حقيقيّة! سأتمتّعُ اللّيلة بكلّ تأكيد»

وفركَ يديهِ بنهمٍ والتقتْ نظرتُه نظرة زوجتِهِ. تذكّرتْ في أعماقِ نفسِها أوّلَ لحظاتِ نشوةٍ عاشتْها في ليلةِ زفافها. بنظرتِهِ الآن، جعلها رياض تشعرُ بدوارٍ، كأنّه يعد بنشوةٍ جديدة. وهكذا اختبأتْ بخجلٍ تحت دفء جلدها.

قضيا ليلةً ملتهبةً لم توفّرْ جويدة خلالها أيَّ جهدٍ لإخراجِ زوجها من أعماقِ معاناةِ جسدِهِ المعذّبِ بكلِّ هذا القدرِ من الطّموحِ، ومنَ التشّوُقِ لرؤيةِ نفسِهِ مرتفعاً إلى قمّةِ المجد الّذي كان يطمحُ «سي طيّب» وأصحابُه لدفعهُ إليهِ.

منذ لقائهما الأوّلِ تعيش جويدة خوفاً دفيناً من رؤيةِ زوجِها يبتعدُ عنها. فهو بالنّسبة إليها ثمرةٌ لا يمكن التنازلُ عنها. هذا القريبُ الموعودُ بثروةٍ أكيدة، والابنُ الوحيدُ لصاحبِ النفوذِ خُرطال الكبير. كانتْ قد التقته مصادفة في أحدِ أعراسِ العائلةِ. كان مرتبطًا بفتاةٍ جزائريّةٍ قاسَمَها سنواتِ شبابِهِ النّديّ في كليّةِ الطِّبِّ.

الفصل التاسع

الإجهاض

لولا تشجيعاتُ خالتها «دوجا» لم تكنْ جويدة تفكِّرُ أبداً بالاقترابِ من رياض.
في يوم صيفيٍّ، في صالةِ المؤتمراتِ الفخمةِ الّتي استخدمتْ كصالةٍ للأفراحٍ في فندقٍ كبيرٍ على السّاحلِ الجزائريّ، تفجَّر لدى جويدة الأملُ الدّفينُ الّذي يحييهِ مزاحُ والدةِ رياض في كلِّ مرّةٍ يلتقونها. عندما رأى رياض جويدة ذلك اليوم لدى وصولِ موكبِ العروس، مرتديةً ثوبَ سهرةٍ طويلاً من السّاتان المرصّعِ بحبات السّتراسِ الصّغيرةِ المتلألئة، تجمّدَ مكانَهُ وقد جفّ حلقُهُ. حملقَ عندما اقتربَتْ منهُ في ثوبها الضّيقِ الّذي يُظهر جمالَ جسدِها المكتملِ البُنيةِ. رمتْهُ بابتسامةٍ خفرة قبلَ أن تبتعدَ لحظةً عن طوافِ الموكبِ، ثمّ عادتْ والتفتَتْ نحوَهُ بوجهها المُشرقِ. هي لم تكنْ تشكُّ البتة في أنّها منذُ ذلكَ اليومِ ستعيشُ في حلمٍ قريباً منه. لقد انقلبَ رياض ذلك المساء بكُلِّيتهِ. لقد اجتاحتْ فكرَهُ. فأخذَ يستغلُّ أقلّ فرصةٍ كي يتقدّمَ منها ويوجّهَ إليها الابتساماتِ ونظراتِ الإعجاب. أثناءَ عودتِهِ برفقةِ والدتِهِ، قال لها رياض بلهجةٍ مرحةٍ وبشيءٍ من الجدّ:

«لقد أصبحتْ جميلةً جدّاً، قريبتُنا جويدة... لم أكد أعرفُها!»

انتفضتْ والدتُهُ والتفتَتْ نحو ابنِها بدهشة:

«واش؟ وزهراؤك؟ ألم تعدْ تُسْعِدُكَ؟ ـ

«لا ليس الأمرُ كذلك! قلتُ هذا الكلامَ هكذا» قال متظاهراً بالبراءةِ ـ.

«لا، لا يا بُنيّ! أنت تُخفي عنّي أموراً... منذ بعض الوقتِ كنتَ تعطي انطباعاً ـ بأنك شابٌ لا يدركُ إلى أين يتوجّهُ. أنتَ ابني وأنا أعرفُك».

«أنتِ مخطئةٌ! إلى ماذا تلمّحين؟ ليسَ لديّ أيّةُ مشكلةٍ مع زهرا! ثمّ، لماذا ـ تتحدّثين عنها الآن؟»

لم يكن يشكُّ في أن توتّرَهُ لم يغِبْ عن بُعْدِ نَظَرِ والدتِه.

كان اللّيلُ قد بدأ يحِلُّ والعتمةُ تسدلُ أستارها داخلَ سيّارته المرسيدس. فجأة تراءى لرياض الغارقِ في أغوارِ نفسِهِ خيالُ جويدة، كالملكةِ في ثوبها

الطّويلِ المزركشِ بالبروق، والتفافةِ جسدِها الّتي تذكّر بخطيئةِ الفخامة.

تذكّر قامةَ زهرا النّحيلة الّتي سرعانَ ما بارحتْه. انتابتْهُ رعشةٌ في عموده الفقري وهو يتذكّرُ النِّزاعَ الّذي حصلَ بينهما قبل ثلاثةِ أيّامٍ... كانت في أسوأ حالاتِها عندما جاءته إلى الصيدليّةِ منقبضةَ الوجّهِ.

صعَقَتْهُ بنظرةٍ خارقةٍ قبلَ أن تجهشَ باكيةً:

ـ «أهكذا تتركني أنتظرُكَ ساعتين ونصف الساعة كالحمقاء؟»

ظلّ رياض كالرخام. دارَ حول الكونتوار، أمسكَ ذراعَ زهرا بقوةٍ وأخذَ يجرُّها نحوَ بابِ الخروج.

ـ «ألم أقلْ لكِ مرّاتٍ عدّة أن تكفّي عن إزعاجي بحماقاتِك! لا أريد فضائحَ أمامَ الزّبائنِ... ولكن... أتفهمينَ أم لا؟»

ـ «ولكن لا يوجدُ أحدٌ في الصّيدليّةِ. توقّفْ، أنت تؤلمني. لماذا تعاملني هكذا؟»

هزّتْ ذراعَها بقوّةٍ وخلّصَتْ نفسَها من قبضةِ رياض. كان الشّارع خاليًا على غيرِ عادته. وليس في الحيِّ سوى ثنائيٍّ ينزلان من سيّارةٍ كبيرةٍ ألمانيّة. لقد فقد الحيُّ الّذي تقع فيه الصيدليّة بريقَ عِزِّهِ، ولم يعُدْ مبنى بيتِ الشّبابِ المقابل للمتاجرِ سوى بناءٍ ينهارُ تحتَ أثقالِ السنين والبؤس. لقد نبتتْ عشبةٌ مجنونةٌ حولَهُ وهجرَهُ مرحُ وفرحُ حياةِ الشبابِ الّتي كانت تدبُّ فيه فيما مضى.

أجهشتْ زهرا بالبكاء. أمسكَ رياض ذراعَ صديقتِهِ مجدّداً وجذبَها نحوَ سيّارة الـ «بي أم دوبل فيه» المتوقّفةِ على بُعدِ عشرةِ أمتار. شغَّلَ جهازَ التّحكمِ عن بُعدٍ لفتحِ أبوابِ السّيّارةِ ودفعَ زهرا إلى داخلها على المقعدِ المجاور للسّائق:

ـ «انتظريني هنا، سأعود!»

خبّأتْ وجهها بيديها وحاولتْ خنقَ دموعها، ولكن عبثًا. أرادَ رياض أن يخفي الحادثِ عن عينَي أي عابرٍ محتمل، فأغلقَ بابَ السّيّارة بقوّةٍ واتّجهَ مسرعًا نحو مدخلِ الصّيدليّة. فتحَ جارورَ صندوقِ المالِ بعنفٍ وأخذَ منهُ كدسةً كبيرةً من الأوراقِ الماليّة.

ـ «[عثمان، انتهلا] انتبهْ يا عثمان، سأعودُ بعد قليل. انتظرْني قبلَ أن تقفل»

قال للموظّفِ الشّابِ ثم عادَ إلى السّيّارة وجلسَ خلفَ المقود.

استلَّ من جيبِهِ كدسةَ الأوراقِ النّقديةِ وسلّمها إلى زهرا:

ـ «خذي! يجبُ أن يكفيكِ هذا المبلغُ لحلّ مشكلتك».

ـ «لأنّ هذه مشكلتي وحدي! السيّدُ لا علاقةَ له؟» قالتْ زهرا له دونَ أن تتوقفَ عن البكاء.

ـ «كفّي عن هذا الهذيان؟ زهرا. اهدئي، الآن!»

ـ «أنتَ تركتني أنتظرُ، بحالتي هذه، ساعتين وتريدني أن أهدأ؟ لقد فهمتُ مقاصدك. منذُ أن أخبرتك بذلك وأنتَ تحاولُ أن تتجنّبني!»

ـ «كفّي عن التصرّفِ بسخافةٍ. ما الّذي تتخيّلينَهُ؟ لن أدعَكِ تسقُطين!» انحنى وتناولَ ظرفاً شفافاً يحتوي على حُقنتينِ وزجاجتَيْ دواءٍ كان قد رتّبها من قبلُ بعنايةٍ في علبةِ القفازاتِ في سيّارتِهِ. لمستْ يدُهُ فخذَ زهرا الّتي تراجعتْ على نحو تلقائيّ.

ـ «هاي! ما بك؟ هذا أنا، هل أصابَكِ الهَبَلُ أم ماذا؟ حسناً، خذي هذا واتفقي مع قادر! الأمرُ سيسير بطريقةٍ طبيعيّةٍ كما لو أنّهُ ليس هناك أيّةُ خطورة. لقد تكلّمتُ معه هذا الصّباح، إنّهُ ينتظرُكِ صباحَ غدٍ في العيادةِ المركزيّة».

ـ «وماذا لو لم يسِرِ الأمرُ على ما يرام، ماذا أفعل؟ لقد تأخّرَ حيضي أسبوعين! ولكن أنتَ لا تهتمّ البتة!» أجابتْهُ زهرا وهي تجهشُ بمزيدٍ من البكاء.

ـ «سحقاً! كفي عن البكاء» صرخ رياض وقد فقدَ أعصابَهُ.

ثبّتَ كدسةَ المال على ركبتيها:

ـ «إذا لم يسرِ الأمرُ على ما يرام، ليس أمامَك سوى التَوجُّهِ إلى «وهران»، إلى عيادة الدكتور «شفاء» أو إلى تونسَ. ستتخلّصين من هذا الأمرِ بسرعة».

ثم أدار مفتاحَ التّماسِ فانطلقتِ السّيّارةُ كالإعصار. عند خروجها إلى الشّارعِ الكبيرِ، دسَّ رياض يدَهُ على ملامسِ الأوامرِ وشغّل الإقفالَ المركزيّ للأبواب. لقد تراءَتْ لهُ لِلحظةٍ فكرةٌ. فحيال الحالةِ النّفسيّة الّتي تتخبّطُ زهرا فيها خطرتْ ببالِهِ فكرةٌ جعلتْه يرتعشُ: تخيّلَ زهرا تفتحُ بابَ السّيّارةِ وترمي نفسها خارجها. دون أن يُبعدَ عينيهِ عن الطّريق، تابعَ مراقبةَ صديقتِهِ بطرفِ عينهِ.

ـ «سترين، كلُّ شيءٍ سيسيرُ على ما يرام. أنا أستقبلُ مئات الفتياتِ والنّساءِ اللّواتي يشترينَ منّي «الميزوبروستول». أؤكّدُ لكِ أنّكِ على وشكِ أن توتّريني

«بدون داعٍ، هذا بالإضافةِ إلى أنّي أجتازُ مرحلةً قذرة في هذه الفترة.

«ـ «الآن، السّيد هو الّذي ليس على ما يرام؟ ولكن أنت بماذا تهتمّ، يا رياض؟

أوقفَ رياض السيّارةَ فجأةً وسطَ أزيزِ فرامل حادٍّ. ضغطَ على لمسةِ فتحِ الأبوابِ المركزيّةِ، انحنى نحوَ اليمينِ، فتحَ بابَ السّيّارةِ ودفعَ زهرا خارجَها:

ـ «هيّا اذهبي، ابتعدي عنّي! اذهبي وتباكي في مكانٍ آخرَ، أنتِ في النّهايةِ بدأتِ تزعجينني! لطالما كنتِ تحبين المشاكسة! أنتِ لا تتوقّفين عن التّسبُّبِ لي بالمشكلات! اتّصلي بي عندما تهدئين!»

ما إن وطأتْ قدماها الأرضَ حتى ركّبَ رياض السّرعةَ الأولى وانطلقَ بسيّارتِهِ بسرعةٍ كبيرة. استشاطتْ زهرا غضبًا وسلكت الشّارعَ المؤدّي إلى حيّ «ليفييه». سارتْ بجانِبِ سور مستشفى «بارنيه» ثمّ نزلتْ إلى «الربوةِ الحمراء».

تذكّرتْ رغماً عنها لقاءها الأوّل مع رياض خُرطال أمامَ مدخلِ الكافيتيريا في المطعمِ الجامعيّ «عميروش» عندما كان كلٌّ منهما ينتظرُ حتى يحين دوره من أجلِ إيداعِ ملفّ طلبِ المنحةِ الجامعيّةِ.

كان هو قادمًا من «الشراقة» وهي من ثانوية «عائشة» غير البعيدة عن حيّ «سيلا»، حيثُ كانتْ تسكُنُ مع أهلها وأخواتها وإخوانها الستّة. كانت تستعدّ للحصولِ على شهادة الإجازة في التّرجمةِ فيما كان رياض قد تمكّنَ من دخولِ كليّةِ الصيدلة بمعدلِ علاماتٍ جيّد في البكالوريا العلمية.

ذُهِلَ رياض بجمالِ زهرا الباهر، وبحيويّتها وحبّها للحياة. كانت تبدو محلّقةً فوقَ كلِّ المحيطين بها. كانتْ قد خُلِقَتْ للسّحرِ والفتنةِ. بقي أسبوعاً كاملاً يتسمّرُ كلّ يومٍ أمام شارع «عميروش» على أملِ لقائها مجدّداً.

وفيما كان ذات صباحٍ قادمًا لاصطحابِ والدِهِ إلى الإدارةِ العامّةِ للـبنك الجزائريّ الخارجي (BEA) القريب من المطعمِ الجامعيّ، لمَحَها من الخلفِ وكانت برفقة صديقة لها، تتجّهانِ إلى الكليّة المركزيّة على بُعدِ شارعين نحو الأعلى.

أوصلَ والدَهُ وأسرعَ للانضمام إلى الفتاتين اللّتين سرعان ما لمحهما مجدّداً. أطلقَ زمورَ سيّارتِهِ مرّاتٍ عدّة كي يلفتَ نظريَهما. رمتِ الفتاتانِ نظراتٍ

ساخطةً نحو الشّابِ الجريء الّذي كان منذُ ولادتِهِ يكرهُ التّحَفُّظ.

عندما رأتا سيّارتَهُ، اعتقدتا أنّهُ ابنُ راعي بقرٍ أو ابنُ فلاّح ثري أو ابنُ مهرّبٍ غنيّ، لكنهما سرعانَ ما أدركتا أنّ وجهَهُ مألوف لديهما. نادى رياض زهرا باسمها وركنَ سيّارتَهُ بكلِّ جرأةٍ إلى جانبها. ظلّتْ زهرا للحظاتٍ مذهولةً. مدّتْ رفيقتُها يدَها إلى رياض بعد أن شدّ بيدِهِ بحرارةٍ على يدِ زهرا.

ـ «أنا طالبٌ في كليّةِ الصّيدلةِ، لقد التقينا ذلك اليوم في المطعمِ الجامعيّ».

ـ آه، نعم! أنت من أعطاني الطابعَ الضريبي. اليومَ معي مال. انتظرْ، ها هي الخمسةَ عشَر ديناراً» قالتْ وهي تدسُّ يدها في حافظةِ نقودها.

ـ «اوه لا! ليس هذا، لو سمحتِ. أنا رياض خُرطال، شابٌ حيويٌ وصاحبُ مستقبلٍ واعِدٍ...»

قهقهتِ الفتاتانِ وقد استغربتا مزاجَ هذا الشّابِّ الفاتن. ولم يكنْ من رياض عندئذٍ إلاّ أن سارعَ ليطلبَ موعداً من زهرا. ثم افترقا على الفور. ظلّ رياض خلفَ مقودِ سيّارتِهِ ينظرُ إلى الفتاةِ وهي تبتعدُ باتّجاهِ الجامعة. كان يأملُ أن تلتفتَ مرةً أخرى: «إذا فعلتها، فهذا يعني أنّ الأمر سينجح...» والتفتَتْ! ومنذذاك ظلاّ يخرجان معًا على مدى خمسةِ أعوامٍ.

كفتاةٍ متبصّرةٍ، استمرّتْ زهرا تفتنهُ على طريقتها حتّى ذلكَ اليومِ الّذي امتلكها فيه، مزّقها وعلّمها المتعةَ والحبَّ والرعشةَّ الأولى.

ذات مساءٍ، دعاها إلى تمضية عطلةِ نهايةِ أسبوعٍ طويلةٍ في «تيكجدا[11]». استأجرَ غرفةً في فندقٍ يطِلُّ تماماً على منحدرِ جبلٍ يكسوهُ الثلج.

تردّدتِ الفتاةُ طويلاً قبلَ الموافقةِ على خلعِ ملابِسها. وقفتْ في وسطِ الغرفةِ تنظرُ للحظةٍ إلى السريرينِ المغطّيانِ بغطاءينِ منَ الصّوفِ المحوكِ على نحو فنّيٍّ دقيقٍ. وكانت الشرائطُ ذاتُ الألوانِ الزّاهيةِ تعطيهما رونقاً خيالياً. بالنّسبة إلى رياض لم يكن هناك مجالٌ البتة للاحتفاظِ بالسّريرينِ متباعدين والنوم منفصلين. بنظرةٍ شهوانيّةٍ ربَتَ على السّريرِ قبلَ أن يرميَ بنفسِهِ مستلقيًا على عرضِ السريرِ على ظهرِهِ ودعا زهرا إلى الانضمامِ إليه. لكنّها ظلّتْ واقفةً مجمّدةً مكانَها. نهض بقوّةٍ وبقفزةٍ واحدةٍ انضمّ إليها، أحاطَ

خصرَها بيديهِ وجذبها إليهِ؛ دسَّ يدَهُ تحتَ سترتها الجلديّة، تحسّسَ أسفلَ قميصها الضّيقِ، ثم اتّجَهَ صعودًا نحو ثدييها الطّليقين. للحظةٍ اجتاحها اضطرابٌ غريب. أغمضتْ عينيها علّها تفهم لغةَ الجسدِ الجديدة وتدرِك ما يعتريها. كانت تشعرُ بما يشبهُ اختلاج الرّغبةِ بينما يدا صديقها تضغطانِ على ثدييها. أخذَ يداعبُهما واحدًا تِلْوَ الآخرِ، يقرصُ الحلمتين الزهريّتينِ تحتَ القميصِ.

ـ «رياض...» تمتمتْ مضطربةً من شدّة الانفعال.

أحسّتْ في ظلامِ الغرفةِ بأنفاسِ رياض قريبةً جدّاً من وجهِها، شعرتْ بشفتيه تقتربانِ من شفتيها، طالت اللّحظاتُ بالنّسبةِ إليها. أطبقتْ شفتا رياض اللحيمة على شفتيها. كلٌ منهما في هذه اللّحظاتِ يشعرُ بالحاجةِ للآخر بشكلٍ عنيفٍ. يشبهُ اندفاعُهُ نحوها الموجَ العارمَ الّذي لا يوقِفُهُ شيء، وهي لا تدري، أهوَ الخوفُ أم الرّغبةُ أم الخجلُ أم الشّك، كلّها أحاسيسُ تزاحمتْ في رأسِها، لكنّ الرّغبةَ استحوذَتْ على كلّ ما عداها، حتّى أحسّتِ الفتاةُ أنّها لم تعدْ تملكُ زمامَ نفسِها، أصبحتْ تسيرُ على غيرِ هدى، تتّبعُ في الظّلامِ همسَ صوتِهِ، يناجيها «زهرا... أحبّكِ... أحبّكِ... آه لو تعلمين كم أحتاجُ إليك... كم أرغبُ فيك، زهرا!»

ـ «لا، رياض! لو سمحت، حبيبي... لا، لا أستطيع. توقّفْ! لا ينبغي».

رفعَ رياض رأسَهُ ونظرَ مباشرةً في عينَيّ زهرا:

ـ «اسمعي، هذا أنا، يا صغيرتي...»

ثم ما لبثتْ شفتاهُ الدّافئتانِ أنْ أطبقتا على شفتيها المرتجفتينِ، حاصرتاهما، أحسّت الفتاةُ بنفسِها فريسةً لهذا الإحساسِ الرّائعِ، كأنّها ترتفعُ وتشقُّ عبابَ السّحاب. تردّدتْ قليلاً، إلاّ أنّ رياض لم يسمحْ لها بمزيدٍ من التّفكيرِ، لقد دكّ آخرَ الحصون. انفصلَ فكرُها عن جسدِها وتركَها وحيدة. تمكّنَ لسانُ رياض البارعُ من أن يقتحمَ فمَها لينهلَ قبلةً طويلةً اصطحبتهما إلى دنيا السّحر. لاحظتْ بأنّ جسدَها أيضاً يتمرّدُ عليها، يثور، لقد تخلّى عنها، خانها وها هو يسلّمُ الرّاية إلى رياض. لقد تحوّلتْ همساتُه إلى هديرٍ صمّ أذنَيها فلم تعدْ تسمعُ غيرَ لهاثِهِ، وضاعت بين أنّاتها وتأوّهاتهِ الّتي تصدحُ بنغمٍ واحدٍ منشدةً لحنَ الحُبِّ على وقعِ دقّاتِ قلبيهما المتفجّرين.

دونَ أنْ يتركَ غنيمتَهُ ودونَ أنْ تدعَ شفتاهُ شفتَي زهرا، أخذتْ يداهُ تزرعانِ اللّهبَ في جسدِها الظمآن. تتنقّلانِ على بشرتِها النّديّةِ ملبّيةً نداءاتِها الصّامتةِ. ثمّ التحمَ الجسدانِ وازدادَ سعيرُ اللّهيبِ في قلبيهما. أدركت الفتاةُ أنّها عاجزةٌ أمامَ هذا الشّابِ المتّقدِ بالحيويّةِ، كانتْ تثقُ بأنّه رجلُها، ولها وحدَها، وبأنّها أغلى ما لديه، حاولتْ للمرّةِ الأخيرةِ وبضعفٍ كبيرٍ أن تبتعدَ عنه. لكنها استسلمت لشلاّلِ الرغبةِ الكامنِ في أعماقِها.

وذهبتْ لمساتُهُ تغوصُ بعيداً تسلبُها كلَّ ما تبقّى لديها منْ فلولِ قِواها. أحسّتْ بالخضوعِ التّامِّ لمشيئةِ رياض. لقد سيطرَ على الوضعِ، وأصبحَ سيّدَهُ وحدُه حتّى النّهايةِ. تلوّتْ للحظاتٍ ثمّ وهبتْ نفسَها لهذا الزّائرِ الجديدِ والأوّلِ الّذي اجتاحَها بكلّ شبابِهِ. دونَ أنْ يضيِّعَ أيّة لحظةٍ إضافيّةٍ، دخلَ رياضُ بستانَ زهرا وقطفَ أزهارَ ربيعِها. لَسَعها ألمُ حريقٍ شعرتْ به في أعماقِ بطنها سرعان ما تحوّلَ هذا الألمُ تدريجًا إلى إحساسٍ غريبٍ ظلَّ يقوى وحملَ لها لذّةً عميقة. وما هي إلاّ لحظاتٍ حتى اجتاحتْها الرّعشةُ الكبرى، فانتشتْ وسقطتْ فريسة شبقٍ كبير. أما هو فبعدَ أن أشبعَ كلّ رغبتِهِ، ارتمى بحضنها منهكًا، عندئذٍ فقط، أدركتْ أنّ ما لا يمكنُ إصلاحُهُ قد وقعَ. انفجرتْ باكيةً. أمسكَ رياضُ كتفَيْها وضمّها إلى صدرهِ:

ـ «توقّفي زهرا. أنتِ تتصرفين بحماقة، هذا لا شيء. كان يجبُ أن نقومَ بذلك الآن أو في ما بعد! صراحة، أنا أفضِّلُهُ هكذا، نحن خُلقنا واحدنا للآخر».

بحثَ عن فمها في الظّلامِ وطبعَ قبلةً على شفتيها الرطبتين. نظرتْ إليه بقلق:

«...رياض، أنتَ لن تخونني أو [تتلاعب بيبا] تلعبَ بي؟

ـ «أوه! أوه! إلى أينَ تذهبينَ بكلامِك؟ أبداً! أنتِ تعلمينَ أنني أعبدُكِ وأنكِ ملكي الآن. سننهي دراستَنا ثمّ نعلنُ علاقتنا رسميّاً!»

استلقيا مجدّداً جنبًا إلى جنب. مسحتْ زهرا عينيها. أمسكتْ طرفَ الغطاءِ بين أسنانِها، سكتتْ لحظةً ثم قالت:

ـ «وإذا طلبتَ من أهلِكَ أن يأتوا لرؤيةِ أهلي، كي يتمَّ التعارفُ والإعداد للخطبة في ما بعد».

ـ «نعم، هذه فكرةٌ جيّدة. لِما لا، نُفتِّح (نقرأ الفاتحة)، هكذا نكون أكثر حرّيةً في تحرّكاتنا. هذا بالإضافةِ إلى أنّه سيكونُ لديّ أكثرُ من سببٍ للدِّفاعِ عن صيدي بأمانٍ كما أتمنّى». بدأ صوتُ رياض يبتعدُ شيئاً فشيئًا. أحسّتْ زهرا بجسدِها يخورُ ويسقطُ من أعلى جبلٍ. ثمّ استسلما للنّوم.

طوال اليومِ التّالي، لم يتركا السّريرَ إلا لقضاءِ حاجةٍ جسدية. في المساءِ استعادا قواهما بعد تناولِ العشاءِ وجلسا على كرسيّ طويلٍ على شرفةِ الغرفةِ مُلْتَفّينِ بغطاءِ السّرير. أخذا يراقبان الصّمتَ الّذي يلفُّ الغابةَ الكثيفة والعميقة في بدايةِ فصلِ الشتاءِ هذا.

كان نورُ القمرِ ينعكسُ في العتمةِ على هذا المعطفِ الأبيض اللامتناهي الأطراف. وقد أصبح الجبلُ مبهمًا، صامتًا. كانت كلُّ الأشكال المتعدّدة والمتنوّعة ككثبان رمل في الصحراء، تبدو مخطّطةً بأغصان الصنوبر الّتي تغطّي سفحَ الجبلِ العظيم. ومن هذه الأشجار تنبعثُ رائحة بريّةٌ.

1. تيكجدا: منتجع استجمام شتوي في جبال جردرة، تمارسُ فيهِ رياضةُ التزلج.

الفصل العاشر

ثمن الندم

مساءَ يومِ الجمعة، وهما في طريقِ العودةِ، كان رياض مرهقًا، وكانتْ زهرا قد غفتْ منذ دخولِ السّيّارة إلى الطّريقِ الوطنيّ. توقّفَ رياض عندَ مدخلِ مدينةِ البويرة. استيقظتْ زهرا والتفتَتْ نحوَ مؤخرةِ السيّارة. كان رياض يُخرجُ من صندوقِ السّيّارة الخلفي غالون ماء. رشّ نفسَهُ بالماءِ وغصّ وهو يشربُ وقد بلّلَ عنقَه. كان الماء مثلجاً تقريباً. رفعَ رأسَهُ وتنشّقَ الهواءَ المنعشَ في آخر هذا النهار. كانت المدينةُ تبدو غارقةً في سباتٍ تامّ.

وحدهم عابرو الطّريقِ الوطنيّ الخامسِ كانوا يزعجونَ السّكينةَ الّتي تغرق فيها «البويرة» عقب صلاة الجمعة. كانتِ المدينةُ هذه قد بدأتْ تستقبلُ منذُ أسابيعَ البردَ القارصَ الآتي من قممِ سلسلةِ جبالِ «جرجرة» الثلجيةِ العاليةِ. مسحَ الشّابُّ وجهَهُ وعنقَهُ بمنشفةٍ استلّها من حقيبةِ السّفرِ الموضوعةِ في صندوقِ السّيّارة. لفّ المنشفةَ حولَ عنُقِهِ وعادَ إلى السّيّارة. ما إن دخلَها حتّى نظرَ بعطفٍ إلى صديقتِه:

ـ «برررر! الطّقسُ باردٌ جدّاً في الخارجِ. كدتُ أغفو خلفَ المقود».

بعد ساعتينِ، أوصلَ زهرا إلى منزلِها. وكانا يلتقيان يوميّاً بعدَ الظّهر: غداءٌ في مطعمٍ، شايٌ في مقهًى، نزهةٌ في السّيّارة، زيارةٌ أو زيارتان إلى مطعمِ «التريانغل» أو إلى ملهى «سانت جورج»».

في نهايةِ الأسبوعِ التّالي دعا رياض شقيقتَهُ «سونيا» لمرافقتِهما إلى حفلِ شواءٍ في «ستاويلي». تخلّصتِ الفتاتانِ بسرعةٍ من الجمودِ الّذي يرافقُ عادةً هواجسَ النّاس بعضهم تجاهَ بعض في ظروفٍ مماثلة. شعرتْ سونيا بالسّعادةِ ولم تتردّدْ بالتّعبير عن إعجابها بزهرا:

ـ «أجدُها جيّدة جدّاً. لإنّها حقاً ما تحتاجُ إليه. هي تناسبك تماماً. سأحدّث والدتي عنها. ستكون سعيدةً برؤيتها» قالت لأخيها.

اكتفى رياض بالابتسام، بعدَ أقلٍّ من شهرٍ تقريباً، دعتْ سونيا زهرا لمرافقتِها إلى المنزل. كانتْ قد أنهتْ امتحاناتِ الفصلِ الأوّلِ. فكليّةُ الحقوق تقدّمتْ

كثيراً عن كليّة التّرجمةِ وبقيّةِ كلياتِ جامعةِ الجزائر. تواعدتِ الفتاتانِ أمامَ المدخلِ الرّئيسيّ للكليّةِ المركزيّةِ. استقلّتا سيّارةَ أجرةٍ أوصلتْهما إلى فيلّلا خُرطال.

لم تكنْ زهرا تعرفُ المنزلَ إلاّ منَ الخارج. أخرجتْ والدةُ سونيا شرشفَ سفرةٍ جميلاً للمناسبةِ. استقبلت الضّيفةَ الشّابّةَ في الصّالونِ الكبيرِ المفروشِ بأثاثٍ فخمٍ جدّاً ثم طلبتْ من الفتاتينِ الانضمامَ إليها في المطبخِ حيثُ كانتْ تعدُّ الغداء.

انهمكتِ الفتاتانِ بإعدادِ المائدةِ فيما كانتِ الوالدةُ تطرحُ العديدَ من الأسئلةِ عن دراسةِ زهرا وأعمالِ أهلِها وعددِ أشقائها وشقيقاتها. كانتْ تختلسُ النّظرَ إليها بين لحظةٍ وأخرى فيما كانتِ الفتاةُ مهتمةً بترتيبِ الأطباقِ على الطّاولة وتجيبُ بدونِ وعي. عندما جلسْنَ إلى المائدةِ، وصلَ رياض وانضمَّ إليهنّ بسرعةٍ.

تظاهرَ بعدمِ الاهتمام بما جرى قبلَ وصولِهِ، تصرّفَ على نحو طبيعيٍّ حيال هذا الوضع الجديدِ حتّى الآن. أخفتْ والدتُهُ تحفّظَها عما يخصُّ الفتاة. في الواقعِ، لم تكنْ تحبُّ حريّتَها في التّصرُّفِ وصراحتَها في الكلام. أثناءَ تناولِ الحلوى لم تكفَّ عن تأمُّلِ هذا الثّنائي، وتقولُ لنفسِها ليستْ هذه هي الفتاة الّتي تريدُها لابنها الحبيب. وبدأتْ ملامحُ قراراتٍ ترتسمُ في رأسِها. حتّى سونيا، الّتي تعرفُ والدتها جيّداً، شعرتْ بتحفّظِ والدتِها.

للحقيقةِ كانتْ والدةُ رياض قد نفرتْ من زهرا منذُ اليومِ الأوّلِ. ولكنّها بدهاءٍ منها قرّرتْ السّكوتَ أمامَ غضبِ ابنها الّذي يثورُ لدى أقلِّ انتقادٍ توجّههُ إليهِ. لكنّ هذا لم يمنعْها من أن تشتكي ذات مرّةٍ أمامَ ابنتِها أو أمامَ قريباتِها.

ذاتَ مساءٍ، فيما كانتا تتابعانِ برنامجًا كوميدياً برازيلياً مدبلجاً إلى العربية، وكان المشهدُ يدورُ حولَ شناعاتٍ تقترفُها كنّةٌ تجاهَ حماتِها، حدّثتِ الأمُّ ابنتَها عن زيارةٍ ستقوم بها إلى قريبتها في «أوكاس». كانت قد قرّرتْ مرافقتَها صباحَ الجمعةِ إلى مزار «يمّا غورايا» لإشعالِ سبعِ شمعاتٍ وللتَّوسُّلِ طلبًا لمساعدتها كي تخلِّصَ ابنَها من سحرِ هذهِ الشَّيطانة.

كانت أمنيتُها الكبيرةُ أن تزوّجَ ابنَها جويدة، ابنة قريبِها، أو أختها الأصغر منها «صالحة». كما أنّ سونيا الّتي ازدادتْ اقتناعًا بآراءِ ومواقفِ والدتها ومواقفها المبرّرة بعضَ الشّيء، ابتعدتْ عن زهرا حتى أنّها أخذتْ تتجنّبها. وهكذا عندما ذكرَ رياضُ جويدةَ أمامَ والدتِهِ لدى عودتِهما منَ الحفلِ، فكّرتِ بلطفٍ في قريبتها «غنّوجة العمشة».

الفصل الحادي عشر

عندما يحتلّ الكذب عينيه

توقّفتْ زهرا لحظةً لدى الدّرجة ما قبل الأخيرة، دسّتْ يدها في حقيبةِ يدِها ثمّ وقفتْ جانباً في إحدى زوايا الممرِّ الطّويلِ المؤدّي إلى بابِ شقّتهم. مسحتْ دموعَها، فركَتْ جفونَها وصدغيها وخدّيها ثم أخذتْ نفسًا عميقاً مرّتين قبل أن تقرعَ الجرسَ. فتحتَ أمّها البابَ، قبّلتْ زهرا أمّها على خدّها واتّجهتْ نحو الغرفةِ الّتي تتقاسمُها مع شقيقتَيها اللّتينِ تصغرانِها سِنّاً:

ـ «لنْ أتناولَ العشاءَ اللّيلةَ، يا أمّي، أنا تعبة».

استغلّتْ فرصةَ غيابِ أختيها عن الغرفةِ، رمتْ حقيبةَ يدِها بعصبيّةٍ على السّرير. فتبعثرَتْ محتوياتُ الحقيبةِ وسقطَ بعضها على الأرض. أسرعتْ زهرا تلتقطُ علبةَ الـ «سيتوتاك». أغلقتِ القارورةَ، تردّدَتْ لحظةً قبلَ أن تعيدَها إلى أعماقِ حقيبتها. إنها الآن مقتنعةٌ بأنّ هذه أفضلُ طريقةٍ للاحتفاظِ برياض. ولكن منْ جهةٍ أخرى، إنْ قرّرتِ الاحتفاظَ بالجنينِ فلا شيءَ يضمنُ لها أنّ رياض سيقبلُ بالأمرِ الواقعِ. تلك الليلة سكبتْ زهرا بصمتٍ كلَّ دموعِ جسدِها.

في الصّباحِ الباكرِ كانتْ تدخلُ إلى قسمِ الطبّ النّسائيّ في مستشفى «القبّة». انتظرت الدّكتور «قادر» بفارغِ الصّبر. لكنّ مخاوفَها ازدادتْ أمام ريبةِ الطّبيب:

ـ «ماذا؟ إنّهُ أبله؟ هل أُصيبَ رياض بالهبلِ! ليسَ لكِ أنت، بالذّات؟ كيف، ألا يدري أنّ هذا الدواء قذارة، سحقاً! عدا عدم فاعليّتِهِ الّتي تصل إلى خمسة «على ستّة، فهو يسبِّبُ مُضاعفاتٍ عدّة! هو صيدليّ، أليس كذلك؟

ـ «لستُ أدري، دكتور. ربّما في قرارةِ نفسهِ لا يريدُ أن ينجحَ الأمرُ؟» تمتمتْ زهرا دونَ أن ترفعَ نظرَها عن علبةِ الدّواءِ الّتي لا تزالُ على عربةِ الأدوية الصّغيرة.

ـ «ولكن لا، ليسَ الأمرُ كذلك. المضاعفاتُ تؤثّرُ على نحو أساسيّ في الجنين».

تأمّل الطبيبُ زهرا قليلاً ثم قالَ بحزمٍ:

ـ «على كلِّ حالٍ، سأصفُ لكِ شيئاً آخرَ يجبُ أن يـظهرَ تـأثيرُهَ خلالَ السّاعاتِ الستِّ المقبلـة؛ وإلاّ فـلن يبقـى أمامنا سوى الـكشط».

كان رأسُ زهرا يغلي وهي تغادرُ المستشفى. بصعوبة كانتْ تميّزُ النّاسَ الّذين تلتقيهم في الطّريقِ الّذي يفصُلها عن موقفِ الباصِّ المؤدّي إلى «بن عمر».

في منتصفِ الطّريقِ، أشرقَ وجهُها بابتسامةٍ عريضة. إنها سيّارةُ رياض الـ «بي أم دوبل فيه» تتوقّفُ على بعدِ سنتيمراتٍ منها. انحنى رياض ليصلَ إلى قبضةِ البابِ الأماميّ:

ـ «هيّا! اصعدي» قال لها مبتسماً. ذهبتُ إلى المستشفى فقالَ لي قادر «أنكِ خرجتِ للتّو».

ـ «أوصِلْني إلى منزلنا، لو سمحت. أريدُ أن أكونَ في المنزلِ عندما يحصلُ الأمر». قالت له زهرا.

ـ «حسناً! سأمرُّ لاصطحابك في المساء. سنقوم بجولة» قال رياض دونَ أن يبعدَ نظرَهُ عنِ الطّريقِ.

كانتِ السّيّارةُ تسيرُ بسرعةٍ متدنّية في زحمةِ الشّارعِ الرّئيسيّ في «القبّة»، وكان الصّمتُ الجنائزيّ الّذي يسودُ السّيّارةَ يُثقلُ الجوَّ. بعدَ لحظاتٍ وفيما كانتِ السّيّارةُ تقطعُ منعطفَ طريقِ «فوبون» لامستْ أصابعُ رياض خدَّ صديقته:

ـ «هيّا! لا تحزني؛ ستسيرُ الأمورُ على ما يرام، سترين. غداً صباحاً لن يبقى من الأمرِ غيرُ ذِكراهُ السّيئة...»

ـ «نعم، ولكنّك تقولُ هذا لأنّك أنتَ لا تهتمُّ نهائياً. فلستَ أنتَ من سيُواجِهُ التّجربةَ المرعبةَ إذا لم يؤثّرِ الدّواء» قالت زهرا.

ـ «أوه! أنتِ ترينَ الأمورَ بسوداويّةٍ منذُ بعض الوقتِ. هاي! أنا لا أعرفُكِ هكذا!» قال رياض منزعجًا.

ـ «ولكن ما الّذي يمنعُنا منَ الزّواج والاحتفاظِ بالطّفلِ؟» سألتهُ زهرا..

ـ «وتَحِلُّ الفضيحةُ؟ ألم تفكّري في الأهل؟» صرخَ رياض..

ـ «بوف! الأهل؟ ماذا تقول هنا؟ ولكن ألا يتمنّونَ هذا، أهلنا؟» أجابتْهُ زهرا منزعجةً بدورها.

ـ «أهلكِ نعم. ولكن أهلي لا. ألم تفكّري بحالةِ والدي؟ لنْ يقبلَ أبداً بالأمرِ الواقع؛ وقلبُهُ المريضُ لنْ يتحمّلَ العارَ».

ـ«ولكن يا رياض، نحنُ خطيبان منذُ خمسةِ أعوامٍ، إنني أنتظرُ منذُ خمسةِ أعوامٍ لكي أعيشَ كالنّاسِ جميعاً. أنتَ تتخلّى عنّي الآنَ بعد أنْ أصبحَ لديكَ كلُّ ما يمكّنُك من تكوينِ عائلة. في السّابقِ كنتَ تقولُ لي دائماً: عندما أُنهي دراستي. الآن وقد أصبحَ لديكَ كلُّ شيءٍ [راك تلعب بيبا، يا رياض] ستلعبُ بي يا رياض؟» أردفَتْ زهرا بصوتٍ مفعم بالمرارة.

أحسّ رياض بالدّمِ يتدفّقُ إلى رأسِهِ. ضغطَ على فكّيهِ وقد شعرَ بالغضبِ يتملّكُه. أغمضَ عينيهِ للحظاتٍ كي يستعيدَ هدوءَهُ. الرّهانُ صعبٌ وهوَ ليسَ في وضع القابضِ على زمامِ الأمورِ كما أنّهُ لا يريدُ أن تزدادَ الأمورُ تعقيداً.

ـ «زازا، اسمعيني جيّداً؛ أنتِ تشغلينَ بالكِ بدونِ سببٍ. اذهبي واستريحي الآن، وفي المساءِ عندما أمرُّ لاصطحابكِ من منزلكِ، أنا متأكّدٌ أنني سأجدُكِ في حالٍ أفضل لأنّ كلَّ همومِكِ ستكونُ قدْ زالت». قال لها.

وأتبعَ القولَ بالفعلِ مداعباً رقبَتها. تراجعتْ زهرا إلى الوراء قليلاً وقد بدا شيءٌ من الاشمئزازِ على ملامحِ وجهِها المرهق الّذي حتّى المكياج الجيّد لم يتمكنْ من إخفاء التّعبِ عنه بعدَ ليلةٍ من البكاءِ والهواجس.

سارتِ السّيّارةُ بصمتٍ حتّى «الربوة الحمراء». وما إن وصلا إلى حي «سيلا» حتّى صفقتْ بابَ السّيّارةِ وراءَها وسارتْ بخطواتٍ سريعةٍ محاولةً حبسَ دموعِها. كانت تَرِنُّ في رأسِها أنغامُ بيانو حادة تتساقطُ من لامكانٍ ثم تردّدَ صوت ذو صدىً بعيد: «ودمعةُ الحبِّ هذه الّتي تسافرُ فيكِ وتنمو حتّى حدودِ الأسى...» أحسّتْ بكلِّ كيانِها يترنّحُ في هوّةِ القلقِ العميقِ. أخذَ رياض ينظرُ إليها وهي ترحلُ دونَ أن توجّهَ إليه أقلَّ نظرة، ثمّ ناداها من أعلى سقفِ سيّارتِهِ:

ـ «إيه! لا تقلقي، سأمرُّ لاصطحابِكِ في المساءِ بعدَ إقفالِ الصّيدليّة».

لم تلتفتْ زهرا. «قناعٌ بدونِ وجهٍ، لا يخيفُ من يحييونَ في الزّمنِ الغابرِ، آبارٌ من الكذبِ والنِّفاقِ المصنّف الّذي يبترُ أحلامَ المفلسينَ تحتَ أكواخِ القشِّ ولا يحددُ أيّةَ آجالٍ معيّنة».

لم تسمعْ شيئاً من كلامٍ صديقِها. كان حزنُها يكبُرُ أكثرَ كلّما ابتعدتْ عن السّيّارة. كانت تأملُ أن يكونَ تأثيرُ الدّواءِ جيّداً، وأن تتبدّدَ مخاوفُها بسرعةٍ وأن يبدِّلُ رياض موقفَهُ من هذا الحملِ المزعجِ وأن يشْرَعَ في الإعدادِ لترتيباتِ الزّواج. شعرتْ أخيراً بإحساسِ الفوزِ بالزّواجِ من رجُلِ قلبِها رغماً عن منافساتِها العديداتِ اللّواتي تحاولنَ سرقتَهُ منها.

موقفُ رياض الغاضبِ وتوتّرُهُ منذ أخبرتْهُ بتأخُّرِ حيضِها وبرغبتِها في تحقيقِ مشروعِ الزّواجِ وتثبيتِ اتحادِهما على نحو واضح، عادتْ إليها ذكرى اللّحظاتِ الجميلةِ الّتي عاشتْها إلى جانبِهِ. حبستْ نفسَها في غرفتِها، جلستْ خلفَ الطّاولةِ الّتي كانتْ ساحةَ عملِها في الماضي، أمسكتْ دفتراً مستعملاً من قبلُ، انتزعتْ منهُ عشْرَ صفحاتٍ مستعملةً وبدأتْ تكتبُ بشرودٍ وبيدٍ متردّدةٍ بعض السّطورِ: «وهذا الفراغ الّذي ينتابني، يتملّكني، ويحوّلُني إلى غيوم، إلى تمتماتٍ مذنبةٍ تُزبِدُ سطحَ الجُمودِ، ثمّ تغرقُني في أعماقِ اهتزازٍ خفيٍّ يمزجُ الصّبرَ بالسُّباتِ...»

تفحّصَ رياض المكانَ حولَه. لم يرَ أيّةَ نظرةِ تطفُّلٍ، فعادَ إلى المقودِ وسلكَ منحدرَ «الرّبوة الحمراء» بسرعةٍ كبيرة. انعطفَ إلى يمينِ امتدادِ شارعِ طرابلسَ ثمّ سلكَ الجسرَ المؤدّي إلى نفقِ «واد وشايح» واتّجهَ نحوَ الطّريقِ الفرعيّ. كانتِ السّيّارةُ تسيرُ بسرعةٍ كبيرةٍ. كانتْ مخاوف مظلمة تتملّكُ رياض: «ماذا لو لم ينجح الدّواء؟ ماذا لو رفضتِ الإجهاضَ؟ يا للفضيحةِ! لن يسامحَهُ والدُهُ أبداً على هذا الأمر. ومع مرضِ القلبِ الّذي يعانيه والدُهُ، ستكونُ تلكَ هي الطّامةُ الكبرى! لا، لا، وألفُ لا! في أيّةِ حالٍ، يجبُ أن لا تحتفظَ بهذا الحملِ منّي...»

لَكَمَ مقودَ سيارتِهِ بكلتا يديْهِ بقوّةٍ. لكنّ الخوفَ من عدمِ التّمكنِ من السّيطرةِ على زهرا والقلقَ من تعرُّضِهِ أمامَ الأمرِ الواقعِ كفريسةٍ، لشكلٍ ما من أشكالِ الابتزازِ والفزعَ من رؤيتِها تفرضُ عليهِ زواجاً قسريّاً على حسابِ

طموحاتِهِ المتناميةِ برغم إرادةِ والديهِ، كلّ ذلك أعادَهُ سريعاً إلى الأرض. ظلّ يقودُ سيّارتَهُ وقتاً طويلاً قبلَ أن يتوجّهَ إلى الصّيدليّة.

فيما كان يركُنُ سيّارتَهُ ليسَ بعيداً عن مخزنِ الأدويةِ، كان تقريباً قد أخذ قرارَهُ أن يصطحبَ زهرا إلى غرفةِ عمليّاتِ طبيبٍ نسائيّ دونَ إحداثِ الكثيرِ من البلبلة. «يجبُ أن ألعبَ بكلِّ حذر» قالَ لنفسِهِ وهو يتنهّدُ بعمقٍ.

أقفلَ بابَ سيّارتِهِ واتّجهَ نحوَ مدخلِ الصّيدلية. اتّصلَ بزهرا بعدَ الظُّهر. أجابتْهُ والدتُها بأنّها نائمةٌ فوعدَ بالمرورِ في آخرِ النّهار.

خرجا معاً ذلك المساء. في مطعم اللآنش في حي «حيدرة» أكلتْ زهرا القليلَ من السّلطة ولم تلمس البتة البيتزا الأميركيّة. حاولَ رياض جهدَهُ أن يبقى لطيفًا. استعملَ واستغلَّ كلَّ الحججِ الموضوعيّةِ والذّاتيّةِ كي يُقنعَ زهرا بمرافقتِهِ إلى تونسَ. وعدها بإتمامِ زواجهما في غضونِ الخمسةِ أشهر المقبلة:

ـ «من الآن حتّى شهر يونيو/حزيران، سأضعُ مشروعي مع مهدي قصّاص على السّكة. مع بيعِ الأدويةِ الّتي سيستوردُها سيتدفّقُ المالُ بغزارة، وفي شهر يوليو/تمّوز، إنْ شاءَ اللهُ سنحتفلُ بفوزنا بإعلانِ زواجِنا والجميعُ سيكونونَ مسرورين. سيكونُ لديكِ متسعٌ منَ الوقتِ للتّفكيرِ في الأولاد، ستةُ أولادٍ إذا أردتِ. لكن الآن، الأمرُ شبهُ مستحيلٍ. لا تنسي أنّ أهلَنا ليسوا مستعدّينَ بعد. ألا تقدِّرينَ المأساةَ إذا وضعناهم أمامَ الأمرِ الواقعِ على هذا النحو؟ لا يا زهرا يا حبيبتي، لنقمْ بالأمرِ بشكل طبيعي جدّاً. قال ذلك بلهجةٍ حاسمة. ارتسمَ على وجهِ زهرا المذهولةِ تعبيرٌ قاس وكئيب:

ـ «نعم، ولكن هل فكّرتَ أنت فيّ مع كلِّ هذه المسألة؟ حتّى الآن، كنتُ أعتقدُ أنّني إذا وقعتُ يوماً فستكونَ أنتَ من سيرفعُني». قالتْ له زهرا بصوتٍ يختنق.

ـ «ولكن يا صغيرتي أنتِ تقولين كلاماً غيرَ معقول. إنّها مسألةُ وقتٍ فقط. لنخرجْ من هذا الكابوسِ ثم سيسيرُ كلُّ شيءٍ على ما يرام». قال رياض بإلحاح.

ـ «وأنا الّتي كنتُ أبحثُ عن ضمانٍ مؤكّدٍ أنّهُ عندما ألقي بنفسي في الهاويةِ سأجدُ من يتلقّاني في الأسفل! قد فاتَ الأوانُ على ما يبدو لي».

ولم تستطعْ أن تمنعَ دمعةً انهمرتْ من عينها لا تدري من أينَ نَبَعتْ:

ـ «أعدني إلى منزلي، رياض، لو سمحت. أنا مرهقة. الحُقنةُ قتلتني ولم تنفع». قالتْ له متوسّلة.

ـ «كفّي عن البكاء، سنسوّي هذهِ المسألةَ في نهايةِ الأسبوع. أعطني جوازَ سفركِ الآن وأنا أهتمُّ بالباقي.

لم تتحرّكْ زهرا. فيما كان رياض يعرضُ بحماسة خطّتَه المتصلة بالنزهةِ التونسيّة، اكتفتْ زهرا بالنّظرِ إليه نظراتٍ كئيبةٍ وهي تتنهّد. كانتْ تأملُ أن تسمعَهُ يقولُ لها إنّهُ سيتزوّجُها قبلَ نهايةِ الشّهر، قبلَ أن يبدأ حَمْلُها بالظّهورِ وإنّهما سيحتفظانِ بثمرةِ حبِّهما الّذي أصبحَ عاراً مزعجاً.

في صباحِ اليومِ التّالي نحوَ السّاعةِ التّاسعةِ والنِّصفِ، كان رياض يقدّمُ نفسَهُ لحاجبِ مقرِّ المؤسّسةِ الإنكليزية الّتي تعمل فيها زهرا. تبادلتْ زهرا ورياض كلماتٍ لطيفةً أمامَ زميلتَيها المترجمتين قبلَ أن تعطيهِ مغلّفًا يحتوي على جوازِ سفرِها. رافقتْهُ حتّى بابِ الخروجِ من المكاتب. وعدَها بأن يمرّ لاصطحابها آخرَ النّهار.

عادةً عندما كان يعدُها بالمرورِ كان يتأخّرُ دائماً على الأقلِّ عشر دقائق. لكنّه هذه المرّة، ركنَ سيّارتَهُ على بُعدِ خمسةِ أمتارٍ من مدخلِ المؤسّسةِ قبلَ عشر دقائق من خروجِ الموظّفين. أطفأ محرّكَ السيّارة، أنزلَ زجاجَ نافذةِ السّائقِ ووضعَ في آلةِ التّسجيلِ شريطَ موسيقى الروك. بدتْ لهُ العشر دقائق من الانتظارِ كأنّها دهر. لكنَّ اللّحنَ الجارفَ والأنغامَ الموسيقيّةَ المكسّرةَ الّتي تصدحُ من آلاتٍ موسيقيّةٍ معدنيّةٍ زادتْ من إثارتِهِ ومن إحساسِهِ وكأنّهُ شخصٌ على وشكِ أن يصيبَ سهمُهُ. بعدَ أقلِّ من دقيقةٍ على خروج أوّلِ موظَّفٍ كانتْ زهرا تحيي إحدى زميلاتها عندَ بابِ الخروجِ قبلَ أن تنضمّ إلى خطيبها الجالسِ خلفَ مقودِ سيّارتِهِ الـ «بي أم دوبل فيه».

ـ «كيف الحال؟» سألها رياض..

رسمتْ زهرا تكشيرةً على وجهِها عوضاً عن الإجابة.

ـ «أوه حسناً هيّا، لا تهتمْ!»

استلّ رياض من علبةِ القفازاتِ في سيّارتِهِ مظروفاً يحتوي على تذكرتَي سفرٍ بالطّائرةِ ومرّرها أمامَ وجهِ زهرا:

ـ «حجزت، يومَ الخميسِ صباحاً. سنعودُ السّبت قبلَ الظهر. هكذا لن تتغيّبي سوى قبل ظهر يوم السّبت. خذي، هذا تقريرٌ طبيٌّ يسوّغ غيابك. لن يكون الأمرُ سوى ذكرى سيّئة، تعرفين؟»

ثم داعبَ ذقنَها بطرفِ مظروف التذكرتين. تراجعتْ منزعجة.

ـ «لستُ أدري لماذا نضيّعُ كلَّ هذا الوقتِ بدلَ أن نفعلَ كما يفعلُ الجميع. أنتَ تعملُ وأنا لديّ عملٌ ثابتٌ. بإمكاننا الإقامةُ عندَ أهلك في انتظارِ أن يكونَ لنا بيتنا الخاص» أجابته زهرا.

ـ «سنتزوجُ قريباً جدّاً. أعطني الوقتَ لكي أحلّ مسألةً كبيرةً ومهمّةً جدّاً بالنّسبة إلى مستقبلنا». قال لها متوسّلاً.

ـ «باستثناء أنني حاليًا أنا الغارقةُ حتى رأسي في القذارةِ وحدي».

صكّ رياض أسنانَهُ محاولاً خنقَ غضبِهِ الّذي يخفيهِ عنها.

ـ «هيّا تعالي! سنقومُ بجولةٍ قبلَ العودةِ إلى المنزل».

أدار مفتاحَ التّماسِ، فاشتغلَ المحرّكُ وانطلقتِ السّيّارة. سلكا اتجاهَ «بن عكنون». لم تتلفظْ زهرا بأيّ كلام. أمامَ حماسة رياض، ارتسمتْ على وجهها علاماتُ الخيبة، لزمتِ الصمتَ الّذي يقولُ الكثيرَ عن حالتها النّفسيّة.

ومع ذلك حاولَ رياض أن يخففَ من وطأةِ الجوِّ المسيطرِ على السّيّارة لكن الأمر انتهى به إلى الاعترافِ بواقعِ الحال. انتابهُ إعصارٌ من القلقِ والخوفِ، تذكّرَ أوّلَ حادثٍ عارضَ فيه والدَهُ يومَ اكتشفَ هذا الأخيرُ أنّ رياض عضوٌ في الجبهة الاسلاميّة للإنقاذِ حتّى أنّهُ كان يهتمُّ بتمويلِ فرعِ «الشّراقة». كان صديقٌ قديمٌ له يعملُ في دائرة التحرّي والأمن قد نبّهَهُ إلى من يخالِطُهم ابنُه.

الفصل الثاني عشر

الخِداع

في تلكَ الفترةِ، كانتِ الرّياحُ تجري بما تشتهيهِ الجبهةُ الاسلاميّةُ للإنقاذِ وتمتدُّ متوسِّعةً في كلِّ الأوساطِ، بما فيها الأوساطُ الرّاقية.

كان المسؤولونَ الكبارُ يرتدونَ الغندورةَ[12] أيّامَ الجمعةِ لأداءِ الصّلاةِ وللاِستماعِ إلى الخطبةِ الأسبوعيّةِ ويَظهرونَ أيضاً علانيةً في مكاتبِهم حاملينَ سجاجيد الصّلاةِ المستوردةَ من السّعودية.

حتّى إنّ رئيسَ حكومةٍ سابقٍ كانَ يقومُ بذلكَ مع فريقهِ أثناءَ التنقلاّت الرّسميّةِ بالطّائرةِ: من أجلِ إظهارِ إيمانِهِ للصحافيين المتابعين تنقُّلاتِهِ، كان أعضاءٌ من السِّللكِ يُسَرِّبونَ الخبرَ للإعلاميينَ وكأنّهُ سرٌّ. وما أسعد الصحافي أو المصوِّر الّذي يُخَلِّدُ بكاميرتهِ مشهدَ رئيسَ الوزراء بوفرططو المنهمك بالقيام بواجبه الديني على متن الطّائرة.

عام 1989، كان الكثيرونَ يعتقدونَ اعتقادًا راسخًا بتولّي الجبهةِ الإسلاميّةِ للإنقاذِ مقاليدَ السُّلطةِ. كانتْ علاقةُ رياض خُرطال بوالدِهِ تمتازُ بالاحترامِ الممزوجِ بتناقضاتٍ لا تُحصى ومشوّشةً تمتدُّ من الخوفِ إلى الرّغبةِ القويّةِ بإثباتِ تفوّقهِ على والده. فكان يستغلُّ أيّةَ فرصةٍ تسنحُ له لتأكيدِ شخصيّته أكثرَ فأكثرَ. أمّا خُرطال الأبُ فلم يكنْ يحبّذُ اللّعبةَ الغامضةَ لبعضِ دوائرِ السّلطةِ ويعتبر أنّ تقدُّمَ الاسلاميّينَ خطر حقيقي على المجتمع. فرؤيةُ ابنهِ الوحيدِ ينخرطُ في قضيّةٍ يرفُضُها تُعتبرُ أكبرَ إساءةٍ إليه في نضالهِ.

كان رياض، على غرارِ شبابِ جيلِهِ، يعتبر أنّ المجاهدينَ القدامى والجماعةَ الّتي تدورُ في فلكِهم قد هيمنوا هيمنةً حقيقيّةً على البلاد.

كان يرى في تفوّقِ الجبهةِ الاسلاميّةِ للإنقاذِ طريقاً لتغييرٍ ممكنٍ لنظامٍ أصبحَ مَهيناً من خلالِ ممارساتِ صغارِ النّفوسِ الّذين يتولَّونَ زمامَ السّلطة.

ـ «أنتَ لا تدركُ ماذا تفعلُ. هذهِ مجازفاتٌ تسعى إلى تحطيمِ كلِّ شيءٍ. الظروفُ مناسبةٌ لها اليومَ، لكنّ هذا ليس سوى وهمٍ. سينقلبونَ على أنفسِهم عاجلاً أم آجِلاً. لا تكنْ كهذه القذاراتِ الّتي تُسمّمُ حياةَ النّاسِ بفرضِ المحرّماتِ

في كلِّ مجالٍ خاصّةً أنهم يُكفِّرونَ من يريدون. ثمّ ما الّذي أصابكَ، يا ربُّ، كي تتبعَ هؤلاءِ الحمقى؟ أهكذا ربَّـيْتُكَ؟ لقد قضيتُ حياتي وأنا أكِدُّ كي أحققَ ما أنا عليه الآن. أنت لن ترفسَ كلَّ هذا بالهواء، لا؟ «صرخَ السيّدُ خُرطال بعصبيّة».

كان يقفُ وسطَ المطبخِ فيما كلُّ أفرادِ عائلتِهِ مجتمعون حولَ مائدةِ الغداء.

تمالكَ رياض نفسَهُ وقالَ بجفاف:

ـ «أنتَ من يرى الأمورَ على هذا النَحوِ، فيما الواقعُ غيرَ ذلك».

ـ «ماذا؟ أأصبحتَ تَجْرؤ الآن؟» انفجرَ الوالدُ غاضباً وهو يرفعُ نحوَ ابنِهِ إصبعَ الاتّهام.

ـ «واش؟ ألا يحقُّ للمرءِ أن يعبّرَ عن آرائهِ الخاصّةِ أمامكَ؟ لقد انتهى الوقتُ الّذي كنتَ فيهِ أنتَ وشُركاؤكَ من يسنُّ القانون» أجابَ رياض غاضباً.

تقدّمَ والدُهُ نحوَهُ متهدِّدًا. نهضَ رياض بدوره، دارَ حولَ مقعدِ والدتِهِ وخرجَ مُسرِعاً.

ظلَّ يتجنَّبُ والدَهُ طوالَ بقيّةِ النّهار. في مساءِ اليومِ التّالي، قبلَ إقفالِ الصّيدليّةِ، استقبلَ عبّاس الملغاش صديقَ والدِهِ الّذي كانتْ تربطُهُ بهِ علاقةُ صحبةٍ منذُ عام 1956.

في شهر أكتوبر/تشرين الأول الماضي كان الرّجلانِ قد التقيا للمرّةِ الأولى في متجرِ سي «الميشيري» التلمسانيّ الّذي يُعتبر متجرُهُ كعلبةِ بريدٍ ومكانِ تجمُّعٍ لكلِّ شبكةِ الارتباط في الولاية الخامسة[13] الّتي يديرها عبّاس.

جاءَ هذا الأخيرُ محاولاً إقناعَ رياض بالانسحابِ من مجموعةِ الجبهةِ الإسلاميّةِ للإنقاذِ، وقد استغلّ حياءَ الشّابِّ فأخذَ يؤنِّبُهُ مطوّلاً بسببِ موقفِهِ غير المناسب تجاهَ والدِهِ: ـ «إنّ والدَكَ يا بُنَيّ، رجلٌ عظيم. فقبلَ بلوغِهِ الثّامنةَ عشرةَ من عمرِهِ، كان قد أثبتَ بَسالةً كبيرةً. كان جيّداً في دراستِهِ، لكنّهُ اختارَ القضيّة الوطنيّة. ألقابُ الشّرفِ انتزعَها بفضلِ مهارتِهِ الحقيقيّةِ وليس بالاختيارِ أو بدعم من أصدقائهِ كهؤلاءِ الّذين يعتقدونَ أنّهم يسيطرونِ على عالمِهم اليوم. إنّهُ يعتمدُ كثيراً عليكَ كي تنجحَ في تحقيقِ ما لم يتمكّنْ هو من تحقيقهِ، برغم حياتِهِ الحافلة. أريدُ أنْ أقصَّ عليك أوّلَ أعماله البطولية».

كان رياض يصغي باهتمامٍ إلى كلامِ الضّابطِ القديمِ في وزارةِ التسليحِ والعلاقاتِ العامّة. وهو الأبُ الحقيقيُّ لدائرةِ التّحقيقاتِ والأمن.

2. غلالة من صوف بلا كمّين تُلبسُ تحت البرنس في المغرب العربي.

3. في مؤتمر وادي الصومام قسم قادة الثورة التحريرية حينذاك البلاد إلى سبع ولايات. والولاية الخامسة هي منطقة الغرب الجزائري.

الفصل الثالث عشر

الأسدُ والضّبع

يوم الجمعةِ 13 أكتوبر/تشرين الأول عام 1955 كان يومَ السُّوقِ الأسبوعيّ في قريةِ «سان ـ شارلز» الواقعةِ في شرقِ مدينةِ سكيكدة. كان لِلقرى الصّغيرةِ في كلِّ منطقةٍ يومُ سوقٍ خاصّ بها. فهذهِ المنطقةُ كانتْ قد عاشتْ أخيراً أحداثاً مأسويّة. بعد هجماتِ المجاهدين بقيادةِ الشّهيدِ «زيغوت يوسف» على مزارعِ المستوطنين والمنشآتِ العسكريّةِ الاستعماريّة في 20 أغسطس/آب عام 1955، وجاء ردُّ القوّاتِ الاستعماريّةِ كاسحاً لا سابقَ له.

كان النّقيبُ أُساريس[14] والشركاءُ يفكّرون في السّيطرةِ على هذهِ المنطقةِ الثّائرةِ التّابعةِ للولايةِ الثّانيةِ التّاريخيّةِ ومحوِ كلِّ أثرٍ للمقاومةِ فيها. كانتْ تلكَ إذاً العمليّةَ الأولى بعدَ الصّيفِ الدّامي عام 1955. فقد هاجمَ شابٌ من مواليدِ «الحرّوش»، كما تقولُ أسطورةُ «سي العربي» الملحميّةُ، أي والدك أنت، بسلاحٍ يدوي الجنديّينِ الفارسين اللذين يحرسانِ مدخلَ السّوق. جرى كلُّ شيءٍ بسرعةٍ كبيرةٍ حتى أن الجنديّينِ لم يُدركا ما حصل لهما.

انقضّ الفدائيُّ الشّابُّ كالإعصارِ من أمامِ الجنديِّ الأوّلِ، ممسكاً بيد لجامَ حصانِهِ، ومطلقاً باليدِ الأخرى المسلّحة، رصاصةً عن قربٍ استقرّتْ في قلبه. فشبّ الحصانُ ورمى فارسَهُ أرضاً.

في هذا الوقتِ، صوّبَ الفدائيّ على رأسِ الجنديِّ الثّاني المعتمرِ قبعةً لونها بيج، وأطلقَ رصاصتينِ متتاليتينِ. إحداهما أصابتْ رأسَ الجنديّ وقطعتْ نصفَ أذنِهِ. ترنّح الجنديُّ وسقطَ إثرَ ارتباكِ الحصان، مخبّئاً رأسَهُ بين يديهِ. استولى الفدائيّ على بندقيّةِ الجنديِّ الملقى أرضاً وقفزَ واعتلى ظهرَ الحصان قفزاً. وبضغطٍ من ساقيهِ على خاصرتي الدّابةِ أتبعَهُ بضرباتٍ عنيفةٍ ومتواصلةٍ بكعبيه، انطلقَ بالحصانِ إلى وسطِ النّاسِ المحتشدينَ الّذين أخذوا يركضونَ في كلِّ الاتّجاهات. وهكذا تلاشى في المعمعةِ، مستغِلاً البلبلةَ العارمةَ الّتي تلتْ إطلاقَ النّار. على بُعدِ بضعةِ أمتارٍ تركَ مطيّتَهُ في القطاعِ المخصّصِ للخيول. في ذلكَ المكانِ كان يتمُّ شراءُ وبيعُ الخيولِ والبغالِ والحميرِ وبقيّةُ

البهائم بالجملة. كان تُجّارُ الخيلِ يصطحبونَ بغالَهم إلى هناك لخصائها. كانت العفونةُ ورائحةُ الرّوثِ والبولِ المُزنِخِ واللّحمِ المحترقِ تجعلُ كلّ من لا علاقةَ له بهذه الأنشطةِ يُوَلّي هارباً.

اختارَ الفدائيُّ بالتّحديدِ هذا المكانَ كي يتخلّصَ من قشّابيّتة[15] ومطيّتهِ. وضعَ البندقيّةَ أمامَ فلاّحٍ قربَ موقدِ الجمرِ. تبادلَ الرجلانِ نظرةَ مكرٍ ثم ما لبثت البندقيّةُ أن انتقلتْ إلى يدٍ أخرى واختفتْ كأنّك أمام مشهدِ ألعابِ الخفّة. عادَ الشّابُّ أدراجَهُ وذابَ بينَ الحشودِ. كان هناك قرويٌّ اسمُهُ عبّاس الفركيزو توفّيَ عقب هذه الحادثةِ بأشهر، بعد أن عاشَ حياةً بطوليّةً. كان قد تابعَ مشهدَ الهجومِ من أوّلهِ إلى آخرهِ. أثناءَ هربِه الجنونيّ، سلك طريقًا مختصرًا نحو المكانِ حيثُ يتوقّفُ الجرّارُ القديم الّذي هو ملكٌ لرب عملهِ.

لم يخطرْ ببال هذا الرّجلِ، رحِمَهُ اللهُ، أن حياته وحياةَ عائلته ستنقلبان رأساً على عقب عندما سلكَ هذا الطّريقَ في هذا الصّباحِ. لقد أصابَهُ الرُّعبُ شأنَهُ شأنَ جميعِ الفلاحينَ والتّجارِ والمتسكّعينَ الّذين أخذوا يركضونَ في كلِّ الاتّجاهات دونَ أن يكونَ لديهم أيّةُ فكرةٍ عمّا حدث. ضجيجُ وتزاحُمُ الأشخاصِ القريبينَ من مدخلِ السّوقِ زادَ من الازدحام. وجدَ عبّاس الفركيزو نفسَه وجهاً لوجهٍ أمام الفدائيِّ الشّابِّ الّذي رماهُ بنظرةٍ خارقة. شعر عبّاس بقدميه تثقلان. وأحسّ بارتخاءٍ تامّ في كلِّ جسدهِ. كان الشّابُّ هادئاً تماماً. لاحظَ عبّاس الفركيزو انتفاخاً ظاهراً تحت القميصِ المُغبرّ عند مستوى حزامِ الشّابّ الّذي يبدو عاريًا بدونِ قشّابيّتة[16]، لكنّهُ لم يكن يشعرُ بالبرد.

دونَ أن يفكّرَ نزعَ عبّاس الفركيزو سترتَهُ الصّينيةَ الزّرقاءَ وسلّمها إليه مشيراً نحو حزامِ الشّابّ. ابتسمَ الشّابُّ وارتدى السُّترةَ الّتي قُدِّمتْ إليه.

ـ «انتظرني عند المخرج، من هذه الجهة. سأُقِلّكَ معي بالجرّار» قالَ عبّاس الفركيزو بصوتٍ متردِّدٍ.

اكتفى الشّابُّ بأن هزَّ رأسهُ واتّجهَ نحو المخرج. انطلقَ عبّاس الفركيزو بخطى مسرعةٍ نحو الأرضِ البورِ حيثُ كان قد ركنَ الجرّارَ عابراً تلكَ النّاحيةَ من السّوقِ. من جهةٍ كان هناك الخيولُ وتجّارُ الخيولِ والرّوائحُ وعفنُ البولِ

والرّوثِ، ومن جهةٍ أخرى أكوامُ الملحِ بألوانها الزّاهيةِ كقِطَعِ الجليدِ بجوانبَ تبدو زجاجيّة. ألوانٌ حمر وبنّيةٌ وخضر تتلألأُ تحت أشعّةِ الشّمسِ. كانتْ أكوامُ الملحِ مكدّسةً حصصاً. الفلاّحون الّذين يسكنونَ أطرافَ منطقةِ المعادن[17] حيثُ تقعُ مناجمُ الملحِ يحطّمونَ تلك القطعَ الكبيرةَ من الملحِ الّذي ينقلونَهُ على ظهورِ البغالِ كي يعرضوها للبيعِ يومَ السّوقِ. صخورُ الملحِ هذهِ تُغسلُ وتكسّرُ ثم تُطحنُ بِمطاحنَ حجريةٍ تقليديّةٍ. يجمعُ الملحُ المسحوقُ ويوضعُ في براميلَ كبيرةٍ من الفخّار. وهكذا يُشكّلُ مؤونة العامِ من ملح الطّعامِ، وهو يُستعملُ أيضاً لتهيئة جلدِ الكبشِ الّذي يُذبحُ يوم العيدِ أو الّذي يشترونه من الباعة المتجوّلين يوم السّوقِ. هذه الجلودُ المُجَفّفةُ تستعملُ فُرشاً للنّومِ في مساكنِ الأهالي المتواضعةِ.

نجحَ عبّاس الفركيزو في تشغيلِ محرّك الجرّار القديمِ بدون صعوبة. انتظرَ لحظةً قبلَ أن يقودَهُ بسرعةٍ متدنيّة. عندَ مرورهِ أمامَ مدخلِ السّوقِ، رأى سيّدهُ منهمكاً مع مجموعةٍ من النّاسَ البارزينَ ومن الأوروبيّينَ حولَ الجنديينِ المطروحينِ أرضاً.

كان هناك جنودٌ قد أتوا للنّجدةِ وقد طوّقوا المكان. اقتربَ سيّدُهُ منه وأمرهُ بأن يسبُقَهُ. توقّفَ عبّاسُ على بُعدِ خمسة أمتارٍ بعيداً من منعطفِ الجانبِ الأيمنِ للسّوقِ المؤدّي إلى الطّريقِ الرّئيسيّ لقريةِ سانـشارلز. تسلّقَ الشّابُّ الجرّارَ وجلسَ على أحدِ الدّواليبِ متعلّقًا بأطرافِ رفرافِ السّيّارةِ الواقي من الوحلِ. انطلقَ الجرّارُ محدثاً ضجيجاً صاخباً تاركاً خلفهُ سحابةً من الدّخانِ الأسودَ وقريةً تنهشُها شتى أنواعِ المخاوف.

كان جنودُ الفيلقِ الثّامنَ عشرَ قد بدأوا بالتّمركزِ في كلِّ الأماكن الإستراتيجية من القرية. التقى عباس والشّابُّ قوافل الجيشِ المؤلفة من دباباتٍ صغيرة وملاّلات ونصفِ ملاّلات وسيّاراتٍ مدرّعةٍ وسياراتِ جيبٍ تتّجهُ نحو سان ـ شارلز. كانوا عائدينَ من مهمّةٍ إلى قاعدتهم. عند تقاطُعِ الشّارعِ الوطنيّ 44 المؤدّي إلى«بون»[18] مع الشّارعِ الرقم 34 الّذي يتّجهُ نحوَ «فيليبفيل»[19]، على

بُعدِ كيلومترينِ من مدخل «الحرّوش»، توقّفَ الجرّارُ. نزل الشّابُّ الفدائيُّ قبل أن يمدّ يدَ عطفٍ حارّةٍ نحو عبّاس الفركيزو.

ـ «أنا أعرفُ أين تسكنُ. سنلتقي في «جيماب»[20] قريباً، إن شاء اللهُ. شكراً مرّةً ثانيةً على كلِّ ما فعلتَه».

سارَ الشّابُّ مسرعًا نحو ضِفافِ «واد الصفصاف» باتّجاهِ بستانٍ ليس بعيداً عن الطّريقِ حيث اختفى في الطّبيعةِ وسط الأدغال.

في البعيدِ، كانتْ جبالُ «حبابا» و«التوميات» و«واد زيناتي» الزرق تغرقُ في نورٍ ضبابيّ، يمتدُّ على الوادي الواسعِ. في بعضِ الأماكنِ كانت الجبالُ تبدو وكأنّها تلامسُ السّماءَ حيث تعطي بعضُ الغيومِ ذات الجوانب الزجاجية الأفقَ منظراً خيالياً.

بعد أسابيعَ، حدّثني مراسلي في قيادة الولاية عن هذا الشّابِّ الطّالب الثّانوي القادمِ من الشّرقِ.

التقيته عندَ «المشيري الخيّاط»، استبقيتُهُ في ضيافتي بعضَ الوقتِ وقد أخبرتُ زوجتي أنّهُ قريبٌ لي قبلَ أن أرسلَهُ إلى المغرب. التقينا في ما بعدُ في وزارةِ التسليحِ والعلاقاتِ العامّةِ، قبلَ الانضمامِ إلى القاعدة الشّرقيّة.

عند الاستقلالِ، جاء لرؤيتي. كنتُ أديرُ الصّيدليّةَ المركزيّةَ الجزائريّةَ في ذلك الوقت. كان قد انتسب إلى كلّيةِ الطّبّ في الجزائر العاصمة ليدرسَ الصّيدلةَ ولم يكنْ حائزًا منحة دراسيّة. عندها أظهرتُ له بطاقةَ راتبي كمديرٍ عامٍ وقلتُ له:«سأعطيكَ الرّاتب نفسه الّذي أتقاضاه. ستشغلُ المكتبَ المجاورَ لمكتبي. ستكون سكرتيرتي تحتَ تصرُّفِكَ فيما يتعلّق بأعمالِ الطِّباعةِ حتّى نهايةِ دراستك. إذا احتجتَ إلى سيّارةٍ أو إلى سائقٍ، استعنْ بسائقي. اهتم أنتَ فقط بدراستك وحقّقْ حلمَك».

أصدرت التّعليماتِ المتصلة بهذا الشأن في إطار قرار إداري. اشتغلَ والدُك باجتهادٍ خلالَ أربعةِ أعوامٍ. لم يكن الأمينُ العامّ للوزارةِ على علاقةٍ جيّدةٍ مع والدك. علاقتُهما كانت مشحونةً بالتّوتّرِ دومًا. فظلّ عاماً على الأقلِّ في منصبِ نائبِ المديرِ العامِّ للصيدليةِ المركزيّةِ الجزائرية. بعدَ الخيباتِ الّتي مُنيَ بها إثرَ

فشلِ محاولةِ الانقلاب الّتي قادها طاهر زبيري، وجدَ نفسَهُ مجدّداً بدونِ عملٍ وبدونِ أيِّ موردٍ.

لمْ يكن بوسعي إدخالُهُ مجدّداً إلى الصّيدليّةِ المركزيّةِ الجزائريّةِ بسببِ البُغضِ الّذي يُظهرهُ له بختي نمّوس الأمينُ العامُّ للوزارةِ، والّذي كان قد أصبحَ وزيراً.

اقترحتُ عليهِ أنْ أسلّم له إدارةَ إحدى صيدليّاتِ الصّيدليّةِ المركزيّةِ الجزائريّة. كان هذا كلَّ ما بقي بإمكاني أن أفعلَهُ. جهّزتُها له وتصرّفتُ مع الوزيرِ كي أؤمّنَ له قرضاً للتّجهيزِ بالأدويةِ واللوازمِ لمدّةِ عام.

انتهزَ الفرصةَ وواجه التّحدّي. البقيةُ، لا بدَّ أنّهُ رواها لكَ بنفسهِ. هذا يعني، يا بُنَيَّ، أنّهُ لا يحِقُّ لكَ الإساءةُ إلى رجلٍ كهذا.

إذا كان سي العربي يبدو قاسيًا معك، فهذا لأنّهُ لا يريدُ لك مسيرته نفسها. يريدكَ أن تنجحَ حيث لم يتمكّنْ هو من الوصول. يريدُ منكَ الذّهابَ إلى أبعدِ مدى ممكن.

4. الذي أصبح في ما بعد الجنران أوساريس وهو أحد السفّاحين الذين ارتكبوا جرائم نكراء في حق الثوّار الجزائريين. كان يلقب خلال الثورة «بالنقيب أو». وقد اعترف هو بنفسه في كتاب صدر له عام 2003 أنه قتل الشهيدين القائد العربي بن مهيدي والمحامي علي بومنجل.

5. عباءة للرجال مصنوعة من الصوف أو من وبر الجمل.

6. قشابيّة: عباءة مغربية من صوف أو وبَر.

7. معدن الملح: تطلق التسمية على مكان فيه معادن الملح الصخري.

8. مدينة عنابة حالياً.

9. مدينة سكيكدة حالياً.

0. مدينة عزابة حالياً.

الفصل الرابع عشر

الحُلم والجُرح

كانَ رياضُ قد وعدَ عباس المالغاش بأنْ يفعلَ كلَّ شيءٍ حتّى يُسوّيَ الأمورَ مع والدهِ... شعر بقلبِهِ ينقبضُ أمامَ فكرةِ المشاجرةِ معهُ مجدّداً بإثارة قصّةِ هذا الزّواجِ القسريّ. تأمّلَ زهرا مطوّلاً ثمّ بدأ قرار مرعبٌ يدورُ في خلدِهِ.

ـ «لا تقلقي يا حلوتي، فورَ عودتِنا، سأبحثُ الأمرَ مع الأهلِ ونباشرُ إجراءاتِ الزّواج». دسّ راحةَ يدِهِ على خدِّ الفتاة. حنتْ رأسها قليلاً لتحبِسَ يدَ صديقها بين عنقِها وكتفِها. شعرتْ برقّةٍ تعتري كلّ كيانِها وتجعلُ جميع أطرافِها ترتعشُ.

صباحَ يومِ الخميس، في السّاعةِ الثّامنةِ، نزلَ رياض من سيّارةِ التّاكسي قربَ محطّةِ باصات المطار. انتظرَ نصفَ ساعةٍ تقريباً كانت تتأكله خلالها الهواجسُ والقلق. جعلهُ الخوفُ من أن تتراجعَ زهرا وتغيّرَ رأيَها يتذكّرُ مجدّداً تنبيهات سي عباس المالغاش. تخيّلَ الكارثةَ مع ردّةِ فعلِ والدهِ والأضرارَ الجانبيّة الّتي يمكن أن يسببها إعلان زواج متسرِّع.

عندما رأى زهرا تسير تحتَ قناطرِ فندقِ السّفير، أشرقَ وجههُ. أسرعَ للقائها، قبّل خدّيها وتظاهرَ بالقلقِ وبالإحساس معها بما يغلي في رأسها وبالألمِ الّذي يقطّعُ أسفلَ بطنها نتيجةَ مخاوفِها من هذا السّفرِ المفروضِ عليها. استقلاّ الباصَ إلى المطار. وصلا نحوَ السّاعةِ الثّانيةِ ما بعدَ الظّهرِ إلى مطارِ تونسَ، من هناكَ أقلّتْهما سيّارةُ أجرةٍ إلى فندقِ ثلاثِ نجومٍ يطلُّ على «شارعِ حبيب بو رقيبة». كانتْ عيادةُ الدكتور سعد سالم على بعدِ بضعةِ أمتارٍ من هناك. خرجا بعدِ الظُّهر يتمشّيانِ في الشّارعِ العريضِ ويتعرّفانِ على المدينة. في أحدِ الشوارعِ المتقاطعة مع شارعِ بورقيبة، وجدّاً مطعماً صغيراً يُقدِّمُ الكوسكوس الشّهي ووجباتٍ تونسيّة. في السّاعة الثّامنةِ والنّصفِ، عادا إلى غرفةِ الفندقِ الواقعةِ في الطبقة الخامسة والمُطلّةِ على منظرِ السّاحةِ الرّائعِ، والّتي يصعدون إليها بمصعدٍ كهربائيّ يعودُ إلى ثلاثينياتِ القرنِ العشرين.

أمضيا الليلةَ متحاضنين، لكنّ كلَّ واحدٍ منهما كان يفكّرُ في همومهِ منعزلاً عن الآخر. فيما كانتْ زهرا تفكّرُ في ثُقْبِ الغدِ الأسودِ مع العمليّة الّتي ستخضع

لها، كانت مقتنعةً تماماً بأنّ هذهِ التّضحيةَ يمكنُ أن تدفَعَ رجُلَها لتحقيقِ أمنيتها الأغلى، أمنيتها بالزّواجِ منه، كان رياض بدورِهِ يفكّرُ في نتيجةِ وتداعيات العمليّةِ الّتي يراها خشبةَ خلاصٍ من ابتزازٍ محتملٍ وكارثةٍ لا حدّ لها.

في السّاعةِ الثّامنة، دخلَ الثنائيّ العيادة. انتظرا حوالَى السّاعةَ قبلَ أن يستقبلهما الطّبيب. فيما كان هذا الأخيرُ يجري عملية الكشطِ لزهرا، كان رياض يعُدُّ البلاطَ الّذي يغطي أرضَ صالةِ الانتظارِ والممرِّ الطَّويلِ كي يُهَدّى قلقَهُ. عندما رأى أخيراً زهرا تخرجُ مستندةً على ذراعِ الطَّبيبِ، أشرقَ وجههُ. لحِقَ بالطّبيب فوراً إلى غرفته، سدّدَ الحسابَ وخرجَ حاملاً وصفةَ الأدويةِ بيدهِ.

كانتْ زهرا عاجزةً عن إخفاءِ دموعِها وهي تتّجهُ بخطى بطيئةٍ نحوَ بابِ الخروجِ. حاولَ رياضُ أن يواسيها بكلماتٍ لطيفةٍ. ما إن عبرا عتبةَ غرفةِ الفندقِ حتّى أحسّتْ زهرا بدوارٍ وسقطتْ على حافّةِ السّرير. رفعَ رياض ساقيها وساعدها على الاستلقاء. غطّاها بشرشفٍ واعتذرَ قبلَ أنْ يخرجَ لشراءِ الأدويةِ الّتي وصفَها لها الطّبيبُ.

لدى عودتِه، كانت زهرا في حالةٍ ثانيةٍ، كان الألمُ والأرقُ قد أخذا منها كلّ مأخذٍ. ناولها حبّتَي مضادٍّ للالتهابِ وحبةَ مُضادٍ حيويّ مع نصفِ كوبٍ من الماء وهو يساعدُها على رفعِ رأسِها قليلاً.

ـ «بعدَ ساعةٍ، سنستقلُّ سيّارةَ أجرةٍ إلى المطار. ستقلعُ الطّائرةُ في السّاعةِ الواحدة». همس لها رياض.

اكتفتْ بأن هزّتْ رأسَها ورمقتهُ بنظرةٍ مفعمة بالأسى.

أدار رياض رأسَه وقال:

ـ «هيّا، تمالكي نفسكِ، كلُّ شيءٍ على ما يرام، ستعودُ الأمورُ إلى طبيعتِها الآن».

في السّاعةِ الحادية عشرة والربعِ، استقلاّ سيارةَ أجرةٍ باتّجاهِ المطارِ. في السيّارة، حصلتْ حركةٌ من رياض جعلتِ الفتاةَ تغرقُ في حيرةٍ كبيرةٍ. عندما حاولتْ لمسَ ظهرِ يدِ رفيقها بطرفِ أصابعها، منعَها رياض بعنفٍ. كانت زهرا بحركتِها هذهِ تبحثُ عن لمسةٍ ممكنةٍ لتقطع طبقةَ الجليدِ الّذي طغى على علاقتِهما في الأيّامِ الأخيرةِ. لحظاتُ الحبِّ الّتي عاشاها في اللّيلةِ الماضيةِ

كانت مطبوعةً بالنِّفاقِ وبحساباتِ الرِّياءِ. ظلّ رياض كقطعةِ رخامٍ أمامَ مُراوداتِ خطيبتهِ. عندَ وصولِهما إلى المطار، طلبَ من سائقِ السّيّارة أن ينتظرَهُ بضعَ دقائقَ. جذبَ زهرا نحو مدخلِ المطار، ناولَها تذكرةَ السّفرِ ومبلغَ مئتيّ دينارٍ وقالَ بنبرةٍ حاسمة:

ـ «مكتبُ الاستقبالِ أمامَك مباشرةً. استقلّي سيارةَ أجرةٍ فورَ وصولِكِ إلى الجزائر. أنا سأبقى هنا، لدي عملٌ أقومُ به. الآن أريدكِ أن تضعي شيئاً في رأسكِ: أنا وأنتِ، انتهى الأمرُ. لا تحاولي رؤيتي بعدَ اليومِ».

ـ «ولكن، رياض! ما هذا الهذيان؟» قالتْ تستعطِفُهُ.

ـ «بدون لكن. بدون فضيحةٍ، لو سمحتِ! انتهى الأمرُ. انتهى!»

ثم قفزَ على المقعدِ الأماميّ لسيّارةِ الأجرةِ مشيراً إلى السّائق بالانطلاق. بقيتْ زهرا مذعورةً مكانَها بضع دقائق، حائرةً، حتّى أنّها لم تشعرْ بالدّموعِ المحرِقةِ الّتي تَغْمُرُ وجهَها. فجأة، شعرتْ بأنّ قدميْها لم تعودا قادرتينِ على حملِها وانهارتْ.

عندما استيقظتْ، وجدتْ نفسَها على سريرِ غرفةِ التّمريضِ في عيادةِ المطار. أخبرتْها الممرّضةُ أنّها كانتْ فاقدةَ الوعي عندما أحضروها. لم يتبيّن الطبيبُ حالتَها غيرَ الطبيعيّة. أجهشتْ زهرا بالبكاء. أمسكتْ حقيبةَ سفرِها وخرجتْ إلى البهوِ واتّجهتْ نحوَ مكتبِ التّسجيل. هبّتْ إليها موظّفةٌ في الطّيرانِ التونسيّ، أخذتْ بطاقةَ سفرِها وأجلستْها على مقعد.

ـ «سأعود، آنستي» قالت لها مُشْفِقةً على حالها.

عادتِ المُضيفةُ بعد قليل، أمسكتْ ذراعَها ورافقتْها حتّى حدودِ الشّرطةِ والجمارك. عبرتْ زهرا الممرَّ الطّويلَ المؤدّي إلى قاعةِ المسافرين بخطواتٍ بطيئة. لشدّةِ إعيائها، توقّفت مرّاتٍ عدّة ولتستريحَ قليلاً قبلَ أن تستأنفَ سيرَها.

حتّى إنّها لم تلاحظْ نظراتِ الحيرةِ والشّفقةِ في عيونِ المسافرين. في قاعةِ المسافرين، اختارتْ مقعدًا في زاويةٍ منعزلة. كانتْ دموعُها تنهمرُ كالشّلالاتِ، وعيونُها مثبّتةً أرضاً وتميّزُ بصعوبة رسوم بلاطِ الأرض.

«وهذا الجرحُ الغامضُ المتردِّدُ، الّذي لا يريدُ التخلّصَ من الحلمِ والّذي لا يُنهي الحُلُمَ. وهذا الفراغُ الّذي يجتاحُني ويتملّكني، ويجعلُ منّي غيومًا ووشوشاتٍ تسبحُ فوق سطح الجمود، ثمّ تُغرقني في أعماقِ زلزالٍ خفيٍّ يمزجُ الصّبرَ بفقدانِ الحسِّ... لن تتجنّبَ أبداً نظرتَك أنت. إنهم ينتظرونَك عندَ منعطفِ أوّلِ غفوة، وقد يبوح لك هو بجنونه... يا ربُّ ما هذا البردُ الّذي جعلَ من قلوبِ بَني البشرِ موطنًا له؟ وقد سبقَ للكذِبِ أن تَمَلَّكَ عيونهم».

عند عودتها إلى مدينةِ الجزائر، حبستْ نفسَها في البيتِ ثلاثةَ أيّامٍ مستسلمةً لانهيارٍ عصبيّ إثر محاولاتٍ عدّة فاشلةٍ لإعادةِ علاقتِها بخطيبها إلى سابقِ عهدها.

الفصل الخامس عشر

الوسيط المساعد

في الصّالون الّذي تبلغُ مساحتُهُ ثمانينَ مترًا مربّعًا وسَطَ فيلّلا على مرتفعاتِ مدينة الجزائر، جلسَ تِسعةُ رجالٍ على مقاعدَ صغيرةٍ مَكْسُوّةٍ بجلد البقر مرتّبةٍ على شكلِ هلالٍ مقابلَ الواجهةِ الزُّجاجيّةِ للفيلّلا الفخمة المُطلّةِ على حديقة تتجاوزُ مساحتُها الهكتار تسكنُها الخمائلُ والنّباتاتُ العجيبةُ والخضرةُ المتباينةُ مع بياضِ عناقيدِ المنازلِ والدّورِ والمساكنِ المتراصّةِ النّازلةِ على امتدادِ الجانبِ الشّمالي من التّلّة، فتحاذي في انحدارِها المياهَ الزّرقاءَ الفيروزيّةَ لحوضِ العاصمة.

يزخرُ الصّالون بالتُّحفِ الفنّيةِ من مختلفِ الأنواعِ والعصور. الفيلّلا مبنيّةٌ على مساحةِ 250 متراً مربّعاً من أرضٍ تبلغُ ثلاثةَ هكتاراتٍ تشرفُ على كلِّ السّفحِ الشّرقي ـ الشّمالي لمدينةِ الجزائر. كان الرِّجالُ التّسعةُ يرتدونَ بدلاتٍ أنيقة مُفَصَّلة من القماشِ الغالي الثّمنِ نفسه. أما السُّتراتُ المتقاطعة فتُخفي تماماً البطونَ المنتفخة لبعضِ هؤلاءِ الرِّجالِ ذوي الوجوهِ المغطّاةِ بأقنعةٍ متشابهةٍ مصنوعةٍ من الشّمعِ الأبيض. باستثناءِ أحجامِهم، ليس هناكَ أيّ فرق أو اختلافٍ يميّزُ أحدهم من الآخر.

هؤلاءِ هم الأشباحُ في مجلسهم. بعد قليلٍ عندما ينتهونَ من هذه الجلسةِ ويخرجونَ من قاعةِ المجلسِ، سيتخلّصون من أقنعتِهم الشّمعيّة وكلُّ واحدٍ منهم يستعيدُ وجهَهُ وملامحهُ المميزة من جديد. بخلافِ البروفسور الّذي لن يفعلَ مثلهم لأنّه غير معني بالعملية.

يحقُّ للوسيطِ المعتمدِ البقاءُ مكشوفَ الوجهِ إذا كان من الدّرجةِ الأولى. فالوسطاءُ والقادةُ والعملاءُ مقسّمونَ مراتب. ولما كان من حقّهِ إبقاءُ وجهِهِ مكشوفًا في حضرتهم فقد يسهلُ عليهم التضحيةُ به ككبشِ فداءٍ عند الضّرورةِ أو لضروراتِ العملِ أو للحفاظِ على نفوذهم سليمةً غير منقوصة.

إذ بالنّسبة إلى سائر أعضاءِ المجلسِ الطّارئ، بهذه الأقنعةِ الّتي تموّهُ أيضاً صوتَ لابِسِها، لا أحدَ من هذه العناصر يمكنُ التّعرفُ عليه عندَ اتّخاذِ القرارِ

التّوافقي دائماً. وهكذا، لا أحدَ منهم يتحمّلُ مسؤوليّةَ أيِّ قرارٍ خارجَ دائرتِهم ولا حتّى داخلها.

إلا أنّ الوسيطَ المدعوَّ يمكنهُ اللقاء وإياهم عندما تكونُ وجوهُهم مكشوفةً في حفلات يقدّمونَ عادةً وجبةً عاديّةً أو خفيفةً تكريماً للوسيطِ المعتمدِ المدعوِّ إلى أحدِ اجتماعاتِهم.

هذا المساء، استُدْعِيَ البروفسور أمامَ المجلسِ الكبيرِ إثرَ علاقاتهِ الخائبة وفشلهِ في التّحكّمِ في حيثيات حكاياتِ خُرطال والتَّوتُّرِ الّذي تسببتْ به هذه القضيةُ وتداعياتُها.

لقد استُدعي لسماعِ ما لديهِ عمّا يعتبرونَه انزلاقاً ومبالغةً ومجازفة. كان المطلوبُ منه تبريرَ ما حدثَ والدِّفاعَ عن نفسِهِ وسط تأنيب الأشباح وانتقاداتهم وإنقاذ نفسه.

استعملَ البروفسّور قدرتَهُ على الاقناعِ ولباقتَهُ واعتمدَ على تذلّلِهِ لأسيادِهِ وعلى دعمِ السّيناتور الّذي يُعتبرُ واحداً من كبارِ الوسطاءِ المعتمدينَ الّذي يشرفُ على أكثر من نصفِ الحياةِ الاقتصاديّة والاجتماعيّة والإعلاميّة في البلاد. فلا شيءَ يسيرُ بدونِ مباركةِ السّيناتور للوسطاءِ العاملين تحت مراقبته.

أثارَ أحدُ أعضاء المجلسِ قضيّةَ إحكامِ الألواحِ العازلةِ والحواجزِ المختلفةِ الّتي تحميهم منَ الأخطار المحدقةِ حتّى بكينونتهم. إنّ تراكُمَ ما يعتبرونَهُ حماقاتٍ وكذلكَ الأحداثَ الأخيرةَ أقلقتْ راحةَ أكثرِ من واحدٍ منهم.

ـ «ليس هناك أيُّ خطر» قال البروفسّور بجفاف.

ـ «إلاّ أنّهم هذه المرّة استدعوا الأفضلَ لتكوين قيادةِ «السيريف» وأعضائها (خلية الاستعلامات والتّحقيقات الماليّة)». قالَ أحدُ الأعضاء.

ـ «قلتُ لكم إنّهُ لن يحصلَ شيءٌ. نحن نتصرّفُ بكلّ الفاعليّةِ الضّروريّةِ حالما يقترب أحدٌ من الخطوطِ الحمر». طمأنَهُ البروفسّور.

ـ «التصرّف، التصرّف! كيف ستتصرفون؟» ألحّ صوتٌ آخر.

ـ «بوقف كلّ محاولةٍ بإمكانها أن تُلْحِقَ الضّررَ بكياننا. إنّ لائحةَ ضحايا الإرهابِ لا تزال مفتوحةً، على حدِّ علمي». قال البروفسّور بتهكّم.

ـ «حتّى عندما يتعلّقُ الأمرُ بالكولونيلِ محمود أو بأحدِ أبناءِ الجهاز؟» سأل شخصٌ آخر قد فاجأهُ كلامُ هذا الوسيط المندفع.

سنعملُ ما يجبُ لنحمي جمعيتنا المهيبة. سأكلّم الكولونيل محمود. إنّهُ ذكيٌّ يقيسَ أهميّةَ المعادلةِ الّتي عليه حلّها. بالاضافةِ إلى كونهِ صاحبَ تأثير كبيرٍ لدى «السيريف» والدوائر المجاورة له.

ـ حتماً، إنّهُ مستقيمٌ، ولكننا نعرفُ أيضاً أنّهُ عنيدٌ كالبغلِ، وأنّهُ لا يمزحُ مع المبادئ. نحنُ لا نريدُ أنْ نعيشَ مرّةً ثانيةً قصّةَ النزيهينَ الذين لا يقبلون الرّشوة كما حصلَ مع فريقِ الرّئيسِ «بوضياف». قال صوتٌ آخر.

لم يحاول البروفسّور الّذي أزعجَهُ كلُّ هذا الضّغْطِ، أن يميزَ حتّى الصّوت الّذي كان يتردد كثيراً بجانبه. اكتفى بالقولِ بتعجرفٍ ظاهرٍ:

ـ «لكل إنسانٍ أخطاؤه. لقد حرقَ «إيكار»[21] أجنحتَهُ عندما أراد الاقترابَ من الحقيقة. كان ذلك خيارُهُ!»

سمحَ الأشباح للبروفسّور بالانصراف. رافقَهُ أحدُ أدلاّءِ المكان إلى غرفةِ انتظارٍ حيثُ انتظرَ لحظةً قبلَ أن يصحبَهُ مجدّداً إلى قاعةِ استقبالٍ أخرى كبيرةٍ ومزدحمة.

رجالٌ ونساءٌ من كلّ الأعمارِ وبهيئاتٍ مختلفةٍ كانوا يلتهمون بسرعةٍ سندويشات مسقّاةٍ بالنّبيذِ الأبيضَ المنعشِ وأنواع أخرى من المشروبات، فيما كان الخَدَمُ يتنقّلونَ وسطَ المدعوّين، يعرضونَ عليهم كؤوس المشروباتِ من شتى الأنواع.

احتسى البروفسّور بضعَ كؤوسٍ من الويسكي، تبادلَ بعضَ الكلامِ السّخيفِ مع نساءٍ شاباتٍ جئنَ للقائهِ ثمّ استأذنَ أحد الرّجالِ الّذين يرتدون بدلةً مشابهةً لبدلاتِ أعضاءِ المجلس. كانت الأوركسترا تعزفُ لحنًا عربياً ـ أندلسياً مرحاً طغى عليه لبعض الوقتِ ضجيجُ القاعةِ.

عندما لَفَحَ هواءُ اللّيلِ الرّطب وجهَه، كانت ساعتُه الرولكس تشيرُ إلى الأولى والنصف. جلسَ خلفَ مقودِ سيّارتِه وانطلقَ مسرعاً». الأوغاد، الآن عندما دارت الأمورُ، يبحثونَ عن كبشِ فداء. وعندما كانوا يستعملون

ويستغلّون أَعطيات خُرطال هذا الأحمقِ، لم يكونوا يرونَ الخطرَ الداهمَ. الامتيازاتُ، وبطاقاتُ القرضِ غيرُ المحدودةِ والتّكفلُ بهم وبعوائلهم وعواهرهم،، كان ذلك من أجلِ القضيّةِ العادلةِ. والآن، علينا نحنُ أن ننظِّفَ قذارتَهم. الخدمُة الجيّدُة لهم، وأضرارُ فرانكشتاين لنا، تمتمَ البروفسّور خارجًا عن طَورِهِ.

كان البروفسّور يعلمُ أنّ «الأشباح» لا يمزحون مع منفّذي رغباتِهم. لم يكن يجهلُ منذ أوّلِ لقاءٍ لهُ مع الوسيطِ المعتمدِ الأوّل الّذي جَنّدَهُ، أنّ الأشباحَ يدرسون بدقّةٍ في كلّ مرّة السّيرة الذاتيّة للآخرين، لأولئك الّذين كانوا قد سبقوهم، لأولئك الّذين يحيطون بهم كي يستغلّوهم أفضلَ استغلال. هذا ما علّمهُ إيّاه السّيناتور الّذي كان أوّلَ دليلٍ له في حضنِ «الأشباح»، منذ خطواته الأولى كوسيط معتمد و«خلايطي»[22] كبير.

كانت السّيّارة تسيرُ مُسرعةً عندما توقّفتْ عند ملتقى شارع بوقرة مع شارع «بوارسون». تبادلَ رجالُ دوريّةِ الشرطة بضعَ كلماتٍ مع البروفسّور ثم أفسحوا له الطّريق. همهم البروفسّور «باكو» بكلام بذيء وهو ينطلق مسرعاً. وسرعان ما اختفتِ السّيّارة في متاهاتِ شوارعِ وادي حيدرة.

1. إيكار: شخص أسطوري. ابن ديدال، هرب من لامبيرنث مع والده بواسطة أجنحةٍ مصنوعةٍ من الريش ومثبّتةٍ بالشمع. أحرقت حرارةُ الشمس الشمعَ فسقط إيكار في البحر.

2. خلايطي، تستعمل في العامية الجزائرية للدلالة على شخص نشط وبارع في دنيا السياسة والإعلام ويحظى بعلاقات واسعة.

الفصل السادس عشر

االتحرّيون

قبلَ ظهرِ اليومِ التّالي، تلقّى محمود اتّصالاً على هاتفِهِ المحمولِ. قبلَ أن يجيبَ، تأمّلَ لحظةً شاشةَ الهاتفِ ودُهِشَ لرؤيةِ رقمِ البروفسّور على شبكةِ خطوطِ الثُريا. تبادلَ نظرةً خاطفةً مع إدريس بوخدنه.

«نعم!» ـ

«مرحبًا، مومو» قال باكو بحماسة: ـ

«مرحبًا، مافيا، ألا تزالُ حيّاً، أنت؟ ومن أين حصلتَ على هذا الرّقم» ـ

كُفَّ عن السخرية يا صديقي. أنت، هل أنت بخير؟» سأله البروفسّور.

«نعم، بخير! أيمكنني الاتّصالُ بك في ما بعد؟» ـ

«إذا أردتَ. لكنّي أفضّلُ أن نشرب كأساً في المساء». ـ

«آه! آسف يا صديقي. سأرحلُ خلالَ أربعٍ وعشرين ساعةً على أبعدِ تقديرٍ. ـ سنلتقي لدى عودتي».

«أنت مسافرٌ إلى مكانٍ بعيدٍ؟ إذاً لدى عودتك». قال البروفسّور مستسلماً ـ.

«سأتّصلُ بكَ بعد أسبوع. أسعدني سماعُ صوتِكَ، أميغو. شاو!» ـ

وضغطَ على زرِّ إقفالِ الخطّ تاركاً الجهازَ يسقطُ على المكتبِ وقالَ باشمئزازٍ ملتفتًا نحو زميله:

«هذا القذرُ يترصّدُ أيّةَ معلومة». ـ

«هاي! أصواتُ النّظامِ لا يمكنُ اختراقُها، محمود ياخوي» قال له إدريس ـ بوخدنة.

«سأصعدُ لمقابلةِ المعلّم، نلتقي بعد قليلٍ لإعدادِ ملخّصٍ عن الوضع؟» ـ

«حسناً، أيها الرّئيس! أنا هنا»، أجابهُ إدريس ـ.

الرّائدُ مالك هو رئيس سكرتيريا اللّواء، رجلٌ أصلعُ عيناهُ ضاحكتانِ تختبئانِ خلفَ نظاراتٍ راقيةٍ بلا إطار. نهضَ عندما رأى الكولونيل محمود الّذي يكنُّ له كلّ احترامٍ وتقدير. بقي ثانيتين في حال الاستعدادِ قبلَ أن يمدّ نحوهُ يده بحرارة.

ـ «أيّها العقيد، كيف حالك؟» سأله.

ـ «تأقلمنا، يا سيدي. إنّه قدرنا منذ أن ارتدينا هذا الزي»

ـ «إن شاء الله، ستعودُ أفضلَ مما كنتَ عليه في بيروت، ولمَ لا إلى بيروت. من يدري؟ [ربي ما فيه غير الخير] ليس لدى ربي سوى الخير!» قال له الرّائدُ بإشفاقٍ.

أشارَ محمود بإصبعهِ نحوَ البابِ المنجّدِ مستفسراً.

ـ «نعم، أيها العقيد. اللواءُ في انتظارك».

سارَ حاجبٌ برتبةِ مساعدٍ أوّل يتقدّمُ العقيدَ، استلّ علاّقةَ مفاتيح من جيبِ سروالهِ وفتح البابَ المنجّد الّذي يفتحُ على غرفةِ انتظارٍ ومنها على صالونٍ مفروش بسجّادةٍ فاخرة. فُتِحَ بابٌ ذو مصراعين يؤدّي إلى مكتبِ اللّواءِ الواسعِ.

رفعَ اللّواءُ رأسَهُ لدى سماعِ وقع قدمَي المساعد الأوّلِ يليه وقعُ قدمَي العقيد. انسحبَ الملازمُ الأوّلُ على الفورِ وأغلقَ البابَ. ابتسمَ اللواءُ وهو يضعُ سيجارَهُ الـ «كوهيبا» في منفضةٍ من الفضّةِ. نهضَ بصعوبةٍ وفتحَ لهُ ذراعيه.

ـ «هاها! يا عقيد، [جابوك؟] جاؤوا بك؟» قال وهو يمدّ له خدّهُ.

ـ «ايه، نعم، سيدي اللواء، إنّهُ نداء الواجب» أجابهُ محمود بطريقةٍ آليةٍ.

وهو يقبّلُ رئيسَه أحسّ بقلبه ينتفضُ أمام قلّةِ حياءِ هذا الأخير، لكنّه فضّلَ التفكير في أنّ خطّةَ دائرة التحرّي والأمن (DIS) ، القسم الّذي يديره هذا الجنرال القويّ، باستدعائه من بيروت وإناطة مسؤوليّة إدارة السيريف CERIF به هي علامةُ ثقةٍ واعترافٍ بكفاياته.

هي مؤسسة مختلطة تحتَ (CERIF) خليّة المعلوماتِ والتّحريات الماليّة وِصايةِ وزارةِ المال، مكوّنةٌ من بضعة ممثّلين عن مؤسساتِ الدّولةِ المرتبطةِ بالأمنِ الوطنيّ وبحمايةِ الممتلكاتِ العموميّة، ويترأسها قاضٍ.

هذا القاضي المُفوّضُ الّذي يتمتّعُ بسلطاتٍ واسعة، هو تحتَ رقابةِ وزيرِ المالِ شخصياً. وفي الواقعِ، يقودُ السيريف في عملها ممثّلٌ عن دائرةِ التّحري (DIS) ، كون التركيبةِ الرّئيسيّة لهذه الخليّة مؤلّفة من تحرّيّين من والأمن

الّتي يقودها محمود، ومعظمهم أعضاءٌ في الـ (DIS) دائرةِ التّحرّي والأمن CVRC (هيئةُ مراقبةِ الفسادِ وقمعه).

دعا اللّواءُ العقيدَ محمود إلى الجلوسِ ودخلَ في صلبِ الموضوع:

ـ «إذاً أنتَ بدأتَ بالاتّصالِ مع الجماعةِ عندَ سي عبد الحفيظ؟

ـ «نعم، سعادة اللّواء، لقد نُصِّبت اللجنة في مقرّ حاكميّةِ بنك الجزائر. وقد سبق ذكرُ ذلك في بيانِ الاستعلامِ (BRQ) اليومي». أجابهُ محمود بسرعة.

ـ «وفريقكَ، هل أنت راضٍ عن تشكيلتهِ؟ أتحدّث عن جماعتنا؟

ـ«نعم، إنّهم تحريّون بارعون، هذا ما كنتُ أريده

ـ«على كلِّ حالٍ، إذا كنتَ تحتاج إلى أيِّ شيءٍ، فأنتَ تعرفُ جيّداً مجريات الأمور. لديكَ الحريّةُ المطلقةُ في هذه المسألة. بطاقةٌ بيضاءُ بلا قيدٍ أو شرط. يداكَ طليقتان. زعزِعْ من تشاء. إنّ تعليمات الرّئيسِ واضحةٌ جدّاً في هذا الشأن. حتّى أنه ردّدَ ذلكَ في أثناء مجلسِ الوزراء.

إنّهُ يريدُ الحقيقةَ كلّها ويريدُ تسليط الضوء على تصرُّفاتِ هذا الوحشِ، ويلحُّ كي لا تترك العدالةُ أيَّ كائنٍ على علاقةٍ بهذا الأمرِ من قريبٍ أو من بعيد. بالنّسبة إلى الباقي أنت تعرف كلَّ عملِك. وما دمتَ في صلب الموضوع، التفتْ قليلاً إلى ما يجري في الجهةِ الأخرى من البحر الأبيضِ المتوسّطِ. أعتقدُ أنّهُ لا بدّ أن يكونَ لنا أمورٌ مهمّةٌ هناك. لستُ أنا من يدلُّكَ على ما يجبُ أن تفعلهُ.

ارتسمتْ على شفتَي اللّواء ابتسامةٌ ساخرة. أحسّ محمود بأنّهُ أصيبَ بالصّميم جرّاء كلمات اللّواء الأخيرة. وأخذ يقلّبُ هذه الجملة الأخيرة مرّاتٍ عدّة في رأسه بحثاً عن معنًى محتملٍ. كان محمود مقتنعاً بأن اللّواءَ يعتبرهُ من بين أولئك الّذين يطلبون الشّرفَ مع احتقارهم التشريفات وأبّهتها. لطالما لامَهُ على عدوانيّتِهِ تجاهَ رؤسائهما. منذُ عشرينَ عاماً، كانا في الرُّتبةِ نفسها. في كلِّ مرّةٍ يلتقيان يندمُ محمود على مرورهِ الكارثيّ بالأركان العامّة للمنطقةِ العسكريّةِ الثّانيةِ الّتي كان يديرها أبيضُ الرأس[23]. في تلك الأثناء كان فيها اللّواءُ مجرّدَ ملازمٍ أوّل يشغلُ منصب C11 وهو (اسم رمزيّ لمراسلِ جهاز

أمنِ الدّولة على صعيد الولايةِ)، وكان محمود في ذلك الوقتِ قائدَ سريّةِ الإشارة. منذ ذلك الحينِ يتحمّل كلٌّ واحدٍ منهما عبء خياراتِهِ، أحدهما كان لديهِ ميلٌ طبيعيٌ إلى تحمّلِ المسؤوليّةِ على نحو مستمرّ، فيما الآخر على غرار دوستوفسكي «لا ينصرِفُ عن آلامِهِ، ولكنه يتحمّلُها كلّها بكلِّ أوجاعها». قدّمَ خادمٌ إليهما القهوةَ. فتحَ رئيسُ قسمِ التّحقيقِ والأمنِ علبةَ السيجار الكوبي ثمّ أغلقها بسرعةٍ وقال:

«ـ «آه! صحيح، ألا تزال متوقّفًا عن التّدخين؟

ـ «قريباً سيكونُ قد مضى على ذلك خمسةُ أعوامٍ، حضرةَ اللّواء». أجابه محمود.

تناقشا خمس دقائق. قبل أن يستأذنَ، تلقّى محمود أمرًا أخيراً من رئيسهِ:

ـ «انظرْ أيضاً إلى ناحيةِ رئاسةِ الحكومةِ قبلَ الجولةِ الأوروبيّة. سنلتقي بعد عشرة أيّامٍ، لدى عودتك. تماماً قبل اجتماعِك المقبل. صيدٌ موفّق».

انضمّ محمود إلى إدريس وماريو في المبنى المجاورِ. ماريو الأربعينيُّ رُقّيَ منذُ أوّلِ شهر أكتوبر/تشرين الأول الماضي إلى رتبةِ رائدٍ، كان قد تعرّفَ إلى محمود لدى عملِهِ في دائرةِ الشّؤونِ الخارجيّة التابعة للجهاز؛ كان في ذلك الحين مسؤولَ قسمٍ مهمّتُهُ التحقيقُ والتّحري في الثرواتِ المهرّبة إلى الخارج ضمنَ هذه الدّائرة.

وهكذا نشأتْ صداقةٌ كبيرةٌ بين الرّجلين. كان محمود يقدِّرُ كثيراً دقّةَ ماريو وبُعْدَ نظرِهِ. أوكل إليه مهمّةَ إعدادِ ملفٍ خاصٍ بخُرطال تي. في وخُرطال نيوز قناتَي التّلفزيون الفضائيّتين الباريسيّة واللندنيّة.

عرضَ محمود باختصارٍ تعليماتِ اللّواءِ قبلَ أن يفسحَ في المجال لماريو ليقدِّمَ تعليقاتٍ على تقريرِهِ الخاصِّ بالقناتين التلفزيونيتين. كان إدريس قد دوّنَ على ورقةِ «سير عمل المجموعة» ما سيقَدَّمُ لاحقاً في اجتماع السيريف.

ـ «وحدثَ أنّ بعض الأمراء من السّعودية يفاوض لإعادة شراءِ خُرطال تي. في! الجنرالُ فوكس شخصيّاً تدخّلَ مع أصدقائِهِ في قصورِ الخليجِ لإتمامِ عمليّةِ الإنقاذ» قال ماريو مؤكِّدًا وهو يديرُ إبهامهُ على رأسِهِ للإشارةِ إلى العمامة. «فوكس، عرّابُ الـ...؟» سألهُ محمود بريبةٍ.

ـ «تدورُ المفاوضاتُ بشأن عددِ الحصصِ الّتي سيتمُّ التّخلي عنها للسّعوديّين. اللافتُ في هذه المسألةِ هي أنّ السّعوديّين لا يجهلونَ مصاعبَ شركائهم الجزائريّين الماليّة. استغلّوا المسألةَ استغلالاً كبيراً. لم يكتفوا فقط بلعبِ دورِ رعايةِ الأدبِ والفنونِ والعلومِ وهم يقدّمون المالِ. يريدونَ سيطرةً حقيقيّةً على القناةِ...»

ـ «ماذا! مع كلِّ ما كدّسَهُ، هو عاجزٌ عن تعويمِ قناتِهِ التّلفزيونيّة؟» سألَ إدريس بدهشةٍ.

ـ «نعم، هو عاجزٌ عن التّمويلِ الذّاتيّ. كان هو والممولونَ المستترون يعتمدونَ على دعمِ القناتينِ ماليّاً انطلاقاً من مدينةِ الجزائر، وهذا ما تمكّنوا من تحقيقِهِ إلى أنْ وقعوا في مصيدةِ المطارِ ذلك اليوم. ومنذ توقيفِ جمال غرماط صديقِ طفولتِهِ ومديرِ القناةِ، أدركوا أنّهُ لا يمكنُ تمويلُ شركةٍ فرنسيّةٍ انطلاقاً من مدينةِ الجزائر.

ـ «وبفتحِ رأسمالِها أمامَ السّعوديين، أصرّوا أن لا يَدَعوا أيّ جزائريّ يدخل حديقتَهم السّريّة» علّقَ محمود باشمئزاز.

ـ «إيه نعم! حضرة الكولونيل! يَصِفُ فوكس تدخُّلَهُ تجاهَ السّعوديّين عملاً إنسانياً لإنقاذِ وظائفِ الأُجراء». قال ماريو ممازحاً.

ملأ ماريو كوبَ ماءٍ من إبريق من الكريستالِ موضوعٍ على الطّاولة. وأضافَ بعدَ أن بلّلَ شفتيه:

ـ«خُرطال تي. في الّذي يبثُّ من الاستديو 107 من سان سانت دني (Jet-Set) . يضمّ نخبةَ جيت سات ، (TF1) المستأجرِ من القناةِ الأولى الفرنسيّة ألا تذكران سهرةَ 3 ديسمبر/أيلول 2002 في فيلّلا «باغاتيل» شارع الفراعنةِ عند مرتفعاتِ «كان» حيثُ تزاحمَ جيرار ديباردیو، وميلاني غريفيت، وستينغ، وكاترين دوناف، وبونو، وأيرفي بورج، والشّاب مامي، وباتريك برييال، وأندريا بوشيللي وكثيرون غيرهم؟ كم مغلّفٍ وُزِّعَ في هذه المناسبات! كان يعتقدُ أنّه بذلك يتحايلُ على المجلسِ الأعلى للإعلام المرئيّ والمسموعِ الفرنسيّ الّذي لا يسمحُ بمثلِ هذه القفزة الإعلاميّة. أنفقَ بسخاءٍ. وضعَ كلّ أقاربه وأصدقائه حتّى الّذين لا علاقةَ لهم بالإعلامِ والاتّصالِ في مناصبَ مهمّة، كهذا الصّديقِ

طبيبِ الأسنانِ أو ابن هذا الشّرطي من مدينة البليدة وعمّتهُ الّتي تعمل ما بدا لها وتتحكّمُ في كلِّ شيءٍ بما فيه نشرة أحوالِ الطقسِ التي تبثُّها القناة. لكنّهُ نسيَ أن يخلُقَ إدارةَ إعلانات. والنتيجة معروفة. خُرطال تي. في لم يجلبْ سنتيمًا واحدًا لمواردهِ، وأفلَس».

سلّم إليهم ماريو وثيقةً تتضمَّنُ ملاحظاتِهِ وتُبرزُ اللّغزَ المُحيّرَ الملازمَ لما يسمّى قضيّة «كان». تنقسمُ مجموعةُ العقاراتِ هذه في «كان» إلى ثلاثِ فيلّلاتٍ: فيلّلا «باغاتيل» الّتي كانت في الماضي لِـ «موم موانو»، وفيلّلا «ماتشوت» وفيلّلا «فيريفون». هذه الجوهرةُ ذاتُ النّـمطِ العربيِّ المتربّعةُ على مساحـةِ 5000 مترٍ مربّـعٍ يـزيّـنُهُا حوضا سباحةٍ داخليّانِ وحوضانِ خارجيّانِ. ثمنُ العقارِ الإجـمـالـيُ 37 مليون يورو، باعتْهُ لـمقـاولٍ فـرنسـيّ غنيّ شركـةُ خـُرطـال للـطّـيـرانِ الّتي كانتْ قد اشترتْهُ قبل عام بـ 16 مليونًا من مصرفٍ سعودي.

ـ «[يابوقلب!] أوه، من لديه قلبٌ، أو أوه! يا إلهي!» قال إدريس متعجّباً دونَ أن يرفعَ أنفَهُ عن الوثيقةِ.

ـ «نعم، العقدةُ هي أنّهُ ليسَ هناكَ أيّةُ مصلحةٍ اقتصاديّةٍ ظاهرةٍ لشركةِ خُرطال للطّيرانِ الّتي تتكفلُ دفعَ أجورِ عمّالِ البيتِ والخدمِ والحرّاس». قال ماريو.

ـ «انتظرْ قليلاً، لأن الأفضلَ هو الآتي». قال محمود المنسجمُ بالقراءة..

ـ «تماماً، حضرة العقيدِ؛ الأمرُ المُذهلُ هو ما جرى في ما بعدُ مع هذه الممتلكات». أشارَ ماريو ثمّ حنى رأسَهُ قليلاً قبلَ البدءِ بقراءةٍ بطيئةٍ مشدِّدًا على الكلمات:

ـ في الخامسِ والعشرينَ من يونيو/حزيران 2003، مع شيوعِ الفضيحةِ، باعَ SCI رياض خُرطال فيلّلاتِهِ الثّلاث في «كان» بـ 17 مليون يورو لِـشركة ماكـماهون لانزيراك. اسمٌ مستعارٌ للمشتري الحقيقيّ الّذي لم يكن سوى مصرفِ «لامّاس» الموجودِ في سويسرا والّذي يمثّلُ مصالحَ عائلةٍ جزائريّةٍ ذاتِ نفوذٍ كبيرٍ.

لمناسبةِ هذه الصّفقة، استفادَ البعضُ بشكلٍ كبيرٍ. وهكذا منحَ خادمُ «خليفة» وعميلُهُ في هذه الصّفقةِ نفسَهُ حصّةً قيمتها مليون يورو، في حينِ أنّ بورجوازيًّا من اللوكسمبورغ مُحيي شركةِ تاون بروبيرتيز، خصّ نفسَهُ بِـ 897000 يورو.

ماذا وراءَ بلبلةِ رياض خُرطال الماليّةِ وهذه الفوضى؟ لماذا باعَ ممتلكاتِهِ العقاريّةَ بخسارةٍ ؟

شكّلتْ خليّةُ «تراكفان» الفرنسيّةُ الّتي تهتمُّ بملاحقةِ المالِ المزوّرِ في عملياتِ تبييضِ أموالٍ ضخمةٍ. وفي تقريرٍ سلّمتْهُ هذه الخليةُ إلى القاضي «فريفوستـبيدريز» المكلّفة التّحقيق في القضية، كشفتِ الخليّةُ أنّ هناكَ بالفعلِ أكثرَ من 50 مليون يورو تبخّرتْ من مصرفِ خُرطال من مدينةِ الجزائرِ لتنتهيَ في حسابٍ مصرفيّ في ساوباولو، عبرَ شركةِ طيران خُرطال المالكِ الحقيقيِّ لفيلّلا باغاتيل المشهورة».

رفعَ ماريو رأسَهُ، أمال الوثيقة على الطّاولةِ وقال:

«وقد استغلّ رياض خُرطال ومجموعتُه، بكلِّ قوّةٍ، هذه العمليّاتِ المشتبه فيها لامتصاصِ الأموالِ الطّائلةِ. وبطبيعةِ الحالِ أخفى المئتَي سيّارةٍ من الأنواعِ الفاخرةِ (مازيراتي، فيراري، مرسيدس، جاكوار) الخاصّةِ بمؤسّسةِ السّياراتِ التّابعةِ لهُ. وحتّى اليوم لم يُعثر إلاّ على خمسِ سيّاراتٍ...»

ـ «ثمة عناصرُ أخرى في حوزتي. سأستعيدُها غداً بعد تنصيبِ مأمورِ التصّفيةِ الماليّة، قال إدريس بنبرة قاسية.

ـ «حسناً لديّ موعدٌ غدًا مع أحدِ محاميّي إخوةِ السّوءِ الثلاثةِ الّذين قُبضَ عليهم في المطار. إنّهُ واحدٌ من عندنا» قال محمود بكلِّ ثقةٍ.

نهضَ محمود فجأةً:

ـ «لديّ عملٌ الآن. إلى الغدِ إذا لم نلتقِ مجدّداً اليومَ. ماريو هل قمتَ بما يلزمُ من أجلِ الرّحلةِ إلى باريسَ؟»

ـ «نعم؛ كلُّ شيءٍ مرتبٌ. سأسافرُ بعدَ غد». أجابَ ماريو..

التقى الرِّجالُ الثلاثةُ في وقتٍ مبكّرٍ قبلَ الظّهرِ وظلّوا يعملونَ بجدٍّ إلى آخر النّهارِ. مَحّصوا كميّاتٍ كبيرةً من الملاحظاتِ والتّقاريرِ اليوميّةِ والأسبوعيّةِ من

وملخّصاتٍ وتحاليلَ رقميّةٍ. كان إدريسُ (BRH و BRQ) مختلفِ الأقسامِ بوخدنة أوّلَ من تركَ زملاءَهُ، لأنّه كان مضطرًا إلى اصطحاب ابنتهِ المُعَوَّقةِ من مدرسةِ حيدرا المُتَخَصِّصةِ.

3. أبيض الرأس: الرئيس الجزائري الشاذلي بن جديد.

الفصل السابع عشر

ملكُ المالِ

كانت السّاعةُ تشيرُ إلى الخامسةِ مساءً عندما حيّا محمود ضابطاً مناوباً ذا رتبة صغيرةٍ على كتفهِ. اجتازَ بقفزةٍ واحدةٍ العارِضَ الآليّ الّذي يكوّن حاجزاً عندَ مخرجِ مقرِّ القيادةِ. وفيما كانَ يديرُ محرّك سيّارته أخذَ يفكّرُ مَليّاً في المسألةِ: ولكن هذا مستحيل! لماذا كلُّ هذا التلاعبِ والالِتواءِ وكلُّ هذه المصاعبِ بالنّسبةِ إلى شخص يتباهى بِلَيِّ عُنُقِ البيروقراطيّةِ؟

تذكّرَ أطنانَ المعلوماتِ الّتي كان قد جمعَها طوالَ النّهارِ، خاصّةً الـمتعلّـقة بـخـطواتِ إنشاءِ القناةِ التلفزيونيّةِ في فـرنسا، والّتي تـردّدَتْ في مختلفِ تقارير الجهاز، وفي الملفّاتِ الصحفيّة والمعلوماتِ المتلفزةِ المتوافرة بكثرةٍ على الإنترنت بدءًا بالملفِّ الّذي أعدّهُ عبّود هشام وقدّمهُ في موقعهِ الإلكتروني، وهو زميلٌ قديمٌ لهم اعتزلَ في فرنسا بعد الخيباتِ المتعدّدةِ الّتي واجهتْهُ خلالَ مهنتهِ الصحافية.

في يوليو/تموز 2002، كان رياض خُرطال وصديقُ طفولتِهِ يحتسيانِ الويسكي وهما يجلسان على مقعدَي بحرٍ طويلينِ بجانبِ حوضِ السّباحةِ في الفندقِ الفاخرِ سان كارلوس في جزيرةِ ماربيلاّ الأسبانيّةِ، ويتأمّلانِ بإعجابٍ عُريَ الأجسامِ الجميلةِ لِحَوارٍ من مختلفِ الأجناسِ تسترخي على المقاعدِ الطّويلة القابلةِ للثني والمصنوعةِ من القماشِ والبلاستيك.

الرّشاقةُ المنبعثةُ من هذهِ الأجسادِ النّديّةِ المتحرِّرةِ من كلِّ قيد، ذات المؤخّراتِ المستديرةِ الجميلة تثيرُ الانتصابَ لدى ذكر. انضمّ فيسي سونكريس إلى الرَّجلينِ، وهو فرنسي مختصٌّ في عالمِ الإعلامِ والصّحافةِ خاصةً في جمع التّمويلِ لإنشاءِ القنواتِ التِّلفزيونيّةِ. فيسي سونكريس الأربعينيّ ذو الشّعرِ الأشقرِ والوجهِ المسطّحِ الّذي تعلوهُ نظارتان بذراعينِ مذهّبينِ يعطي انطباعاً بأنّهُ رجلٌ رابِطُ الجأشِ، شديدُ العزمِ وحازم.

إنّه قليلُ الكلامِ، يعتصمُ دائماً بهدوءٍ جليلٍ. صافحَ الرّجلينِ ثم جرّ طاولةً صغيرةً وجلسَ مقابلَ رياض خُرطال. استلّ من مِحفظتِهِ القماشيّةِ ملفاً ذا

غلافٍ بلاستيكيّ مقفلٍ بأحزمةٍ مطّاطيّةٍ وناولَهُ لرياض. أمسكَ سامي الملفّ ونزعَ الأحزمةَ، تصفّحَ الأوراقَ المشبوكةَ ثمّ وضعَها عندَ أسفلِ مقعدهِ البحريّ الطّويلِ.

ـ «فيسي، أنتَ مستعدٌّ للمغامرةِ الكبيرةِ؟» سألهُ رياض بكلِّ حماسة..

ـ «الأمرُ يتوقّفُ عليكم الآن، سيّدي» أجابهُ فيسي بشيءٍ من القلقِ..

رنّ جرس قوي لهاتف محمولٍ. التفتَ رياض فجأة وقد أزعجَهُ الضّجيجُ فرمقَ صديقهُ بنظرةٍ ثاقبة:

ـ «اللّعنة! ألن تُغَيّرَ بعد هذهِ الرَنّةَ المزعجةَ؟»

لم يُعِرْ سامي أيّ اهتمامٍ لكلامِ صديقهِ. رفعَ غطاءَ الهاتفِ المحمولِ وأجابَ:

ـ «نعم...آه! مستر شمّاع مرحبًا، يا صديقي... نعم، إنّهُ هنا...آه! قدْ وصلتَ؟ نحنُ عند مصطبةِ المسبحِ، جهةِ الشّمالِ... بانتظاركِ... على الفور...»

أقفل سامي الجهازَ وقال لصديقِهِ:

ـ«إنّهُ راغد، لقد وصل».

ـ «أتعتقِدُ أنّ مبلغَ 10, 000 يورو سيكونُ كافياً؟» سأل رياض..

ـ «نعم، وأكثرُ من كافٍ. إذاً، ليكنِ الأمرُ وفقَ ما اتّفقنا عليه؟ سأودِعَ المبلغَ المصرفَ العربيّ الدولي». قال فيسي.

استلّ رياض مظروفًا من ورقِ الكرافت وناولهُ لفيسي:

ـ «تماماً! هذا هو المبلغُ المطلوبُ. لا تنسَ عندَ الموثّق أنْ تطلبَ منهُ أن يجعلَ جوويل وجمال كمديرينِ شريكينِ للشّركة». قال له سامي وهو يتبادلُ مع رياض نظرةً خاطفةً.

جوويل تيفور، الملقّبُة بِـ فليشا، فرنسيّةُ الجنسيّةِ، وُلِدَت في 26 نوفمبر/ تشرين الثّاني 1949 في الدّائرةِ التّاسعة عشرة في باريسَ XIX.

جمال غرماط، جزائريٌّ وُلِدَ في 12 فبراير/شباط 1965 في مدينةِ الجزائرِ وصديقُ طفولةٍ لرياض خُرطال. وَزَنَ فيسي المظروف بيدِهِ ليعرفَ ثقلِهِ من خفّتِهِ قبلَ أن يدسّهُ في محفظتِهِ.

انضمّ إلى المجموعةِ رجلٌ قويُّ البُنيةِ، خطَّ الشيبُ شعرَهُ. نهضَ سامي وفيسيّ للقائهِ وعانقاه على الطّريقةِ اللبنانيّةِ. أما رياض، فاكتفى بأنْ مدّ لهُ

يدَهُ وخدّهُ دونَ أن يتحرّكَ عن كرسيّهِ الطّويلِ ودونَ أن يكْشِفَ عن عينيهِ، مكتفياً بإشارةٍ من يدِهِ نحوَ طاولةٍ صغيرةٍ دعا ضيفَهُ إلى الجلوسِ.

ـ«هاه، راغِد، كيفَ حالُ الطَّقسِ في باريسَ؟» سأله رياض مبتسماً.

ـ «لأوّلِ مرّةٍ منذ مدّة أشرقتْ الشمسُ. والجوّ مُؤاتٍ لولادةِ مشروعك، سيّدي». أجابهُ راغد، متسرّعاً.

ـ «هذا جميلٌ، أعتقدُ أنّهُ لم يبقَ أمامنا سوى عبورِ الخطِّ الأخير. سيهتمُّ فيس بالإجراءاتِ الإداريّةِ وستكونُ لنا قناتُنا التّلفزيونيّة، أيُّها الصّديقُ. أريدُ أن تسعَوا من أجلِ إطلاقها بأسرعِ وقتٍ ممكنٍ. الوقتُ يدهمنا، أيّها الأصدقاء». قال رياض بنبرةِ غرورٍ.

ـ «فورَ حصولي على الأوراقِ المصدّقةِ من الموثّقِ، سأجهّزُ ملفَّ طلبِ الباقي يتبعُ CSA الرّخصةِ من المجلسِ الأعلى للإعلامِ السّمعيّ والبصريّ الـ دونَ أيِّ إشكالٍ. لقد أعددْتُ لكم مُلخّصاً محدّدًا عن كلِّ ما علينا فعلهُ بدءاً من الآن». أجابَ فيسي بهدوء.

ـ«حسناً، اهجمْ! ليسَ هناك مَنْ هوَ أكثرُ منكَ كفايةً لهذهِ الأمورِ، يا صّديقي. راغد سيدعمُكَ في مساعيك». أجابَ رياض بصوتٍ ناعم.

استأذنَ سونكريس الرّجال الثّلاثة برغم إلحاحِ رياض الّذي كان يريدُ استبقاءَهُ للسّهرة، اعتذرَ مُشيرًا إلى موعدهِ مع الموثّقِ في صباحِ اليومِ التّالي.

أقَلّتْهُ إحدى سيّاراتِ اللّيموزين التي استأجرها رئيسُ مصرفِ خُرطال إلى مطارِ مارابيلاّ حيثُ ستُقِلُّهُ طائرةُ جِتْ تابعةٌ لشركةِ خُرطال للطّيران «إلى«بورجيه».

في صباحِ 18 يوليو /تموز 2002 وفي السّاعةِ التّاسعةِ والنِّصْفِ عَرَّفَ فيسي سونكريس عن نفسِهِ في مكتبِ التوثيقِ كلين ـ غابّار المتّحد. اِتّفَقَ مع أحدِ مسؤولي المكتبِ على الخطوةِ الّتي يجبُ اتّباعُها لصوغ الوثائقِ الرّسميّةِ المتعلّقةِ بِتأسيسِ الشّركة «لا سارل خُرطال تي. في» الّتي هو المساهمُ الوحيدُ فيها والمسجّلةُ برأسمالٍ قدرُهُ10, 000 يورو.

بعدَ يومينِ، عادَ فيسي سونكريس إلى مكتبِ الموثّقِ برفقةِ جوويل فليشا وجمال غرماط. بعدَ جلسةِ التواقيعِ المطلوبةِ إدارياً، سلّمَ الموثّق نُسَخًا عنِ

العقودِ.

الشركةُ مُسجّلةٌ في غرفةِ التّجارةِ وضمنَ سجلِّ «بوبيني» للشركاتِ تحتَ الرقم B4442 921 482. وفي ما بعد سُجِّلت في سجلِّ كاتبِ الضبطِ لدى المحكمةِ التّجاريّةِ بباريسَ في 24 يوليو/تمّوز 2002 تحت الرّقم 14 833، بعد أسبوعينِ من لقاءِ الرّجالِ الأربعةِ في إسبانيا.

بعد جلسةِ العملِ هذهِ مع الموثّقِ، أوكل المساهم الوحيد، فيسي سونكريس جمال غرماط جميعَ السّلطاتِ. إلى الآن لا أثرَ لرياض خُرطال في الوثائقِ الرّسميّة للشّركة. أُعدّتْ عقودُ التّنازلِ عن الحصصِ الرّسميّة للشّركةِ بينَ فيسي سونكريس المساهمِ الوحيدِ في «لا سارل خُرطال تي. في» والـ «SAS» الشركة المساهمةِ البسيطةِ الّتي تكوّنت في الفترةِ نفسها والمساهمُ الوحيدُ فيها رياض خُرطال.

اختارتْ الشركة «SAS» خُرطال المساهمة البسيطة مقرّها في 32 شارعِ برودون 93 214 سانت دني لا بلان. هذا التّنازلُ عنِ الحصصِ تمّ مقابلَ مبلغٍ نقديّ قيمتُهُ10, 000 يورو. استتباعًا لهذا التنازلِ، قرّرَ المساهمُ الوحيدُ نقلَ المقرِّ الرّسميّ للشّركةِ إلى شارعِ «كولنكور» إلى دائرةِ باريسَ الثّامنةِ عشرة في «لا بلان سانت دني». عيّن التّقريرُ الّذي أعدّهُ ماريو أنّ تسجيلَ هذا XVIII التنازلِ XI قد جرى في مكتبِ التّحصيلِ الرّئيسيّ لباريسَ الحادي عشر تحتَ الرّقمِ 365/2002 في 14 أوكتوبر/تشرين الأوّل 2002.

برغم هذه الخطوةِ الجديدةِ، أشارتْ استنتاجاتُ تحقيقِ فريقِ ماريو إلى ملاحظةٍ مهمّةٍ جدّاً: الشّركةُ «لا سارل» الّتي يتبعُ مقرُّها محافظةَ «لا سان ـ سانـدنيس» تخضعُ بنزاعاتِها وخلافاتِها لمحكمةِ «بورغ اونبريس» في منطقةِ «رون ـ آلب» بدلَ المحكمةِ التّجاريّةِ في «بوبيني»».

على إثرِ التّنازلِ عن الحصصِ بين «لا سارل خُرطال تي. في» و«الشّركةِ المساهمةِ البسيطةِ خُرطال تي. في» أسّسَ رياض خُرطال «لا سارل خُرطال» الّتي لها مقرُها الرّسمي في 28 شارعِ برودون 93120 في«لا بلان سانت دني» ولها الهدفُ نفسه الّذي تنازلَ عنه فيسي سونكريس إلى الشّركةِ

المساهمةِ البسيطةِ خُرطال تي. في الّتي هي في طورِ التكوّن في هذا الوقتِ عينهِ.

عُهدتْ إدارة هذه الشّركةِ الجديدةِ إلى مديريّ «لا سارل» الأولى نفسهما، أي جمال غرماط، صديق رياض الجزائريّ، وجوويل فليشا الفرنسيّة الإسبانيّة الأصلِ الّتي استخدمَتْ منزلَها مقرّاً للشّركةِ الأولى الّتي أنشأها فيسي سونكريس. هذا الأخيرُ المساهمُ الوحيدُ في سارل خُرطال تي. في تولّى في هذه المؤسّسةِ الجديدةِ مسؤوليّةَ قسمِ التّنميةِ للقناةِ الّتي يديرُها جمال غرماط. أمّا جوويل فليشا فستهتمُّ بقسمِ الدفعِ والتّخليصِ.

وفي 28 نوفمبر/تشرين الثاني من العام نفسه، عقدَ رياض خُرطال، الشّريكُ الوحيدُ في الشّركةِ المساهمةِ البسيطةِ خُرطال، اجتماعًا في مدينةِ الجزائر في حيّ «بارادو في حي حيدرا»، لدرس جدول الأعمال الآتي: تصفيةُ الشركة عبر نقلِ ممتلكاتها، إلى لا سارل خُرطال تي.

يتضمّنُ محضرُ الضّبطِ الموجودُ في سجلِّ كاتبِ الضّبطِ لدى محكمةِ باريسَ والمتوافر على الموقعِ الفضائيّ لهذهِ المؤسّسةِ على شبكةِ الإنترنت قرارَ الشّريكِ الوحيدِ المسجّلِ في مكتبِ تحصيلِ مدينةِ سانتـدني في 3 ديسمبر/ كانون الأوّل 2002. هذا القرارُ تبرّرُهُ أسبابُ تبسيطِ الأمر القضائي والمحاسبيّ والإداريّ. فبدءًا من هذا التّاريخِ فقط أصبحَ رياض خُرطال المالكَ الوحيدَ لقناتهِ التلفزيونيّة.

عيّن على رأسِ القناةِ رجلَ الثّقةِ لديهِ جمال غرماط، مدّة تنتهي مع موعدِ الجمعيّةِ العامّةِ الّتي ستبتُّ صحّة الحساباتِ الماليّة السّنويةِ في 31 ديسمبر/ كانون الأوّل 2005.

الفصل الثامن عشر

الكُندورُ الأزرقُ[1]

4. (*) كُنْدور: نَسْر أميركي كبير.

في بهوِ فندقِ هولیداي ـ إن، كان سمير شكوت، المديرُ العامُّ لشركةِ خُرطال للطّيران، يجلسُ على أحد المقاعدِ الصّغيرةِ، ليسَ بعيداً عن المصاعدِ الكهربائيّة. كان مُكبًّا على قراءةِ مقالٍ كبيرٍ في الصّفحاتِ الوسطى لصحيفةِ «الباريسي» Le Parisien . يتحدّثُ المقالُ بشيءٍ من التّملّقِ عن الظروفِ الطّارئةِ على هولدينغ خُرطال وعلى الاضطرابات الّتي تجتازُها إثرَ حادثِ مطارِ هوّاري بومدين في مدينةِ الجزائرِ في 24 فبراير/شباط 2003. فجأة قاطعتْهُ إحدى مُعاوناتِهِ:

ـ «سيّدي المدير العام،الأمرُ على ما يرام! حصلَ كلُّ الصحافيين على غرفهم». قالتْ له السّيّدةُ الشّابّةُ.

كانتْ بعيدةً آلافَ الأميالِ عن همومِ رئيسِها في هذه اللّحظاتِ. اكتفى سمير شكوت بابتسامةٍ خفيفةٍ وعادَ يتابعُ القراءةَ مضطربَ الفكر. كانتْ منيرة قد لاحظتِ التّبدُّلُ المفاجئ في تصرّفاتِ مديرها العام منذ الصّباحِ، وهذا ما أربكها. فظلّتْ للحظةٍ واقفةً أمامَهُ حائرة تتساءلُ.

ـ «ماذا جرى له؟ هذا ليسَ من عاداتهِ. كان في أفضلِ حالٍ قبلَ هذا الصّباح. لم يتوقّفْ طوالَ رحلةِ السّفرِ عن إظهارِ اللّطفِ والتّرحابِ بكلِّ الصحافيّينَ والمدعوّينَ الّذين جاءوا معنا. حتّى أنّهُ روى لي نكاتًا محورها محمد لقرع مسؤول الاتّصالِ في الهولدينغ منتقدًا هياجَهُ وحركتَهُ الدّائمة، فيما كان يوزّعُ المغلّفاتِ البيض الّتي تحتوي على مصروفَ الجيبِ لكلِّ صحافيّ ومصوّرٍ ومندوبٍ ممن دعوناهم لهذه الجولةِ الإعلاميّةِ حولَ قناةِ التّلفزيونِ والشّركةِ الجديدة في ألمانيا».

لاحظتْ أنّ المديرَ العامَّ لشركةِ الطّيرانِ لا يرفعُ رأسَهُ ولا يزالُ غارقاً في القراءة، فعادتْ أدراجَها إلى الصّالونِ المخصّصِ للشّخصياتِ المرموقةِ VIP حيثُ يثرثرُ بعضُ الصحافيّين مع بعضِ موظّفي الهولدينغ المنوط بهم الإشراف على هذه المهمّة. معظمُ أعضاءِ الوفدِ كانوا منهمكينَ بالحصولِ على هذهِ

الغرفِ الفخمةِ الّتي تبلُغُ تكلفةُ اللّيلةِ الواحدةُ فيها 200 يورو على نفقةِ خُرطال ارواريز طبعاً.

انحنى سمير شكوت أكثرَ كي يركّزَ انتباهَهُ جيّداً على القراءة. كانتْ صحيفةُ «الباريسي» تذكُرُ بتعليقٍ طويلٍ:

«حملَ رياض خُرطال، ابنُ العربيّ، إلى الشّركةِ مبلغاً نقدياً مقداره عشرة ملايينَ يورو يعادلُ القيمةَ الاِسميّةَ لمئةِ ألفِ سهمٍ، قيمةُ كلِّ سهمٍ منها مئةُ يورو. سُدّدتْ خمسةُ ملايين يورو منها أثناءَ الاكتتابِ. وهذا المبلغُ يمعادلُ 50% من الرأسمالِ الرّسميّ المُسدّدِ أثناءَ الاكتتابِ وقد أُودع في حسابٍ مفتوحٍ في البنك العالميّ العربي BIA . إن اللّجوء إلى خدماتِ هذا المصرفِ يسمحُ بِتجنُّبِ أيّ استفسارٍ عن مصادرِ هذهِ الأموال».

يتابعُ مُعَلِّقُ الصّحيفةِ في تتمّةِ الخبرِ: «لقد مضى وقتٌ طويلٌ على وقوف رياض خُرطال في حياءٍ أمامَ كاميراتِ الصّحافيّينَ يخلّدُ مناسبةَ توقيعِهِ عقدَ الرّاعي الأوّلِ لفريقِ كرةِ القدم «أولامبيك مارسيليا». دفعَ رياض خُرطال حينذاك للفريقِ الرّياضيّ 90 مليون يورو لمدّةِ خمس سنواتٍ.

في 15 يونيو/حزيران 2001، سجّلَ رياض خُرطال، على نحو مدوٍّ، أوّلَ انجازٍ له في فرنسا وأوّلَ ضربة. كان هناك مشاريعُ كثيرةٌ تملأ رأسَ هذا الجزائريّ الّذي يبدو أنّ لا شيءَ يمكنُهُ أن يقفَ في طريقِهِ. كان تطوُّر هولدينغ خُرطال يبدو متنامياً باستمرار، في حين يُصِرُّ معظمُ المحلّلينَ مع ذلكَ على استحالةِ جني أرباحٍ بهذا الشّكلِ عن طريقِ فروعِ الهولدينغ وحدَها.

فبعدَ شركةِ الطّيرانِ والمصرفِ وشركةِ السّيّاراتِ وغيرها، انطلقَ خُرطال أخيراً في الإعمارِ من خلالِ عمليّةِ الشّراءِ الواعدةِ جدّاً للفرعِ الدُوليّ لعملاقِ البناءِ والتّعميرِ الألمانيّ « PTB هولزمن».

أصيبَ رياض خُرطال بجنونِ العظمةِ فخطّطَ لإنشاءِ مدينتهِ الخاصّةِ الّتي أعطاها اسم «آلجيريا». وهو مشروعٌ فرعوني. مدينةٌ جديدةٌ يمكنِهُ أن يُنشئ فيها أهَمَّ مطارٍ في القارّةِ الإفريقيّةِ.

تناولَ سمير شكوت من محفظتهِ علبةً من الخشبِ الصّدفيّ. أشعلَ سيجارًا كوبيًّا طويلاً، سحبَ بضعة أنفاسٍ متتاليةٍ من الدُّخانِ، ثمّ وضعَ السِّيجارَ في

منفضةٍ كبيرةٍ من الزُّجاجِ. اقشعرَّ قليلاً وهو يقرأ هذا التَّعليقَ الآخرَ:

«يُدارُ هذا الهولدينغ بطريقةٍ غيرِ عقلانيةٍ تماماً، مع موافقةٍ ضمنيّةٍ للسّلطاتِ الجزائريّةِ والفرنسيّةِ معًا.

وعندما نُمعنُ النّظرَ في الإدارةِ الهزليّةِ لقنواتِه التّلفزيونيّةِ الّتي تبثُّ عبرَ الـ TPS نفهمُ الاِضطرابَ والهزّاتِ الّتي يعيشُها الهولدينغ. مُتملِّقو الأمسِ أو أعداءُ الماضي الصّامتونَ يريدونَ الآن أن يتكلّموا. من خلالِ سياقِ الأحاديثِ ارتسمتْ لوحةٌ لإحدى أكبر حالاتِ الفوضى الّتي عرفتْها الجزائرُ. القصّةُ كانت قد بدأت في أفضل الظروف المؤاتية: كان للرّجلِ دائرةُ معارف من الجنرالات وأربابِ العملِ والمسؤولينَ الجزائريينَ الّذين يعتبرُهم عرّابينَ لهُ: فشقيقُ «مانيتو الأكبر» كان محامي الهولدينغ، وابن الجنرال «بورجي» رئيسُ المؤسّسةِ الكبرى، وهو مصممُ الموقعَ الإلكتروني للهولدينغ، تقاضى مقابلَ خدمتِهِ هذه مبلغاً زهيداً لا يتجاوزُ الخمسةَ مليارِ سنتيمٍ! وابنُ شقيقِ الجنرال «بيسكري» عُيِّنَ معلوماتيّاً في أحد فروعِ الهولدينغ. فضلاً عن ابنةِ وزيرٍ صاحبِ نفوذٍ كبيرٍ في السّراي. دونَ أن نَذكُرَ أيضاً جميعَ ذريّةِ أصحابِ الجاهِ الّذين توظّفوا بأعدادٍ كبيرةٍ تلبيةً لضرورات هذه الحالاتِ السّياسيّة.

وروت الصحيفةُ أيضاً مختلفَ مراحلِ إنشاءِ القناةِ التلفزيونيّةِ الأساسيّةِ وإطلاقِها بضجةٍ كبيرةٍ. ثمّ أضافَ التّعليقُ الطّويلُ الّذي يحدّدُ فيهِ الصّحافيّ: «AB» .

غني عن التأكيد أنّ الترتيباتِ الّتي استعملَها رياض خُرطال لتأسيس قناةٍ ...» تلفزيونيّةٍ تعدّ شرعيّةً في مجملِها؛ لكنّها مع ذلك، توحي أنّ لدى هذا المستثمرَ الخارجَ عن كلِّ الحدودِ، شيئاً ما يُخفيهِ. في الواقعِ، عندَ إنشاءِ «لا سارل خُرطال تي. في» الأولى، كانَ كلُّ ما قامَ بهِ فيسي سونكريس هو إعارةُ اسمِهِ لِلملياردير الجزائريّ فحسب. وهذهِ خدمةٌ دُفِعَ ثمنُها بسخاءٍ تماماً كما هو الحالُ مع الدّورِ الّذي اضطلعت به جوويل فليشا، الشّريكةُ التّنفيذيّةُ المعيّنةُ لشركةِ لا سارل خُرطال تي. في، والّتي أصبح عنوانُ منزلِها مقرّاً رسميّاً للشّركة الواجهة».

تنهّدَ سمير شكوت بعمقٍ، تاركاً الصّحيفة تسقُطُ مفتوحةً على الطّاولةِ الصّغيرةِ ونهضَ فجأةً عند رؤيةِ البيغ بوس يتّجهُ نحوَهُ محاطاً بشخصينِ مألوفين. تبادلَ العناقَ مع الثلاثيّ ثم جلس بجانبِ رياض.

ـ «أرأيتَ يا رياض ما كتبتهُ هذه الممسحة؟» قال له وهو يشيرُ بإبهامهِ إلى العنوانِ العريضِ على الصّفحةِ المركزيّةِ للجريدةِ.

ـ «لننشرْ تكذيباً، أيّها الرّئيس، هكذا ننزعَ عنهم سراويلَهم الدّاخليّة؟» قال محمد لقرع متسرّعاً.

ـ «باه! لا تهتمْ، سام، هؤلاءِ الخنازيرُ الفرنسيّةُ يريدونَ رأسَنا. لن يقبلوا أن نهزأ بهم بِمالِنا وبِحنكتِنا. إنّهم حاسدونَ وعنصريونَ لا يتحمّلونَ رؤيةَ جزائريٍّ ينجح». قال رياض دونَ أن يعيرَ أيّ اهتمامٍ للتّوتُّرِ الظّاهرِ على محمد لقرع، مسؤولِ الإعلامِ لدَيه.

ارتسمت ابتسامةٌ عريضةٌ على شفتيه تدلُّ على حماسته وعلى ثباتٍ مُخادعٍ. تبادلَ نظرةً خاطفةً مع بوب ماك غوير ومحمد لقرع ثمّ قالَ بعظمةٍ:

«ـ «المهمّ، هل جميعُ ضيوفِنا الصّحافيينَ هنا؟

ثمّ أضافَ قبلَ أن يتمكّنَ المديرُ العامُّ لشركةِ الطّيرانِ من الإجابةِ:

ـ «[بحبحهوم] اهتموا بهم جيّداً، وفي حفلِ المساءِ في «بيغل» سترى كيفَ سنقهرُ الّذين يريدونَ لنا السّوءَ. ستُقْفَلُ أفواهٌ بالطّريقةِ العظيمةِ نفسها الّتي يتمُّ بها إخراسُ أفواهِ هؤلاءِ الّذين يستغلّونَ مصائبَ الآخرين».

ثمّ أتبع القولَ بالفعلِ دافِعًا الصحيفةَ بعنفٍ بقفا يدِهِ. سكتَ لحظةً، ثمَّ أضافَ فاقداً السّيطرةَ على نفسِهِ:

ـ«سيرونَ، في هذا المساءِ سنُسقطُ رمزَ عزّتهم بين أيدينا. ستتزينُ طائراتُ سربِ الاستعراضِ للدِّفاعِ الجويّ الفرنسيّ بنسرِنا الكبيرِ الأزرق، وعلى غرارِ مفخرتِهم الرّياضيّة فريقِ أولامبيك مارسيليا، سيُكتبُ اسمُ خُرطال على جوانبِ طائراتِ السِّربِ. سأشتري كرامتَهم إنْ لَزِمَ الأمرُ. بإمكانهم أن ينبحوا قدرَ ما يستطيعونَ كالكِلابِ، لا شيءَ يوقِفُنا. الحمدُ للهِ! لدينا بعضُ الأصدقاءِ بينَهم وليسوا من صِغارِ الشّأن».

وضعَ رياض كأسَهُ على الطّاولةِ ونهضَ ليدنوَ من خالتِهِ جوهر جزائري التي أصبحتْ مديرةَ القناةِ منذُ توقيفِ جمال غرماط، كانت برفقةِ منيرة وجوويل فليشا. قبّلَ خالته ودعاها إلى الجلوسِ بينَهُ وبينَ سمير. شَدّتْ على أيدي رفاقها وقبلَ أن تجلسَ التفتتْ نحوَ سمير قائلةً:

ـ «متى موعد الانطلاق؟»

ـ «بعدَ قليلٍ، أعتقد». تبادلَ نظرةً خاطفةً مع مساعدتِهِ ومع رياض..

ـ «كلّمتُ للتّوِ مطارَ بورجيه، «الغرومان» جاهز. بقي أمامَنا تهيئةُ الممرِّ الّذي سيُمنحُ لنا»، أكّدتْ منيرة، ضاحكة.

ـ «إذن فلننطلق إلى المطار، هكذا نتناولُ الغداءَ في «بيغل». على كلٍّ حال، جيرار على علمٍ، أليسَ كذلك، بوب؟»

ـ «نعم. إنّهُ على علم». أجابَ الرّجلُ الّذي يديرُ كلّ شؤونِهِ اليوميّة..

ـ «علينا أن ننبّهَ هؤلاءِ السّادةَ كي يسرعوا قليلاً». أمرَ رياض محمد لقرع مشيراً بإصبعِهِ نحوَ سقفِ البهوِ أي إلى غرفِ ضيوفِهم.

ـ «أعتقدُ أنّهُ لا يزالُ لدينا متسعٌ من الوقتِ، سنغادرُ نحوَ السّاعةِ الحادية عشرة. لن يكونَ لنا هدوء التّحليقِ قبلَ ساعتينِ من الزّمنِ على الأقلِّ. دعوهم يرتاحونَ قليلاً، ثم ادعوهم إلى النّزولِ بعدَ ساعةٍ. الميني باص والسيّاراتُ هنا. أجاب سمير.

انسحبتْ مضيفةُ خُرطال أيروايز مع مسؤولِ الاعلام في الهولدينغ واتّجها نحوَ الصّالونِ المقابلِ حيثُ جلسَ صحافيّون فيما يتسكّعُ المصوّرون موشّحين بآلاتِ التّصويرِ قربَ مدخلِ بهو الفندقِ.

انضمّ إليهم محمد لقرع بسرعةٍ ودعاهم إلى الجلوسِ مع الصّحافيين في الصّالون. أخبرهُم باقترابِ موعدِ المغادرة. أحدُهم، كان آسفًا لعدمِ مقدرتِهِ على الخروجِ من الفندقِ فحاولَ إقناعَ محمد لقرع بالسّماحِ لهُ بالذّهابِ من أجل شراءِ سجائرَ وصحيفة.

وضعَ مسؤولُ الإعلام يدَهُ على الكتفينِ الهزيلتين لهذا المصورِ الشّابِّ ورافقَهُ إلى متجرِ البيعِ في الفندقِ. أمامَ زاويةِ بيعِ التّبغِ أسرع لقرع وتناولَ صحيفةَ «لوموند» ومجلة «باري ماتش».

تنزلقُ بعنايةٍ بالاتجاهِ الأفقيّ VSD وبحركةٍ سريعةٍ جعلَ المجلةَ الأسبوعيّة «الباريسي» كدستِ من النّسخةَ الأولى الّذي يتصدّرُ العنوانِ لإخفاءِ.

لَوّحَ بيدِهِ اليُسرى بورقةِ الخمسين يورو وسلّمها إلى المسؤولة عن البيعِ الّتي تقفُ خلفَ الكونتوار، وسلّم بيدِهِ اليمنى الصّحيفتين إلى الصحافي قبلَ أن يسألَهُ:

ـ«أتدخّنُ سجائرَ الغولواز أم الماربورو؟»

ـ«غولواز بلوند، لو سمحت» أجابَهُ المصوّرُ وهو يسرعُ للإمساكِ بالصّحيفتين.

الفصل التّاسع عشر

غسّالة البياضات

بعدَ نصفِ ساعةٍ، في مكانٍ غيرِ بعيدٍ من هنا، نظرَ محمود إلى ساعتِهِ الكوارتز، نهضَ، ثنى صحيفةَ الباريسيّ، وضعَها تحتَ إبطِهِ، دسّ يدَهُ اليمنى في جيبِ سروالِهِ. أخرجَ بضعَ قطعٍ نقديّةٍ وأسقطَ منها على الكونتوار قطعتين؛ واحدة من فئة يورو واحد والأخرى من فئة أوروبين.عندما وضعَ النّادلُ الصّحنَ الصّغيرَ الّذي يحتوي على بقيّة الثلاثة يورو، التقطَ محمود النقودَ واتّجهَ مسرعًا نحو الباب. دغدغ هواءُ الصّباحِ المنعش مِنخريهِ. فركَ طرفَ أنفِهِ ثمّ أخذَ نَفَساً عميقاً. عبرَ الشَارعَ العامر بالحركةِ وبدأ ينزلُ درجاتِ مدخلِ المترو ببطءٍ، ثمّ تابع النزول درجتينِ درجتينِ عندما سمعَ الإشارةَ الصّوتيّة لعربةِ المترو. إلاّ أنّه لم يستطعِ اللّحاقَ بها. جلسَ على مقعدٍ على الرصيفِ منتظراً العربة التّالية الّتي لمْ تتأخّرْ بالظُّهورِ من النّفقِ مصحوبةً بصخبٍ كبيرٍ وبموجةٍ من الهواءِ السّاخنِ.

هبَّ محمود ووقفَ أمامَ أحدِ الأبوابِ الآليّة. عندما توقّفتِ العربةُ، أدارَ القبضةَ الفولاذيّةَ الصّغيرةَ المطليّةَ بالكروم، فُتِحَ البابُ، صعد وجلسَ على مقعدٍ في الاتّجاهِ المعاكسِ لوجهةِ المترو. أثناءَ انطلاقِ القطارِ متابِعاً طريقهُ، استندتِ امرأةٌ عجوزٌ إلى أحد قضبانِ العربةِ الأفقيّةِ ثمّ مكثتْ على بُعدِ خمسينَ سنتيمتراً منه، مقابلَ ثنائيّ متعانقينَ على المقعدينِ المقابلينِ. شدّ محمود بخفّةٍ على ذيلِ معطفِ السّيّدة العجوزِ، وقفَ ودعاها إلى الجلوس. ارتسمتِ ابتسامةٌ على شفتيها النحيلتين والجافّتين.

ـ «أوه! شكراً، أيّها السّيد». قالتْ لهُ وهي تهوي بكلّ ثقلها على المقعد..

10 نزلَ محمود في محطّةِ سانتـجيرمان. من هناكَ استقلّ قطارَ الخطِّ المتّجه إلى بولونْ، نزلَ في محطّةِ بورت دوتاي. لدى خروجهِ من المترو، دارَ حولَ لوحةِ إعلانِ المحطّةِ المقابلة لمواقفِ الباصاتِ، سارَ بجانبِ سياجِ ميدانِ الخيلِ وعندَ أوّلِ إشارةٍ حمراءَ عند شارعِ ميرا، عبرَ التقاطع. استقلّ الباصَ PC1 ، نزلَ في محطّةِ بورت شامبيرّيه، استقلّ المترو مجدّداً لينزلَ بعدَ أربعِ

محطّاتٍ، عند بدايةِ شارعِ دي فيليه في الدّائرةِ السّابعةَ عشرة. بعدَ أقلِّ من دقيقةٍ وصلَ إلى حديقةِ مونسو المجاورةِ للمتحفِ الّذي يحملُ الاسم نفسه. ألقى نظرةً على ساعةِ يدِهِ وهو يجتازُ سياجَ الميدان: العاشرةُ وعشْرُ دقائق. لاحظَ بارتياحٍ أنّه وصلَ قبلَ الموعدِ بخمسِ دقائق. عندَ طرفِ المرجةِ الواسعة، تفحّصَ المكانَ وما جاورَهُ قبلَ أن يجلسَ على مقعدٍ من الحجرِ، فتحَ الصّحيفةَ، أغرقَ نظرَهُ في أعمِدَةِ الصّفحاتِ المركزيّةِ لصحيفةِ «الباريسي».

عندما تبيّنَ فرانسوا لا تريف في بدلتِهِ الأنيقة لدى مدخلِ الحديقة، نهض ببطءٍ، ثنى الصّحيفةَ بعنايةٍ وتوجّهَ للقائهِ. لم يتمكنْ فرانسوا الّذي يعلو الابتسامُ شفتيهِ أن يمنعَ نفسَهُ من إظهار إعجابِهِ بمشيةِ الكولونيل الجزائريّ الرّياضيّة:

ـ «محمود المُبَجّلُ! دائماً كما هو. لا يخْفِضُ مستوى التّأهّبِ أبداً ولا يتحمّلُ أيَّ لقاءِ عملٍ في الأماكنِ المُغلقة».

كان الرَّجُلانِ على معرفةٍ قديمةٍ فرضَها عملُهما في الميدانِ نفسه على مدى سنواتٍ طويلةٍ في بيروتَ. كان فرانسوا لا تريف يقدّرُ في كلِّ مرّةٍ وبإعجابٍ المساعداتِ العمليّة الّتي كان يقدِّمُها محمود وفريقُهُ في كلِّ مرّةٍ يلجأون إليهم للتفاوضِ أو للتّدخُّلِ لإطلاق سراحِ أسرى غربيّينَ، خاصّةً النّوابَ والصّحافيّينَ الفرنسيّينَ الّذين وقعوا في فخِّ الأسرِ في هذا البلدِ في عزِّ الحربِ. تصافحَ الرَّجلانِ بحرارةٍ:

ـ «هاه، أيّها الصّديقُ؟ كيفَ الحالُ؟» سألَهُ فرانسوا مبتسماً ابتسامةً عريضةً..

ـ «لا نشتكي، وأنتَ، سيناتور؟ كيفَ صحّتِكَ؟ بخيرٍ؟» قال محمود..

ـ «نعم، بخيرٍ. إنّهُ نهارٌ رائعٌ. تعالَ نمشي قليلاً». قال السّيناتور الفرنسيُّ بهدوءٍ. وصلتَ بالأمسِ، أليسَ كذلك؟»

ـ «بعدَ الظّهر». أجابَهُ محمود..

ثمّ رفعَ الصّحيفةَ قبالة فرانسوا:

ـ«هؤلاءِ كالجارفاتِ لم يتأثّوا في شيءٍ؟»

أنتَ تعلمُ، الكثيرونَ مقتنعونَ هنا بأنّ كلامَ صديقِنا نويل الأخضرَ[25] ليسَ عرَضيًّا أو مجرّدَ كلامٍ في الهواء». أعلنَ فرانسوا بهدوءٍ.

ـ «أعتقدُ أنّهُ كان هناكَ بعضُ المبالغةِ عندما تحدّثَ عن الغسّالةِ الكبيرةِ حيث التبييضُ الآليُّ». أجابَ محمود مبتسماً.

ـ «آه حسناً! أعتقدُ بالأحرى أنّ ما لديكَ هنا في صحيفةِ الباريسيّ ليسَ سوى طلقةِ إنذار». اعترضَ فرانسوا بهدوءٍ.

ـ «مع ذلكَ تَعتبرُ خالةُ خُرطال أنّ الافتراءاتِ الّتي تتهمهم بالتبييضِ لا أساسَ فريقِ عملِ التحريّاتِ GAFI لها. وتحتجُّ على ذلك بأنّ الجزائرَ ليستْ على لائحةِ الماليّةِ وتبييضِ الأموالِ. بالنّسبة إليها، إنّ هولدينغ خُرطال تتمتّعُ بدعمٍ كبيرٍ من أعضاءٍ حركة المؤسسات المهنية في فرنسا (Medef) . لا ننسى أنّ شبكتَهُ التلفزيونيّةَ كانتْ قد بدأتْ تبثُّ بدرجةٍ كبيرةٍ في 3 سبتمبر/أيلول الأخير دونَ ودونِ دعمِ CSA إذنٍ ولا رخصةٍ من المجلسِ الأعلى للإعلام السّمعيّ والبصريّ بعضِ الدوائرِ لدينا، لم تكنْ شركةُ الطّيرانِ لتحصلَ البتة العامَ الماضي على تراخيص الطّيرانِ انطلاقاً من بعضِ مدنِ فرنسا في وقتٍ قصيرٍ وعلى هذا النحو. ألم يعلنْ وزيرُ النّقلِ في بلدِكم في ذلك الوقتِ بشأن هذا الأمرِ أنّ التّنقلاتِ الجويّة لا تُشترى، ولكنّ مصلحة الفريقينِ أن يتفاهما؟»»

ـ «فضلاً عن ذلكَ فهو شيوعيّ!» قال فرانسوا». من جهةٍ أخرى، في ذلك الوقتِ، كان الكثيرُ من النّاسِ يعتقدونَ أنّ هذهِ الخدماتِ الّتي تُقَدّمُ لخُرطال تقتضي القطعةَ الأولى من أجلِ إعادةِ غرسِ الاقتصادِ الفرنسيّ في الجزائر. أقولُ هذا لأعودَ إلى التصريح الذي أدلت به خالةُ المليارديرِ، أستطيعُ أن أؤكّدَ لكَ أنّ المُفَوّضيّة المصرفيّة رفضتْ بالفعلِ طلبَ إنشاءِ مصرفٍ في فرنسا، بحجة أنّ مصدرَ الأموالِ مشتبهٌ فيه.

ـ «نعم، ولكنّ الفرعَ الفرنسيّ لمصرفِ خُرطال يتمتّعُ بالحريّة نفسِها التي يتمتّع بها أيُّ مصرفٍ عادي».

ـ «لا يا صديقي، قد سبقَ للولاياتِ المتّحدةِ أن أكّدتْ طمعها في الاستحواذِ على نفطكم».

ـ «هذا ما يدعني أعتقدُ أنّ مواطنيكَ حاصروا هذه الشخصيّة جيّداً. إنّهم يعلمون أنّ الغولدن بوي يعرفُ كيف يظهرُ سخيًّا معهم في الوقتِ المناسب».

ـ «حسناً، نعلمُ أنّ هذا الفهد، أعلنَ عندما كان العالمُ في عزّ أزمةِ الحادي عشرَ من سبتمبر/أيلول، أنّهُ مرّر طلبيّةً بثماني عشْرةَ طائرة أيرباص قيمتها مليار ونصف المليار يورو. وهذا ما اعتُبِرَ إشارةٍ قويّةٍ من جهتهِ نحو فرنسا. فالرِّهانُ كبير إذاً، يا صديقي...»

ـ «هذا مؤكّدٌ إذا أخذنا في الاعتبارِ أنّ مجملَ الشّركاتِ الإفريقيّةَ، على الأقلّ أهمّها، تتزوّدُ منْ عندِ البوينغ، المزاحمِ للاتّحادِ الفرنسيّ الأوروبي». اعترضَ محمود.

ـ «قيلَ لي إنّهُ يوظّفُ أكثرَ من16, 000 شخصاً في مؤسّساتهِ المختلفةِ، وإنّهُ سنويّاً يحققُ أرباحاً مقدارُها مليار واحد. يبدو أنّهُ حقّق في العام 2000 أرباحاً مقدارُها 200 مليون دولار. من جهةٍ أخرى، هذه نتيجةٌ مشكوكٌ فيها، وفقَ معلوماتنا.

ـ «هذا لا يمنعُ أنّ المالَ لا يزالُ يسيلُ بغزارة!»

ـ«هنا في فرنسا يراقبونَ عن قربٍ هذه الأموالَ. لن أخفي عليك، يا صديقي، أنّنا نعتقدُ أنّه مالُ السّعوديين، وربما تبييضُ أموالِ العسكريّين، كي نبقى في منطقِ صديقِنا الأخضر. حتّى إنّ بعضهم يظنُّ أنّهُ مالُ المخدّرات!»

ـ «بوه! من المعمولِ بهِ ضمنَ تقاليدِ ديمقراطيّتكم التودُّدُ لأصحابِ الأموالِ من أجلِ تمويلِ الحملاتِ الانتخابيةِ مقابلَ شروطٍ معيّنةٍ». أكّد محمود بجفاف.

ـ «بشرطِ أن يكونَ مصدر هذهِ الأموالِ مقبولاً، كما قلتَ أنتَ، أن يكونَ خاضعاً لقوانينَ الشّرعيّة. وهذه ليسَتْ حالةُ ملكِ المالِ هذا. برغم أنّه بدا مثالاً حتّى للنّجاح الاجتماعي ـ الاقتصاديّ بالنّسبةِ إلى آلاف الشبّانِ عندكم، وإلى الدُّمى على رأسِ شركةٍ هي غطاءٌ لشركاتٍ أخرى. هو في رأيي رمزٌ للخفّةِ الرّهيبةِ الّتي تميّزُ إدارةَ أمورِالبلادِ».

ـ «أعتقدُ أنّهُ من هذهِ النّاحيةِ أيضاً، هناكَ الكثيرُ ممّا يُقالُ عن التّصرُّفاتِ المتّبعةِ تجاهَهُ. لقد سمحتْ لنا تحريّاتُنا بالملاحظةِ أنّهُ لم يسبقْ لهولدينغ خُرطال أن كانتْ من قبلُ في حالٍ أفضلَ مما هي عليهِ في العامينِ الأخيرينِ. أنتَ توافقُني الرأيَ على أنه نجحَ عن جدارةٍ وفي وقت وجيز، في الدّخولِ بقوّةٍ في السّوقِ الفرنسية وفي أسواقٍ أوروبيّةٍ مهمّة».

ـ «وخاصة نجاحهُ في سحبِ البساطِ من تحتِ أرجلِ النّظامِ الجزائريّ وكسره احتكار الدّولةِ مراقبة الإعلامِ السمعيّ والبصريّ، عبرَ إنشائهِ قناتينِ تلفزيونيّتينِ..» قال فرانسوا لا تريف بشيءٍ من السّخريةِ.

«...ـ «تماماً ولكن

ـ «على كلٍّ حالٍ، الكولونيل كورتكويس سيتّصلُ بك. طلبنا منه مساعدتك في مهمّتك. سيدلُّكَ أيضاً من أين تحصلُ على الوثائقِ الّتي تريدُها».

ـ «سأكونُ في فندقِ نيكو بجوارِ برج إيفل ابتداءً من السّاعةِ الخامسةِ مساءً». قال محمود.

ـ «ولكنكم في الضّفّةِ الأخرى عليكم القيام بما يجبُ وبما هو ضروريّ. نحن لن نقبلَ بعضَ التّجاوزاتِ، خاصّةً أننا في هذه الجهةِ من البحرِ الأبيضِ المتوسّطِ، نعتقد أنّ المالَ المتيسِّرِ لهذهِ المؤسّسةِ يُستخدمُ لتمويلِ نشاطاتٍ إرهابيّة. نحن مقتنعونَ بحكمةِ أصدقائنا الجزائريّينَ. ونعتقدُ أنّ هذا الوقتُ ملائم كي تواجهوا هذه التلاعباتِ. يجبُ تنظيفُ وترتيب الأمورِ عندكم، يا صديقي!» قال فرانسوا.

ـ «أعتقدُ أنّ العدالةَ ستهتمُّ عن كثبٍ بهذه المسألةِ في وقتٍ قصيرٍ». أجاب محمود.

ـ «تنظُرُ بعضُ الأوساطِ المتنفّذة جدّاً عندنا بعينِ السّوء إلى تغيُّر الأمورِ مع شرِّ وحشِ المياهِ الموحلةِ هذا. لقد بدأ حقاً بإحداثِ التّصدّعَ والارتباكِ في ثم إطلاقُ شبكةِ ، OM ميادينَ مختلفة. في البدايةِ شراؤه أولامبيك مارسيليا التلفزيونِ دونَ رخصةِ المجلسِ الأعلى للإعلامِ السّمعيّ والبصريّ، وفي نهايةِ المطافِ استئجارُ سريّة الطّيرانِ الفرنسيّ لخدماتٍ إعلانيّةٍ هذا المساء في بيغل. أصبحَ هذا تدخُّلاً سافراً في شؤوننا الدّاخليّةِ يا صديقي ومساساً صريحاً بسيادتنا».

تابعَ محمود كلامَ السّيناتور باهتمام. هو يعلمُ أنّ هذا الأخيرَ يُحافظُ على مسافةٍ صغيرةٍ بين واجباتِهِ أمامَ مؤسّستِهِ واستقامتِهِ العقلانيّةِ. بفضلِ زياراتِهِ العديدةِ إلى إفريقيا الشّماليّةِ وبفضلِ أصدقائهِ الّذين لا يُحْصى عددُهم ويعتمدُ عليهم في تلكَ البلادِ، عيّنته المؤسّسةِ لتوطيدِ علاقاتِ تبادلِ الخدماتِ في إطارِ

التّبادلِ بين حكوماتِ جانبَي البحرِ الأبيض المتوسط. محمود مرتاحٌ جدّاً في علاقاته مع نظرائِهِ في الأجهزةِ الأخرى. يمتازُ بذكاءٍ كبيرٍ وبحسٍّ تحليليٍّ ثاقب، جعله يحافظُ دائماً على حاجزٍ لا يمكنُ عبورُهُ بينه وبين محدّثيهِ، مُظْهراً في الوقتِ نفسهِ حضوره التامّ بتصرُّف الشّخصِ الواقف أمامَهُ.

أثار فرانسوا مسألةَ تعقيداتِ الخُرطال مع الوكالةِ الأوروبيّةِ لصناعةِ المركباتِ الفضائيّة خلالَ المفاوضاتِ من أجلِ شراءِ عشْرِ طائرات أيرباص، ثمّ بدّلَ ملكُ المالِ رأيَهُ على نحو غيرِ متوقّع عندما وقّعَ عقدَ شراءِ اثنتي عشْرة طائرةٍ من البوينغ. لم يسامح الفرنسيّون البتة الملياردير على خياراتهِ التّجاريّة.

ـ «ثمّ ما هي قصّةُ تأمينِ خطِّ جوهانسبورغ؟ وتأمينِ هذا الخطِّ بخسارةٍ تامّة؟» قال فرانسوا بشيءٍ من التّوتُّر. سكتَ قليلاً، التفتَ فجأةً وحدّقَ في محمود لحظةً وكأنّهُ يحاولُ قراءةَ أفكارِ عقيدِ دائرةِ التّحريّ والأمنِ (DIS) ، قبل أن يضيفَ:

ـ«في ما يتعلق بنا، تركناهُ يأتي، لأنّنا لم نكنْ نريدُ التّدخّلَ احتراماً للعلاقاتِ الثنائيّةِ بين البلدينِ والحكومتينِ. على العكسِ، بإمكاننا تأمينُ تغطيةٍ ضروريّةٍ لما ستقومونَ به. عليكم أنتم أن تتصرّفوا بسرعةٍ. أليسَ هناكَ مصالحُ كثيرة رهناً بذلك؟»

ارتسمتْ على شفتَي فرانسوا الرّقيقتينِ ابتسامةٌ ساخرةٌ. لم يقمْ محمود بأيّةِ حركةٍ، شَغَلَتْهُ فجأةً آراءُ مُحدِّثِهِ. سيحاولُ على الفورِ أن يستحصِلَ من على أكبر مقدارٍ ممكنٍ من DST العقيدِ في مديريّةِ الدِّفاعِ عن الإقليمِ المعلوماتِ. كان يعلمُ أنّ فرانسوا لم يقلْ له كلَّ شيءٍ عن خط الجزائر ـ جوهانسبورغ، ولا عمن يمثّلُهُ بالنّسبةِ إلى فرنسا، مع أنّهُ على وشكِ استخْلاصِ مذكّرةٍ بهذهِ العمليّةِ الغريبةِ الّتي يبدو أنّها تشكّلُ ازعاجًا كبيراً للمؤسّسةِ الفرنسيّةِ.

كان العقيدُ الطّيّبُ قد رسمَ لهُ لوحةً ومحورها ظروفُ وملابساتُ مشروعِ هذا الخطِّ حتّى قبلَ انطلاقِ الرحلةِ التدشينيّةِ الأولى لَهُ، التي دُعيَ إليها، مع الكثيرِ من الضبّاطِ والمعاونين في المؤسّسةِ، إضافة إلى الصّحافيين وممثّلي الصُّحفِ. لم يشغل محمود نفسه في ذلك الحينِ بهذهِ المسألةِ. كان قد طُلِبَ

إلى منصبٍ في الخارج وينتظرُ مرحلةَ نقلِ الموظّفين المتوقّعة في الصّيفِ التالي.

«كُلُّ شيءٍ صُمِّمَ على صورةِ غسَالةٍ كبيرةٍ تُعطي بياضاً أنصعَ، بماءٍ كثيرٍ وبقوّةٍ، إلاّ أنّ هذه تغسلُ بكلفةٍ أقل» هذا ما كان قد قالَهُ لَهُ الطيّبُ، ذات مرّةٍ في إجازة نهاية الأسبوع فيما كانا في طريقهما إلى الشّاطئ قاصدَينِ لامادراك لتناولِ غداءٍ ومشروبٍ إلى جانبِ زملاءَ قدامى.

ـ «كيف ذلك؟» سأله محمود حائراً.

ـ «الأمرُ... كيف أقولها؟ إنّها تنتجُ قيمةً مضافةً كبيرةً لا يمكنُ حصرُها، بفضلِ إيراداتٍ من العملاتِ الأجنبيّةِ تملأُ جيوبَ نجمِنا دونَ أن يعرفَ أحدٌ وجهتَها».

ـ «اعذرني، الطيّب، لم أتابعْ كلامك».

ـ «الجميعُ يتساءلونَ عن اختيارِ هذه الوجهةِ الّتي تعملُ بخسارةٍ فادحةٍ منذ النّظرةِ الأولى. صحيحٌ أنّ ركّابَ هذه الرحلاتِ المتّجهةِ إلى إفريقيا الجنوبيّة يُعَدّونَ على أصابعِ اليدِ الواحدةِ، مع أنّ تذكرةَ الجزائر ـ جوهانسبورغ عبرَ طيرانِ خُرطال تُباعُ بعُشْرِ التّعرفةِ الحقيقيّةِ. لا تنسَ أنّ تذكرةَ السّفرِ على متنِ أيّة شركةِ طيرانٍ لمسافةٍ مشابهة لهذه الرّحلةِ تكلّفُ أربعةَ آلافِ دولارٍ، أي أربعينَ مليون سنتيمٍ بالدّينار. شركةُ طيرانِ خُرطال تبيعُها بأربعةِ ملايين سنتيم. صحيحٌ أيضاً أن الطّيرانَ يكلِّفُ الشَركةَ 130 مليونًا من سنتيماتِ الديناراتِ أسبوعيّاً...

ـ «انتظرْ، انتظرْ، ما هذه البلبلة؟ أين تقعُ هذه المغسلة، هناك؟» قال محمود، وكلُّ حواسِهِ تنبّهتْ فجأةً.

ـ «نعم، سيّدي، تُباعُ الخمسُ أو الستُّ تذاكرَ بأربعينَ ألفَ دينارٍ للتّذكرةِ الواحدةِ. يعلنونَ أنّ الطائرةَ امتلأتْ، ويعلنونَ أن الإيراداتِ أربعمائة ألفِ دينارٍ من كلِّ تذكرةٍ مباعةٍ. لا بأسَ بإيرادٍ إجماليّ لرحلةٍ تبلغُ تسعمائةَ مليونِ سنتيمٍ بينما في الواقعِ كانتِ الخسارةُ تعادلُ 130 مليونَ سنتيمٍ.

ـ «يودَعُ في البنك مبلغُ التسعمائةِ مليونِ سنتيمٍ المسحوبُ من حساباتِ ادّخارٍ؛ تُدفعُ مختلفُ الضّرائبِ والالتزاماتِ عن هذهِ الإيراداتِ الوهميّةِ. وهكذا، يحصلونَ على مالٍ نظيفٍ مقداره 900 مليونِ سنتيمٍ في كلِّ رحلةٍ».

ـ «حسناً، وماذا عن الإيراداتِ بالعملةِ الأجنبيّة؟» سَألهُ محمود.

ـ «لقد قلتُ لكَ منذُ لحظةٍ، إنّ هذا الخطَّ يدرّ عملاتٍ صعبة. محطّةُ جزرِ القمرِ على هذا الخطّ رابحة مليوناً في المائة. لقد كانتْ منذُ مدّة طويلةٍ حكراً لشركةِ أيرفرانس. حركاتُ الهجرةِ السُّكّانيّةِ من جزرِ القمرِ نحوَ إفريقيا الجنوبيّةِ مهمّةٌ جدّاً. في الواقعِ إنّ وجهتَي رأس الرّجاءِ الصّالحِ وجوهانسبورغ هما المسلكانِ الوحيدانِ وبوابةُ الجزرِ الوحيدة على العالم.

فيجيءُ خُرطال بطائراتِهِ وضجيجهِ الكبيرِ ويكسرُ التعريفاتِ المتّبعة لدى أيرفرانس حتّى ذلك الحين. حتماً ستكونُ طائراتُهُ ممتلئةً في رحلاتِ الذّهابِ والإيابِ، فوجدتِ الشّركةُ الفرنسيّةُ نفسَها محرومةً من عائدٍ كبيرٍ. ولم تعدْ إيراداتُها ملحوظةً في حساباتِ الشّركةِ. محاسبة موازيةٌ تسمحُ بإمرار كلِّ هذهِ المكيدةِ بصمتٍ. ما زادَ الطّينَ بَلّةً هو أنّهُ ليسَ هناكَ أيُّ دليلٍ على عمليّاتِ التّزويرِ هذه».

ـ «وكيفَ لا يوجدُ أيّ دليلٍ؟ والتّذاكرُ الّتي تباعُ للمسافرينَ؟ لا يمكنُ الإشارةُ إلى قبضِ مبلغ 400, 000 دينارٍ فيما قُبضَ في الواقعِ40, 000 تحتَ عنوانِ مبيعات. وكيفَ يُبَرَّرُ امتِلاءُ الطائراتِ، بينما ليسَ هناك إلاّ عشرةُ ركّابٍ على الأكثر في أغلبِ الأحيانِ».

ـ «اسمعْ يا محمود، يا صديقي، الأدِلّةُ الوحيدةُ الممكنةُ لإرباكِ هذه التّجارةِ المشتبه فيها، هو أروماتُ تذاكرِ السّفرِ المباعةِ للمسافرينَ. قلْ لي مَنْ هو المسافرُ الّذي يفكّرُ في الاحتفاظِ بأرومةِ تذكرتِهِ بعد شهرينِ أو ثلاثةٍ من استعمالِها؟ ثم مَنْ هو القادرُ على تمييزِ المسافرينَ الوهميّينَ الّذين لا وجودَ لهم على هذا الخطِّ؟»

ـ «هذه حقاً دجاجةٌ تبيضُ ذهبًا. لقد وجدَ أصدقاؤك حقاً مَنْجَمَ ثراءٍ. وهذا لا يمنعني من الاعتقادِ بأنّ صديقك على شفا هاوية» قال محمود بكلّ اقتناع.

ـ «أوه، هنا أنا لا أوافقُكَ الرأيَ، يا صديقي». أجابَ الطّيّبُ بكلِّ ثقة.

ـ «وكيفَ ذلك؟ لا تقلْ لي أنّكَ أصبحتَ سريعَ التّصديقِ وساذجًا إلى هذه الدّرجةِ؟» قال محمود.

ـ «اسمعْ، صديقي العزيز؛ عندما نأتي بكاترين دوناف وبجيرار ديباردیو وعددٍ كبيرٍ من الشّخصياتِ المرموقةِ في باريسَ حتّى ملعبِ 5 يوليو/تموز من أجلِ مجرّدِ مباراةِ كرةِ قدمٍ ودّيّةٍ، وعندما نظهرُ للملأ إلى جانبِ مانيتو الأكبرِ شخصياً، أو عندما نضمنُ لأنفسِنا مجالسَ قضائيّةً وخدماتِ عددٍ كبيرٍ من المقرّبينَ من دائرةِ القرارِ، عندما نُموِّلُ إعدادَ مصنعٍ عالي التقنيةِ لصنع الأقراصِ المضغوطةِ من أجلِ ابنِ جنرالٍ صاحبِ نفوذٍ كبيرٍ، وعندما ندفعُ خمسةَ ملياراتٍ لابنِ مسؤولٍ كبيرٍ في مؤسّسةٍ أجرًا لمجرّدِ تصميم موقعٍ على شبكةِ الانترنت، أعتقدُ أنّنا نكونُ في منأىً عن كلّ اضطرابٍ وقلقٍ من أيِّ مكانٍ جاء...».

ـ «لستُ أدري إذا كنتَ تفعلُ ذلك عمدًا، يا الطّيّب، أم أنّكَ تعتبرنُي سيّئاً؟ فهذُكَ هذا، سيغرقُ قريبًا. هذا واضحٌ كالشّمسِ، كلُّ هذا الارتقاء السّريعِ عجائبيٌّ. لقد بدأتْ تنحلّ عُقدُ الألسنِ وتكبرُ الشّائعاتِ يوماً بعد يومٍ هنا وهناك. أعتقدُ أنّهُ سيبدأُ بالاِندثارِ بعدَ وقتٍ قصير». أكّد محمود جازمًا.

ـ «هل سمعتَ شيئاً أم أنّها تقديراتُك الشّخصيّةُ؟» سألهُ الطّيّبُ..

ـ «هي مجرّدُ تحليلِ رجلٍ بصير». أجابَ محمود، متهكّماً بخفاء..

ـ «حسناً، صدّقني، يا مومو، لستَ على صوابٍ...» أكّدَ الطّيّب..

ـ «قلْ كلاماً آخرَ!» قاطعه محمود..

ـ «أقولُ لكَ إنّك مخطئٌ هذه المرّة؟ بالإضافةِ إلى الكثيرِ من الدّعمِ الّذي يتمتّعُ به لدى الدّوائرِ العليا، لا تنسَ أنّ خُرطال خلقَ ستةَ عشرَ ألفِ وظيفةٍ. «هناك ستّةَ عشرَ ألفَ عائلةٍ تعيشُ من أعمالِ هولدينغ خُرطال! ألا تُدركُ ذلك؟

ـ «أوه، يا له من إنجازٍ عظيمٍ. أعطني أربعةَ أو خمسةَ ملياراتِ دولارٍ وأنا مستعدٌّ لجعلِ خمسين ألف جزائريٍّ سعداء لبقيّةِ أعمارِهم مع ذرّيّاتِهم على مدى الأجيال الثلاثة المقبلة حدّاً أدنى. أعتقدُ أنّ السّتّةَ عشرَ ألفَ موظّفٍ يكلّفونَ البلاد غالياً». قال محمود متفلسفاً.

افترقَ الرّجلانِ في منتصفِ الظّهيرةِ ثملَين بعضَ الشّيءِ.

ابتسمَ محمود حيال ما يمكنُ أن يكونَ حملهُ إيعازُ السّيناتور الفرنسيّ عندما طلبَ منه بتعبيرٍ واضحٍ: «عليكم أنتمْ أن تتصرّفوا وبسرعةٍ... أليسَ هناكَ

«مصالحُ كثيرةٌ رهنًا بذلك؟
تساءلَ محمود «مصالحُ من؟» بل هو يتحدّثُ عن مصالحَ بلدهِ وعملائهم في الجزائر...».
اكتفى بالاستماعِ لكلامِ فرانسوا بابتسامةٍ ساخرةٍ دونَ أن ينطُقَ بأيّ تعليق. مدّ فرانسوا لاتريف يدَهُ مصافحًا محمود بحرارةٍ قبلَ أن يستأذن. ألحّ على دعوتِهِ إلى العشاءِ قبلَ عودتِهِ إلى الجزائر. أخبرَهُ محمود أنّهُ لن يتمكّنَ من تلبيةِ دعوتِهِ قبلَ عودتِهِ من «الفار» حيثُ سيقضي يومينِ أو ثلاثةَ لدى صديقةٍ في DST له، لكنّهُ بعدَ ظهرِ هذا اليومِ على موعدٍ محدّدٍ سلفًا مع رائدٍ من الـ فندقِ نيكوت.
تبادلَ العقيدُ محمود والعقيدُ كورتكويس عباراتِ المجاملة. دخلا إلى بهوٍ كبيرٍ وجلسا على مقعدينِ من المخملِ الرّماديّ ليسَ بعيداً عن البابِ المؤدّي إلى البارِ الواسعِ ذي الجدرانِ الّتي تعجُّ باللّوحاتِ الحديثةِ والتّحفِ المرتّبةِ على الجدارِ نفسه. قبلَ أن يطلبا الطّعامَ، حاولَ العقيدُ كورتكويس الدخولَ في الموضوعِ بطريقةٍ ودّية:
ـ «حدثتْ ضجةٌ كبيرةٌ في ملعبِ بيغل هذا المساء. صديقنا «الأخضر» لم يكنْ مرِنًا في تصريحاتِهِ».
ـ «شاهدتُ ذلك للتَّوِّ على قناة أورونيوز؛ ولكني لم أفهم المعنى من ذلك كلّه». قال محمود وبدت ابتسامة صغيرة على شفتيه.
ـ «لهذا المنطقِ أسبابٌ يصعبُ فهمُها يا صديقي!» قال العقيدُ في هيئةِ الدّفاعِ ممازحاً نظيرَهُ الجزائريّ ثمّ أضافَ بعدَ صمتٍ قصيرٍ DST عن الإقليم:
ـ «قلْ لي، أيّها العقيدُ، هل خُرطال وديباردیو شريكان حقاً في مشروعِ كرومٍ في غرب البلاد؟»
ـ «لستُ أدري يا صديقي. ربما يكونُ مصرفُ خُرطال هو المصرفُ الّذي موّلَ مشروعَ الممثّلِ النّجم. برغم أن هذا المصرفَ هو بالنسبة إليّ، بعيدٌ كلياً عن الاستثمارِ في الزّراعةِ أو في العقاراتِ». أجابه محمود بهدوء.
ـ «إنّ ما نعتقدُهُ هو أنّ فنّاننا الكبيرَ يتورّطُ كثيراً إلى جانبِ الصّبيّ الذهبيّ؛ وما دامتْ عائلتُهُ أيضاً قد تورّطتْ في الأمرِ، فهذا يعني أنّ هناكَ مَواطنَ ضبابٍ

وغموضٍ تحتاجُ إلى توضيح». أكّد العقيدُ في الـ DST .

تباحثَ الرّجلانِ على مدى أكثرَ من ساعتينِ ونصف الساعة. احتسيا دزينةً من كؤوسِ الويسكي وتبادلا معلوماتٍ مهمّة لجهازيهما.

حتّى بابِ DST افترقا نحوَ السّاعةِ19, 30 . رافقَ محمود العقيدَ في الـ الفندقِ. وصلا إلى صالةِ الاستقبالِ وقسمِ المبيعاتِ لفندقِ نيكوت عبرَ مصعدٍ طويلٍ يقعُ يمينَ المدخلِ مقابلَ المقهى ـ البار الواسع.

كان صديقانا قد عقدا جلسةَ عملٍ طويلة. تبادلا أثناءَها الكثيرَ من المعلوماتِ، ولكن لم يسجّلْ أيُّ واحدٍ منهما شيئاً منها. كان محمود راضيًا جدّاً عن حصيلةِ يومِهِ هذا. صعدَ بعدَ ذلك إلى غرفتهِ في الطبقة السابعة.

أدارَ جهازَ التلفزيون وجلسَ خلفَ طاولةِ المكتبِ، فتحَ حاسوبَهُ المحمولَ وشرعَ يسجّل ملاحظاتِهِ عن السّهرةِ.

«في فرنسا، أصبحَ أصدقاؤه بالتّحديدِ جيرار ديبارديو، ايرفيه بورج، كارل زيرو حذرينَ جدّاً برغم نفوذِهم... منذ اقتناءِ قصرِ ألفِ ليلةٍ وليلة، بأحواضِ السّباحةِ الأربعةِ فيه والمشرفِ على ساحل «كوت دازور» الشّاطئ اللازورديّ الشّهيرِ في الجنوبِ الفرنسيّ. أصبحَ الأمرُ واضحاً: كلُّ ما سيباعُ لرجلِ الأعمالِ الجزائريّ سيكونُ سعرُهُ غالياً جدّاً وفوقَ السِّعرِ العاديّ. حشود من المنتجينَ والنّجومِ يجذبُهم هذا المالُ الّذي يسيلُ متدفّقًا ويحومونَ حولَهُ. سرعانَ ما أصبحَ رياض خُرطال رجلَ الخدماتِ «السّاذج» كما يصفُهُ أحدُ المقرّبينَ. حتّى على القناةِ الثّانيةِ الفرنسية، «D’art d’art» تيم نيومن نفسهُ منتجُ حلقةِ داردار في قناةِ «Dans Tous Les Cas» خلالَ سنةِ الجزائر في فرنسا، ومنتجُ برنامج خُرطال تي. في يقولُ مؤكداً: «يبدو أنّ المالَ لا أهميّةَ لهُ عندَ هذا الرّجلِ: مليون يورو أو500, 000 متعادلان قيمةً».

لا شيءَ أجمل من ذلك بالنّسبةِ إلى رجل المالِ الجزائريّ وخالتِهِ جوهر الجزائريّة رئيسةِ خُرطال للطّيرانِ فرعِ فرنسا ثمّ خُرطال تي. في بعدَ توقيفِ جمال غرماط في مطارِ الجزائر. معدّاتٌ جديدةٌ لّمّاعةٌ للقناةِ بالإضافةِ إلى موقعها في الاستديو 107، في سانـسانتـدني (مساحة 520 متراً مربّعاً ببدل إيجار سنويٍّ يبلغ ثلاثة ملايين يورو، ما عدا تكاليف الحراسة!).

أبرزتِ DST بعضُ الصّحفِ الفرنسيّةِ الّتي حرّكتها هيئةُ الدِّفاعِ عن الإقليمِ الفرق بينَ هذا الإنفاقِ الفاحشِ ومصيرِ ملايين الجزائريينَ العاطلينَ عن العملِ، إضافةً إلى وضعِ بعضِ آلافِ العائلاتِ الّتي تعيشُ في الشّارع؛ رؤيتُهُ ينفقُ كلّ هذا المالِ ببضعِ دقائقَ أمرٌ فاضحٌ. يقولُ محمد لحلو، أحد العاملينَ السّابقينَ المصروفينَ من هولدينغ خُرطال في شهادته: «إنّ كميّةً من 30 سيّارة مارسيدس اشتُريت ثم نُسيت لدىَ الوكيل».

ليس من قبيلِ المصادفة أن يؤسّسَ فيسي سونكريس هذه الشّركة ويعطيها اسم خُرطال تي. في، وأن يعيّنَ رجلَ الثّقة وصديقَ رياض خُرطال مديراً شريكاً، وأن يفتحَ حساباً مصرفياً في مصرفٍ مشهورٍ بعدمِ قبولِهِ بالتّعاملِ مع زبائنَ عاديين، فيما لم تمرّ ثلاثُ سنواتٍ على إنشاء الشّركةِ ذات المسؤوليةِ المحدودة Sarl . وليس من قبيلِ المصادفة أيضاً أن يؤسّسَ رياض خُرطال في الّتي تقومُ بالنشاط نفسه SAS تلك الفترةِ نفسِها الشّركةَ المساهمةَ البسيطةَ الّتي أهدافها شبيهة Sarl التي تقوم به الشّركةِ ذات المسؤوليّةِ المحدودة الخاصّةِ بفيسي سونكريس، وأنّ يضعَهُ القدرُ على طريقِ Sarl بأهداف شركة هذا الرجلِ الّذي يصلُ به الأمرُ إلى أن يتنازلَ له عن مجملِ أسهمِ شركتِهِ.

لكلّ هذه المساعي أسبابُها. فرياض خُرطال ليس مقيمًا في فرنسا، ومن ثم ويكونُ هو مالك أسهمها Sarl لا يمكنُهُ إنشاء شركةٍ ذات مسؤوليةٍ محدودةٍ للصّيدلةِ، أوّلَ شركةٍ له في فرنسا، كان KRG الوحيد. عندما أسّس عام 1995 مشاركًا في حصصٍ متساويةٍ مع مساهمينِ فرنسيّينِ: قصّاص المهدي وغبريال مارسيل ميشال راي. وعام 2002، تغيّرت المعطياتُ. لم يعدْ بإمكانِ رياض خُرطال مشاركةَ أحدٍ آخرَ غيرِ أولئك الّذين يختبئون خلفَ اسمه. ولا حتّى زوجته. لهذا السببِ أشارَ في عقدِ تأسيسِ الشّركةِ المساهمةِ البسيطةِ خُرطال تي. في إلى أنّه يخضعُ بزواجهِ للنّظامِ الشّرعيّ في التمييزِ بين أموالِ الزوجين وفقَ القانون الجزائريّ. هذا سببٌ آخرُ للبحثِ أوّلاً عن اسمٍ مستعارٍ الشّركة المساهمةِ البسيطة، هذا يبرّرُ رأسمالَ الشّركةِ SAS قبلَ تأسيس الطّائل: عشرة ملايين يورو. يفترضُ ذلك أنّ لدى رياض خُرطال في فرنسا شركةٌ رابحة درّت أرباحاً كهذه بعدَ أن أُعْفيتْ من الضرائب. وهذا ما يستحيلُ

إثباتُهُ. أيُّ مصرفٍ فرنسيّ سيسألُهُ عن مصدرِ هذهِ الأموال. فضلاً عن أنّها تأتي من الخارج.

للصّيدلة. KRG في فرنسا، هو لا يملكُ سوى 70% من الأسهمِ الـ 210 لشركةِ لم يثرِ شريكاهُ الفرنسيّانِ مثله. حتّى أنّ أحدهما، صديقَهُ الحميمَ وجدَ نفسَهُ يحملُ حقائبَ محشوّةٍ بمبالغَ كبيرةٍ من اليورو وقد قُبضَ عليهِ كمجرمٍ حقيرٍ في مطارِ مدينة الجزائر. لن يتمكّنَ شريكاهُ من الادّعاءِ أبداً أنَ شركتَهما الصّغيرةَ الّتي عملُها هو استيرادُ موادّ أوّلية تدخلُ في صنع الأدويةِ والعلاجاتِ الأساسيّةِ تدرُّ أرباحاً هائلةً على هذا النحو. من جهةٍ أخرى، ولتجنّبِ أيّ nBIA استجوابٍ يتّصل بمصدرِ أموالِهِ، قصدَ المصرف العربيّ العالميّ الشهير ءس الشركة المساهمة البسيطة خُرطال تي. في S لفتحِ حساباتِ.

Sarl بدلاً من (شركة مساهمة بسيطة) SAS أما اختيار رياض خُرطال عبارة أو للعبارة التقليديّةِ (شركة مجهولة) فمردّه أن هذه العباراتِ لا يمكنُها SNC أو أن تناسبُه، من حيثُ القانونِ الّذي يفرضُ أن يكونَ لديهِ شركاءٌ لا يقلُّ عددُهم أو الـ EURL عن سبعة. ليس هناك سوى الشّركةِ الفرديّةِ ذاتِ المالكِ الوحيدِ اللّتينِ تسمحانِ له بأن يكونَ المساهمَ الوحيدَ. في الجزائر، كان قد SAS برأسمالٍ مقدارُه خمسة عشر EURL أسّسَ خُرطال للطّيران على شكلِ مليار من السنتيماتِ دونَ أن يسألَهُ أحدٌ عن مصدرِ أموالِهِ. لا يمكنُهُ في فرنسا أن يتملّصَ من التّصريحِ عن مصدرِ العشَرةِ ملايينِ يورو الّتي يجبُ أن يكونَ خمسةُ آلافٍ منها نقداً. فلجأ إلى استغلالِ القانونِ الرقم 98ـ587 الصّادرِ في 12 شركة مساهمة بسيطة. هذه الشّركةَ تفترضُ SAS يوليو/تموز 1998 لإنشاءِ وجودَ شركاءَ مرتبطينَ بعقدٍ مصادقٍ عليه لدى الموثّقِ يعطونَ بموجبه تفويضاً مطلقاً لممثّلٍ وحيدٍ عن الشّركةِ يظهرُ اسمُهُ وحدهُ على عقودِ الشّركةِ. في حالِ استجوابِهِ في موضوع مصدرِ أموالِهِ، يمكنُ المساهم الوحيد أن يكشفَ للمحقّقينَ فقط عن هويّةِ شركائهِ».

بعدَ ثلاثةِ أرباعِ السّاعةِ، أطفأ محمود حاسوبَهُ. بدّل قميصهُ بعدَ عنايةٍ سريعةٍ بمظهرِهِ ثمّ خرجَ عقب نصفِ ساعةٍ. سارَ بمحاذاةِ رصيفِ بوغرينيل واتّجهَ نحوَ محطّةِ مترو شارل ميشال غير البعيدةِ عن مركزِ غرينيل التّجاريّ. استقلَّ

القطارَ إلى الأوديون. لاحظَ محمود لدى نزوله من المترو أن ثمة نصف ساعةٍ متبقّياً قبلَ حلولِ موعدهِ في مقهى ومطعم «Les Deux Mago» في ساحةِ سانـجيرمان حيثُ ينتظرُهُ صديقٌ موظّفٌ في السّفارةِ الجزائريّةِ في فرنسا.

تعانقَ الرّجلان وعبرا الشّارعَ. اتّجها نحو مقهى ومطعم «ليب».

ـ «آه! المقهى والمطعم المشهور. أتمنّى أن تكونَ أسماكُ الرنكةِ وحساءُ اللّحمِ لديهم ما زالت لذيذة». قال محمود راضيًا عن اختيارِ مُضيفِهِ.

ـ «لا تزالُ الأطعمةُ على حالِها ولكنّ الزبائنَ تغيّروا». أكّد له الموظّفُ.

ـ «إنّها الهجمةُ السياحيّة، كما أرى». أعلنَ محمود.

ـ «نعم، الحياةُ الثقافيّةُ الباريسيّةُ انتقلتْ إلى مراكزَ أخرى، مثل حيّ أوبركامب الّذي يكاد يصبحُ الحيَّ اللاّتيني الجديد. الحيُّ اللاّتينيّ الأسطوريّ أصبحَ مكاناً للسيّاحِ على غرارِ هذا المقهى والمطعم».

ـ «هنا كان مهدي بن بركة، رحِمَهُ الله، قد اعتقله رجال الشّرطةِ واقتيدَ مكبّلاً وسُلِّمَ إلى الجنرال أوفكير، أليس كذلك؟» قال محمود.

ـ «تماماً، وهذا هو المطعمُ الّذي كان يتردّدُ إليه فرانسوا ميتيران وجاك لانغ وآخرون. الآن أصبحنا نلتقي هنا نوعًا أخرَ من النّاسِ. أهلُ الزّمنِ الغابرِ موجودون الآن إلى جهة La causerie des lilas في ليلا، أو في Le كوزيري دي ليلا، أو بصراحةٍ في حيّ أوبركامب»، قال select بجانبِ برجِ مونت بارناس أو بصراحةٍ في حيّ أوبركامب»، قال الموظّفُ محدّدًا كلامَهُ قبلَ أن يُغْرِقَ أنفَهُ في لائحةِ الطّعام.

ـ «حسناً، ها هو، ستجدُ دائماً حساءَ اللّحم المفضّل لديك». قال ملتفتاً إلى محمود.

ـ «إيه، نعم! أرى أنّ اللاّئحةَ، على الأقلّ، لم تتغيّرْ. استبشِر خيراً». قال محمود ممازحاً.

عندما انسحب مديرُ الصّالةِ مع طلبيّةِ الطَّعامِ وانتهى السّاقي من تقديمِ نبيذِ البوردو، قال الموظّفُ وقد امتلأ بالإباءِ فجأة:

ـ«تابعتُ أخبارَ السّاعةِ الثّامنةِ قبلَ مجيئي إلى هنا.[يا خو] يا أخي، الأمرُ حقاً يُقَوّي القلبَ. كل القنوات التلفزيونيّة ردّدتْ حادثَ بيغل».

ـ «يجب الاعتقادُ بأنه تغلّبَ على الفرنسيّين». وافقَهُ محمود بهدوء.

ـ «وبأيّةِ وسيلةٍ، لو سمحت؟ مروحيّةُ دوريّةِ فرنسا تحلّقُ في سماءِ العاصمةِ باريسَ وفي سماءِ بيغل مع شِعار نسر خُرطال أيرويز يومَ المباراةِ الافتتاحية لفريقِ الروكبي!» قالَ الموظّفُ مُتشدِّقاً، سعيداً بالافصاح عن معلوماتِهِ لضابطِ دائرة التحرّي والأمن (DIS) .

ـ «كان رئيسُ بلديةِ بيغل قد أُصيبَ بنوبةِ غضبٍ لا توصفُ، حتى أنّهُ قاطعَ المباراة وقال كلاماً مؤسفاً في المناسبة». قال محمود ببرودةِ أعصابٍ.

ـ «أوه! ذلك الشّخصُ، من مصلحتِهِ التقليل من نشاطاتِهِ. في كل الأحوال، إن الاشتراكيين وحلفاءهم لا يحبّوننا أبداً. أنسيتَ قِصَصَ «مَنْ يقتُلُ مَنْ؟ «إنها المُسلَّمة نفسها لديهم: كلُّ شيءٍ بسببِ الجنرالات. هذه كلها كليشيهات قديمةٌ وُجدَتْ مشتراة، وقد جعلوا منها علامةً تجاريّة. في رأيي، كان عليه أن يُكدّسَ العشرين ملياراً من السنتيماتِ في جيبهِ. لم يكن ليتكلّمَ على الغسّالةِ أو على التبييضِ. من جهةٍ أخرى، لقد أقفلَ ابن جيرار ديباردیو له فمهُ». قال الموظّفُ في السّفارة يحدوهُ الأملُ على أن تصلَ رسالتُهُ إلى من يهمُّهُ الأمرُ في بعضِ الدّوائرِ في مدينة الجزائر.

ـ «في النّهايةِ، هل أنت مع فكرةِ أنّ المبلغَ المدفوعَ لأفراد فريق الجت، الّذين بلغَ عددُ ساعاتِ طيرانِ آخر قبطانٍ فيهم أكثرَ من 3500 ساعة كي يقومَ بعرضٍ في سماء بيغل، لم يكن مجرّدَ بخشيشٍ؟» سألهُ محمود.

ـ «نعم؟، لكن كان يمكنُ هذا أن يرفعَ شأنَ الجزائر.لا يمكنُ توجيه اللّومِ إليه لأنّهُ جعلَ الكلامَ على الجزائر يدورُ في فرنسا وفي كلِّ العالمِ في الوقتِ الّذي يكنّ كلُّ الناس لنا كرهاً كبيراً». قال الموظّفُ مشتكياً.

ـ «وأخيراً، كلُّ هذا الالتباسِ لا مثيلَ لهُ. سنرى إلى أينَ ستصلُ الأمورُ». قال محمود متنهّداً، وقد بدا مشغولَ البالِ فجأة.

ـ «هذا صحيحٌ، لا ندري ماذا يخبّئ لنا الغدُ». قال الموظّف..

قضيا بقيّةَ السّهرةِ يناقشان أموراً من هنا وهناك، وهما يحتسيانِ زجاجةً من النّبيذِ المحلّيّ الجيّد.

نحو منتصفِ الليلِ خرجا من مطعم «ليب»، مسرورَيْن باسترجاعِ ذكريات شبابهما. أخبرَ محمود صديقَهُ وهو يودّعُهُ لدى مدخلِ الفندقِ، بأنّه سيستقلُّ

القطارَ ظهراً إلى مارسيليا وسيعودُ بعد يومين، أي قبلَ عشيّةِ سفرهِ إلى الجزائر.

5. نوويل ماماير الملقب هنا بالأخضر هو زعيم حزب الخضر أي أحبّة الطبيعة وهو أول من فتح النار على خرطال في الصحف الفرنسية والبرلمان الفرنسي عندما طالب بلجنة تحقيق في مصادر أموال خرطال، وهو في الوقت نفسه رئيس بلدية بيغل.

الفصل العشرون

خطّة محاربة النّدرةوالأقزام السّبعة

استيقظَ محمود مذعورًا هذا الصّباحَ، مقطوعَ النّفس. عندما نهضَ من السّريرِ حملته ساقاهُ بصعوبة. اتّجهَ على الفورِ إلى الحمّام داخلَ غرفتهِ في الفندق، ملأ كوبَ ماءٍ من الحنفيّة وشربَ بنهمٍ: عكست المرآةُ الّتي يضيئها نورُ اللمبةِ النّيون صورةَ وجهٍ شاحبٍ خالٍ من الملامحِ. «يا إلهي... هوالكابوسُ المرعبُ نفسهُ! ألن ينتهي أبداً!» قال لنفسِهِ.

خطّةُ محاربةِ ندرة المواد) «PAP» الرؤى والصّورُ الّتي تلاحقُهُ منذ سنوات الـ الّتي بفضلها ضَمِنَ «أبيضُ الرّأس» لنفسِهِ السّلطةَ المطلقة خلال (الاستهلاكيةِ ثلاثة عشر عاماً. في ذلك الوقتِ كان محمود مهمّشًا في قصر الأشباح يرزحُ تحتَ تأثير فسادِ بعضِ زملائه وزميلاته المتدرّجينَ الّذين تجري الرّياحُ بما تشتهيه سفنُهم بفضلِ مصاهراتهم العائليّة أو علاقاتهم مع دوائرِ أصحابِ القرارِ.

هكذا كان يحبسُ نفسهُ في عملٍ روتينيّ هامشيّ يدفعُهُ إلى أغوار الإحباط. بالتّأكيد، لم يكن ينقصُهُ شيءٌ على الصّعيدِ الماديّ، ولا حتّى من الأمورِ الجميلةِ في الحياة، بما فيها الويسكي المفضّل لديه؛ لكنّهُ لم يكن يشعرُ بذاته الحقيقيّة ولا يعتبرُ أنّه كبقيّةِ زملائه الّذين يبدّلون موقِفاً أو تصرّفاً وفقَ تبدُّلِ الرياحِ من أجل إرضاءِ الأسياد الحاليين.

رأى محمود في كابوسِهِ المشهدِ نفسه: في منتصفِ اللّيلِ، عند أطرافِ القصبة[26]، عددٌ لا يُحصى منَ الأقزامِ. رجالٌ ونساءٌ وأولادٌ يراقبون تحرّكاتِ رجال الدرك المتمركزين في حاجزٍ أمني ثابتٍ. يوجّهون عمليّة السّير ليلاً، ويحرسون منفذَ البحرِ الممنوع عن عامّة الشّعبِ.

في غضون هذا الوقتِ، كان الأشباحُ مختبئين في العتمةِ، يراقبونَ ذهابَ كلِّ شخصٍ وإيابه، ويقيسون إيقاعَ أنفاسِ كل شخصٍ بواسطةِ جهازٍ جديدٍ، استُورد من ألمانيا في إطارِ برنامجِ مكافحةِ ندرةِ الموادّ الاستهلاكيّة. بإمكانِ هذهِ

الأجهزةِ أن تكيلَ بدقةٍ عاليةٍ وعن بعدٍ كميّاتِ الأوكسجين الّتي يتنفسُها كلُّ مواطن.

كان الأقزامُ ينتظرونَ الفرصةَ السّانحةَ كي تندسّ المجموعةُ المؤلفةُ من سبعةٍ منهم إلى أسفلِ التّلِّ الّذي يستخدمونه مركزاً للحراسة. عندما أخذَ السّهرُ من الحُرّاسِ كلّ مأخذٍ وضَعُفَتْ يقظتُهم إلى أدنى حدٍّ، زحفَ الأقزامُ السّبعةُ بصمتٍ في الظّلامِ باتّجاهِ الشاطئ الخالي. غطسوا في مياهِ البحرِ الفاترةِ حاملين على ظهورهم قواريرَ الغازِ الّتي يساوي طولُها تقريباً طولَ أجسادِهم الصّغيرةِ، واختفوا في عرضِ البحرِ نَحْوَ وُجُهاتٍ عدّة.

في اليومِ التّالي، مع بُزوغِ أوّلِ شعاع من أشعة الشمس، نزلَ الأقزامُ منتصرينَ مبتسمينَ، من مراكبِ التُّجّارِ المختلفةِ الحُمولاتِ الرّاسية في مرفأ الجزائر، نزلوا إلى التّلةَ محمّلينَ بِصَواني البَيضِ، فرحينَ في جوٍ بهيجٍ تعلوهُ صفّاراتُ البواخرِ الراسيةِ في حوضِ العاصمة الفسيح.

عند أسْفلِ التّلةِ الّتي تحمي الشّاطئ، كان سكّانُ المدينةِ، يحتفلونَ في بهجةٍ عارمةٍ، على وقعِ الفرقِ الفولكلورية، بالنّصرِ بعودةِ الأقزامِ السّبعة. في لحظةِ هدوءٍ، نهضَ رئيسُ حَمَلةِ الأقزامِ، وقفَ في حوضٍ كبيرٍ من خشبِ السّنديانِ تحملُهُ أكتافُ أكثرِ المحتفلينَ حماسةً. ألقى خلالَ هذا الاجتماعِ خطبة مرتجلة لكنها ضرورية للفتِ الأنظار ولتجييش الحُشودِ الشّعبيةِ من أجلِ مقاومةِ الخُططِ الّتي تحوكها الإمبرياليّة. خطبَ في الجماهيرِ وهو يعلنُ لهم عزمه على تحقيقِ الأفضلِ في حملتِهم المقبلةِ، هذا يعني جلبَ كميّةٍ أكبرَ من قواريرِ الغازِ إلى البحرِ والعودةَ بكمياتٍ أكبرَ من بيضٍ دجاجٍ أكثر نصاعة لتغذيةِ أطفالٍ أقوى وأكثر ذكاءً مؤهّلين لصنعِ القنبلة الذّريّة. تلت ذلك زغرداتُ الأقزامِ وهتافاتُ الشُّبانِ والأطفال.

دائماً في هذهِ اللّحظةِ المُضطَربةِ تماماً يستفيقُ محمودٌ من كابوسهِ، كمن انتقل من سباتٍ لا نهايةَ له.

6. القصبة في الجزائر العتيقة، الحيّ القديم الآن.

الفصل الواحد والعشرون

على جناح الرّيح

في صباحِ اليومِ التّالي، نحوَ السّاعةِ التّاسعة والنّصفِ، كان محمود لا يزالُ في سريره في الفندقِ. كان يشعرُ بصداعٍ حادٍّ يُمزّقُ رأسه. كانتْ أبخرةُ النّبيذ الّذي تجرّعَهُ مساءَ أمسِ تجعلُه يشعرُ بالغثيانِ. تناولَ جهازَ التّحكّم عن بعدٍ وأدار التلفزيون على قناةِ الأخبارِ ثم دسّ رأسهُ بين المخدّةِ والفراش. في نهايةِ النّشرة المتلّفزة، اقتلعَ محمود نفسَهُ من السّرير بصعوبةٍ كبيرةٍ.

في السّاعةِ الحادية عشرة والنصف، جلسَ ضابطُ دائرة التّحرّي والأمن (DIS) في إحدى عربات القطارِ السريعِ شاض المتّجهِ إلى مارساي. كان ينهشُهُ صداعٌ قويّ لم تنجحْ حبّةُ الباراسيتامول ولا فناجينُ القهوةِ الثّلاثةُ في القضاءِ عليه. أغمضَ عينيه وتراءى له وجهُ فاوو المُشْرقُ. بعد قليلٍ، ستقعُ مغشيًّا عليها عندما تعلمُ أنّه جاء لزيارتها في بلدتها في هذه البقعةِ المعزولةِ البعيدةِ المختبئةِ في أقصى «الفار». يا لها من امرأةٍ جميلة»، قال محمود راضيًا عن رحلتِهِ القصيرةِ نحو جنوب فرنسا. تركَ حقيبةَ سفرهِ تسقطُ عند قدميه، أسندَ مرفقَ يدهِ على كونتوار بار المحطّة وطلبَ نصفيّةَ جعةٍ. احتسى جعتَهُ بكلِّ إثارةٍ وهو يسأل عنه كيف ستكونُ ردّةُ فعلِ صديقته بعد قليل. وضعَ الكأسَ الفارغة أمام السّاقي وسأله:

«ـ «ألديكَ هاتفٌ؟

ـ «في آخرِ الصّالةِ، سيّدي، هناك كشكُ هاتفٍ عموميّ». أجابَه السّاقي.

التفتَ محمود نحوَ الجّهةِ الّتي أشارَ اليها الرّجلُ الّذي يرتدي مريولاً أبيضَ، ثمّ حملَ حقيبتهُ واتّجهَ نحو كشكِ الهاتف. أسقطَ حقيبةَ السّفر عندَ قدميه. دسّ بطاقة هاتفٍ ذاتَ ألوانٍ زاهية، أمسكَ سمّاعةَ الهاتفِ وطلبَ رقمًا. لحظةً قصيرةً من الانتظار، ثمّ:

«ـ «آلو! مرحبًا! أنتِ بخير؟ نعم، هذا أنا».

ـ «آه، يا للمفاجأة! إنّها حقاً مفاجأة كبيرة! أين أنت؟» سألتهُ فاوو، بكلِّ حماسة.

ـ «اِحْذري» أجابها محمد ممازحاً.

ـ «في باريسَ؟ أليس كذلك؟ سأستقلّ القطارَ غداً!» أسرعتْ فاوو بالإجابة.

ـ«...مهلاً، مهلاً، لستُ بعيداً عنك»

ـ«...أين أنتَ، محمود؟ لا تقلْ لي أنّك»

ـ «نعم! تماماً. أنا قربَ محطّةِ مارساي، في مقهى». أجابها محمود وهو متحمّسٌ أكثر منها.

ـ «سأقفزُ إلى السيّارةِ وبعد ثلاثةِ أرباعِ السّاعةِ سأكونُ أمامك». قالت فاوو.

ـ «حسناً، عليّ أن أحلّ مسألة صغيرةً أوّلاً. هذا يناسبني. بعد خمسٍ وأربعين دقيقةً سأكونُ أمامَ مدخلِ المحطّة. إلى اللقاء، حبيبتي».

ـ «إلى اللقاءِ بعد قليل، يا عصفوري».

أعادَ محمود سمّاعةَ الهاتفِ واتّجهَ نحو بابِ الخروج. اجتازَ نزلةً طويلةً تؤدّي إلى المرفأ. لدى مدخلِ الشّارع، كان هناك جلبةٌ أمامَ مدخلِ ملهىً. فتيات شبهِ عارياتِ ومتسكعون يروحونَ ويجيئونَ أمامَ مداخلِ الملاهي وباراتِ بائعاتِ الهوى في الحيّ القديمِ في مارساي حيثُ كان أحدُ أقاربِ محمود يديرُ ملهى القصبة»».

في السّاعةِ الخامسةِ وعشر دقائق تعانقَ محمود وقريبُه طاهر، الّذي لم يكفَّ عن الإصرارِ على استبقائه عنده. لكنّ محمود ظلّ صامداً أمامَ توسّلاته. وعَدَهُ أن يزورَه بعد يومين عند عودتِهِ من روغون قبلَ رجوعِهِ إلى باريس. أدركَ طاهر أخيراً أنّ لا شيءَ يمكنُهُ أن يبدّلَ رأيَ الضّابطِ في دائرةِ التّحري (DIS) ، اقتنعَ مواسياً نفسَهُ بهذا الوعدِ فهو يشعرُ بنفسِهِ مديناً لقريبهِ والأمن بوظيفته ومركزه الاِجتماعي في أجهزة السّلطة.

هناك العديدُ من المهاجرين المتمكنين في عالمِ الأعمالِ ينحنون للمرتبطينَ بالسّلطةِ في الجهةِ الأخرى من البحر الأبيض المتوسط.

عندما اختفتْ سيّارةُ طاهر الـ «ميغان» عند منعطفِ الشّارعِ، صعدَ محمود السلالمَ المؤديةَ إلى مدخلِ المحطّة. كانتْ فاوو هناك، تقفُ غيرَ بعيدةٍ عن «Relais H.» ، بقميصها كشك الجرائدِ والسّجائرِ والكتبِ التابعِ لشبكةِ الجورسيه الموف وبنطلون الجينز الضّيّق، وشعرها المنسدل الّذي لا يزالُ

رطبًا، تتفحّصُ دخولَ المارّةِ وخروجهم وتحملُ بيدها مجموعة مفاتيح. عندما لمحتْ محمود، أشرقَ وجهُها بابتسامةٍ عريضة. ركضتْ للقائه، تحملها سحابةٌ من السّعادة، تعلّقتْ بعنقهِ وذابَ الاثنانِ بقبلةٍ طويلةٍ، وسطَ حركة المحطّة المكتظة.

ـ «وو! أنت هنا؟ لا أصدّقُ عينَيَّ! كيف أمكنَ ذلك؟» سألته بكلِّ حماسة.

ـ «كان يجبُ أن أراكِ مهما كلّفَ الأمر» أجابها محمود بهدوء.

لم تستطعْ فاوو منعَ نفسِها من الإمساكِ بيدِ محمود وضمّها إلى صدره، سعيدةً بالإحساسِ بهِ قريباً منها.

ـ «أمامنا طريقٌ طويل. الأفضل أن ننطلق». قالتْ له فاوو بعدَ أن أنزلتْ يدَ الرّجلِ الّذي نجحَ في مفاجأتها في عقرِ صومعتها.

اتجهتْ فاوو نحو كشكِ القاعةِ، طلبتْ علبةَ سجائرَ «كامل» وأعطت البائع ورقة مئة يورو. دسّتْ على عجلٍ العلبةَ وبقيّةَ المالِ في جيبها ثم تأبّطَتْ ذراعَ محمود ودعتْهُ إلى الخروجِ من بهو المحطّة.

اتّجها متشابكي الأيدي إلى المرأب حيث كانتْ فاوو قد ركنتْ قبلَ نصفِ ساعةٍ سيّارتها الرينو كليو ذات الأبواب الثلاثة. عندما وصلا إلى روغون، كانتِ السّاعةُ قد تجاوزتِ العاشرة.

في أعلى الشّارع الرّئيسيّ المؤدّي إلى القريةِ الصّغيرة، المتفرعِ من شارعِ المحافظةِ المنحدرِ نحوَ أسفلِ النّهر، وعلى قطعةِ أرضٍ بور واسعة تزدحمُ فيها مَعَدّاتٌ زراعيةٌ مهجورةٌ، يصادفكَ بيتٌ بطبقين مبنيٌ من الحجرِ المنحوتِ على نمطِ بيوتِ المزارعِ الإسبانيّة.

تحتلّ أشجارُ الكرمةِ ونباتاتٌ متسلّقةٌ أخرى الواجهةَ الرّئيسيّة للبيتِ الريفيّ. يمكنُ الدّخولِ إلى هذا البيتِ من جهتين. المدخلُ الرّئيسيّ المؤلفُ من درجٍ من الخشبِ المحفورِ وبابٍ حديديٍّ كبيرٍ حيثُ يتآلفُ الزّجاجُ والحديدُ المشغول. يؤدّي البهوُ الواسعُ إلى مطبخٍ كبيرٍ يطلّ على حديقةٍ تبلغُ مساحتُها نصفَ هكتارٍ تتنازعُ على مساحتِها بعضُ أشجارِ الفاكهةِ مع أشجارٍ بريّةٍ اصْفرّتْ أوراقُها بحرارةِ صيفِ البحرِ المتوسّط. سياجُ البيتِ جدار طويل من الحجارةِ عرضه

خمسون سنتيمتراً وارتفاعه متر ونصف المتر يعلوه درابزين مشبكٌ بسلكٍ شائك.

سحبتْ فاوو بضعَ زجاجاتٍ من المشروباتِ الرّوحيّةِ من خزانةٍ طويلةٍ مثبّتةٍ على حائطِ غرفةِ الجلوسِ ووضعتْها على طاولةٍ من خشبِ الكرزِ. وضعتْ عليها كأسينِ بديعتين من الكريستالِ قبلَ أن تقترحَ شربَ نخبِ التّرحيبِ بصديقها.

شربَ الحبيبانِ نخبَ لقائهما. وضعتْ فاوو كأسها بعنايةٍ وارتمتْ في حضن محمود، مستسلمةً بدون أيّ تحفّظٍ:

ـ «الزيارةُ جاءتْ في الوقتِ المناسبِ. نيقولا يبيتُ عند أمّي. لقد نهرتُهُ بعدَ ظُهرِ هذا اليوم، فذهبَ ليحتمي بها. أقسمُ لك يا محمود أنّها هي من تُفسدُ ابني، وقد تعبتُ من تحمّلِ كلِّ شيء». قالت تشتكي وهي تُلْصِقُ شفتيها بشفتَي صديقها.

ـ «وآلان، هو ليس هنا أيضاً؟» سألها محمود بفضول..

ـ «أوه! انتقلَ للعيشِ مع كارول منذ عامٍ تقريباً. إنّهُ لا يعنيهِ شيء. وأنا وحدي، ماذا يمكنني أن أفعلَ في الأسابيع الثلاثةِ القليلةِ الّتي أقضيها هنا مرّة في العام؟ أرأيتَ حالةَ المنزلِ؟»

ـ «كارول، من تكون؟» سألها محمود مجدّداً..

ـ إنها ابنةُ عمدةِ القرية. تعملُ ممرضةً في المدرسةِ الدّاخليّة. إنها حبيبتُه. هو كوالده المُتوفّى. لا يفكّرُ إلاّ في عُضْوِهِ وبممارسةِ الجنس».

قالتْ عبارتَها الأخيرةَ بلهجةِ أهل سكيكدة.

انفجرَ محمود ضاحكاً ثمّ أحاطَ خصرَ فاوو. تمدّدا متعانقينِ على الكنبةِ. في وقتٍ متقدّم من السّهرةِ، دخلا المطبخَ عاريينِ ليتناولا الطعامَ، ثم استأنفا تمتّعَهما حتّى ساعةٍ متقدّمة. في الصّباحِ، لم يغادرا السّريرِ إلاّ بعدَ أن تجاوزتِ السّاعةُ العاشرةَ.

أثناءَ تناولِ الفطورِ، قالتْ له فاوو بكل إشراقِها:

ـ«سنقومُ اليومَ بممارسةِ رياضةِ التحليقِ في مكانٍ رائع. معك، يا حبيبي، أرغبُ في الشعورِ بالأحاسيسِ القويّة. سأريكَ إحدى أجمل عجائبِ العالم.

ستفهمُ عندئذٍ لماذا أحتفظُ بهذا المنزلِ ولماذا جاء والداي إلى هذه المنطقة. سأُحْضِرُ لك الحذاء الرّياضي لنيقولا. سنقومُ بجولةٍ مشيًا لم تقمْ بمثلِها في حياتك.

خرجتْ ثمّ عادتْ بعدَ لحظاتٍ تجُرُّ حقيبتَي ظهر.

«ـ«هذه هي المظلاّت الّتي سنستعملها بعد قليل، أترغبُ في ذلك؟

«ـولمَ لا؟ منذ زمنٍ طويلٍ لم أقفزْ. ولكنّي وعدتُكِ في بيروتَ أنّنا في أوّلِ فرصةٍ سنقفزُ معاً». أجابها محمود الّذي تحمّسَ عندَ رؤيةِ عدّةِ القفزِ.

عكفا على تفحّصِ المظلّتين والأحزمة وكلّ ترتيباتِ الأمانِ والسّلامة. ذُهِلَ محمود أمامَ الوجهِ الآخرِ لصديقته الّذي أكّدَ له للتَّوِّ ما كانت قد أخبرتْهُ به أثناءَ لقائهما في لبنان.

عند الظّهرِ، تركَ العاشقانِ طريقَ المحافظةِ الفرعيّ. اللّوحةُ الّتي تشيرُ إلى قريةِ روغون كانت عبارةً عن كتابةٍ محفورةٍ بشكلٍ بارزٍ على جذعِ شجرةٍ كبيرةٍ مُعمّرةٍ. بعد قليلٍ وصلا إلى مكانٍ يُسمّى نقطة «سيبليم «Sublime» ، لا بدَّ أنّهُ اكتسبَ تسميتَهُ من منظرهِ الرائع الّذي لا يُحْتَجَبُ، ثمّ سلكا دربَ الـ «انكاستيل» الصّغير الّذي يجتازُ منتزه مَنْظَرَةِ كوفان. توقّفا عند جسر«تيسّيه»، ينظرانِ بإعجابٍ إلى أشكالٍ وأعمدةٍ صخريّةٍ تنتصبُ كالحرسِ كأنها قادمةٌ من عالمٍ خياليّ. استندتْ فاوو إلى صخرةٍ يشبهُ شكلُها رأسَ أسدٍ. لم يقاومْ محمود رغبتَهُ في تخليدِ المشهدِ، فتناولَ آلةَ التّصويرِ الرّقمية الخاصة بهِ وشرعَ يصوّرُ هذه اللّحظاتِ الرّائعة، وفاوو تبتسمُ ابتسامتَها المشرقة.

عندما انتهى محمود من تصويرِ حبيبتِهِ وسطَ أشكالِ الصّخورِ المثيرةِ، نزلا يداً بيد منحدراً واجتازا دغلاً صغيراً في طرفِهِ حقلٌ من الأشجارِ البريّةِ انتهى بهما عند مِنَصّةٍ: إنها مَنْظَرَةُ رانكوماس.

ـ «قلْ لي، هل قرأتَ صُحُفَ قبلِ الأمس؟ سألته فاوو وهي تحني رأسَها قليلاً ـ «آه! تقصدين المقالاتِ عن نشاطاتِ الملياردير الجزائريّ؟» أجابها محمود بلامبالاة.

ـ «نعم، فلان خُرطال. هل تعلمُ أنني سمعتُ ذلكَ اليومَ عند سامي، في بيروت نقاشاً غريباً حولَهُ، بين أصدقاء سامي من السّفارةِ الجزائريّةِ في

بيروتَ».

ـ «آه، هكذا إذاً؟» سألها محمود بفضولٍ هذه المرّة..

ـ «كان صديقك دحمان غاضبًا جدّاً. يبدو أنّهُ سبّبَ لهم فوضى كبيرة مع اللبنانيّين» قالت فاوو.

ـ «أخبرني سامي بتلكَ القصّةِ وهو يصحبني إلى المطار. أعتقدُ أنّ ذلك حصلَ ليلةَ سفري. كان قد حطّ بطائرتِهِ الأيرباص 300 مع فريقهِ وبعضِ أصدقائه في السّاعةِ العاشرةِ ليلاً دون أيِّ إذْنٍ أو أيِّ إعلامٍ مُسْبَقٍ وطلبَ مقابلةَ رئيسِ مجلسِ الوزراءِ «الحريري». اِسْتاءَ اللبنانيّيونَ. نبّهوا السّفارةَ، الّتي بطبيعةِ الحالِ،لا يمكنُها أن تفعلَ شيئاً في مثلِ هذه الحالةِ. يُعتبرُ ذلك كفتحِ جبهةٍ في عزّ اللّيل». قال محمود بمرحٍ.

ـ «الأدهى أنّهُ استطاعَ أن ينتزِعَ لِقاءً مع رفيق الحريري في السّاعةِ الحادية عشرة مساءً دون أن يُدْعى السّفيرُ إلى هذا الاجتماعِ اللّيليّ. هذا ما كان يقوله صديقُك ذلك المساء». أجابت فاوو.

سلكتْ ، Le Duc» تؤدّي أطرافُ الجرفِ عند حافّةِ هذه المساحةِ إلى قمّةِ الـ فاوو والعقيد درباً ضيّقاً بين الوزّال والعُلّيقِ وصولاً إلى أسفلِ التلّةِ ومن هناك انعطفا نحو منصّةٍ أخرى حيثُ يمثّلُ منظرُ الجرفِ وأعالي المنحدرِ الصّخريّ السّحرَ بجمالهِ السّامي. خلّصتْ فاوو كُمَّ سترتِها الّتي تربطُها على خصرِها والّذي كان قد علقَ بأشواكِ شجيرةِ العُلّيقِ.

ـ «على كلِّ حالٍ، استفادَ في اليومِ التّالي من كلِّ التّدابيرِ وحصلَ على زيارة رسميّة. ثم سافرَ من جديدٍ في المساءِ ذاتِهِ دونَ أن يتنازلَ ويتّصلَ بسفارةِ بلدِهِ. هذا ما علمتُهُ في ما بعد في الجزائر».

ـ «ما هذا الجنون؟ أهذه تصرُّفاتٌ مسؤولة؟» سألتهُ فاوو..

ـ «عندما يكونُ هناكَ التقاءُ مصالحَ، فكلُّ شيءٍ يصبحُ ممكنًا، يا عزيزتي».

ـ «سنتسلّقُ التّلةَ من هذه الجّهة». قالت فاوو وهي تشير إلى دربٍ ملتوٍ يحيطُ بسفحِ الجبلِ.

ـ «من هنا، تقصدين؟» سألها محمود، بفضول..

ـ «نعم. سنستندُ إلى تجاويفِ الصّخرِ، وإلى لفائفِ الشِمشادِ وإلى شتولِ العرعر. اِبْقَ قريباً منّي، أنا أعرفُ الممرَّ جيّداً، سبقَ أن اجتزتُهُ مرّاتٍ عدّة». قالت فاوو، متحمّسةً كونها لاحظتْ أنّها، برشاقتها البدنيّة، تتفوّقُ على مِظَلّيٍّ قديمٍ.

ـ «أوه! لقد أصابني الصّدأ بعضَ الشيءِ؛ ولكنّي سأتحمّلُ الصّدمةَ جيّداً». أجاب محمود.

ـ «سنصعدُ حتّى تلك «المنصّة» هناك، بعدها سيكونُ كلُّ الجّرفِ الصّخريّ مُلكاً لنا. أنا أضمنُ لكَ منظراً لا مثيلَ له». أكّدَتْ له فاوو.

استأنفا رحلتَهما الرّائعةَ بصمتٍ مركّزَينِ اهتمامهما على تثبّتهما. عندما وصلا إلى درابزينِ منظرةِ «تريسكار»، بقيا لحظاتٍ مذهولَينِ أمامَ المنظرِ الّذي ترسُمُهُ نقطةُ «سيبليم» المطلّةُ على «الفردون»: في الأعلى موقِفُ مَنْظَرةِ سومسون وأخدودُ الباوو ومنظرةُ تريسكار وكاريل؛ ومن الأسفلِ منظرةُ نقطةِ سيبليم وجرفُها الصّخريّ وفندقُ نقطةِ سيبليم وفي الآخرِ قرية روغون.

تحقّقَتْ فاوو للمرّةِ الأخيرةِ من أحزمةِ حقيبةِ ظهرِها وحقيبةِ ظهرِ صديقِها، ثم أصدرت تعليمتها الأخيرة:

ـ «سنهبط لمدّةِ تسعِ ثوانٍ قبلَ فتحِ المظلّتين، ثمّ ننعطفُ 180 درجةً كي نبتعدَ عن الجرف».

ـ «حسناً! أيّها الرّئيس، من بعدِكِ». قال محمود بمرح.

استعدّا للوثوبِ على مسافةِ بضعةِ أمتارٍ ثم رميا بنفسيهما في الفراغِ صارخين معًا في الوقت نفسه «ياووو!». تلقّفهما الفراغُ وأحسّا بنشوةٍ عامرة استسلمَ لها جسداهُما وروحاهما بدونِ تحفّظٍ. بدتِ الثّواني طويلةً. حطّا بهدوءٍ على ركامٍ في مكانٍ منخفضٍ من دربِ مارتيل. طويا مظلّتيهما، رتّباهُما في حقيبتَي الظّهرِ وشرعا يتسلّقانِ تلّةً حادّةً عند جسرِ «تيسّيه».

ما إن وصلا إلى أعلى الجسرِ حتّى نزلا منحدرًا باتّجاهِ دربٍ يؤدّي إلى معركةٍ أبديّةٍ بوجهِ عواملِ التّعْريةِ الطّبيعيةِ. صخورٌ مسطّحةٌ مع تجاويفَ عميقةٍ وشقوقٍ تُشكّلُ أخطاراً حقيقيّة لكواحلِ المتنزّهين.

ـ «قلْ لي، محمود، قرأتُ في الصّحيفةِ أنّ صديقَك الغنيّ قد أقصى زوجتَهُ عن أموالهِ مطبّقاً الشّريعة. هل صحيحٌ أنّ الإسلامَ يمنعُ المرأةَ من امتلاكِ المالِ عندما تتزوّج؟» سألتهُ فاوو ببراءةٍ.

ـ «لا! من روى لكِ ذلك؟ أبداً. هل تعلمين أنّ النّبيّ (صلّى اللهُ عليهِ وسلّمَ) كان موظّفاً عند المرأةِ الّتي أصبحتْ زوجتهُ في ما بعد؟ وهذا لم يمنعْهُ منَ الاستمرارِ في العملِ لديها. أمّا رجلُ المالِ هذا، فأمرهُ مختلفٌ». أجاب محمود بمرح.

ـ «نعم، ولكن، هل صحيحٌ أنّهُ لا يوجدُ اتّفاق زواجٍ في الجزائر؟» سألته فاوو باهتمامٍ.

ـ «هذا صحيح! لا وجود لاتّفاق الزّواج في الجزائر؛ لكن لا تُحْرَمُ الزّوجةُ من الأملاكِ الّتي يملكُها الزّوجُ. بالاضافةِ أيضاً إلى أنّ القانونَ الجزائريّ يفرضُ التّفريقَ بين أموالِ الزّوجينِ».

ـ «آه حسناً!» وافقتْ فاوو ..

ـ «الآن، بالنّسبة إلى رياض خُرطال، فإذا حدّدَ في وثائقِ تأسيس شركتهِ أنّهُ يخضعُ في زواجِهِ لنظامِ التّفريقِ بين الأموال، فلأنّه في رأيي، لا يريدُ أن يشاركَهُ أحدٌ في ملكيةِ الشّركةِ سوى أولئك الّذين يختبئون خلفَ اسمِهِ.

في الجزائر، يقضي العرفُ بأن يكونَ كلُّ ما ننجزُهُ لمصلحةِ العائلةِ. فإذا حرمَ رياض خرطال زوجتَهُ من ثروتِهِ، فليس هذا إلاّ من أجلِ إرضاءِ مموّليهِ السّريّين الذين لا يقبلونَ إلاّ بالمشاركة معهُ، معه هو وحدهُ. وهكذا في حالِ وفاةِ الرّجلِ التّابعِ لهذا النّظامِ، فإنّهم لا يريدونَ أن يتواجهوا مع زوجةٍ لا تفهمُ صراعاتِ السّلطةِ هذه. كلُّ شيءٍ يعودُ إليهم قانونياً وتصبحُ زوجتُهُ تلقائياً غير وارثة.

لكن عندما نبني امبراطوريّةً مماثلة، نفكّرُ حتماً في الموتِ. كما كان يقولُ أحدُ الأصدقاءِ بهذا الصّدد: «من يريدُ أن يبني ثروة لن تستفيدَ منها زوجَتُهُ وعائلتُهُ إذا رحل لسوء الحظِّ عن هذه الدّنْيا؟ من تقاليدنا أن نفكّرَ في عائلتنا دائماً، حتّى عندما نبني كوخًا من الخشبِ، فهذا يكونُ أوّلاً وقبلَ كلِّ شيءٍ من أجلِ مصلحةِ أولادِنا». شرح لها محمود.

ـ «ألا تجدُ أنّ أمرَ اللجوءِ إلى اسمٍ مستعارٍ في بدايةِ الأمرِ عند إنشاءِ قناتِهِ ليستْ طريقةً بارعةً للتّخلُّصِ من ضرورةِ تبريرِ الأموالِ الضّخمةِ لرأسمالِ الشّركة؟ إيداعُ عشرةِ ملايينَ يورو، يفترضُ أن يكونَ لدى رَبِّ العملِ هذا في فرنسا نشاطٌ رابح يدرُّ الكثيرَ منَ الأرباحِ ويواجهُ التزاماتٍ ضريبيّة. وهذه ليستْ حالتُهُ، وفقًا لتقريرِ الصّحيفة. ثمّ، في أيّ مصرفٍ فرنسيّ، كانوا سيسألونَهُ عن مصدرِ هذه الأموالِ، خاصّةً إذا كان هذا المالُ يأتي من الخارج». أجابتْ فاوو.

ـ «هذا ممكنٌ. ومع ذلك كان له مؤسسةٌ في فرنسا. شركةُ خُرطال للصّيدلةِ هي مؤسّسةُ توزيعِ منتجاتٍ صيدلانيّة. رياض خُرطال الّذي يملكُ سبعينَ حصّة من أصلِ مئتين وعشَرة أسهمٍ في هذه المؤسّسة، حلّت البركةُ في يدِه عندما انطلقَ بمشاركةِ اثنينِ من رفاقِهِ بجمع عمليٍّ للأدويةِ التي يرميها الضمان الاجتماعيّ وأخذوا يصدرونها إلى الضّفةِ الآخرى من البحرِ المتوسّطِ وتقريباً بالسعر نفسه للأدويةِ الصّادرةِ من أمّهاتِ هذه الوحداتِ الصيدلانية. قياساً على أسعارِ شراءِ هذه المنتجاتِ والتّسهيلاتِ المتوافرة لهُ في الجزائر، نتخيّلُ بسهولةٍ الثروةَ الّتي نجحَ في جمعِها. بالتّأكيدِ، هذا لا يبرّرُ أيَّ وجودٍ لهذا الكمِّ الهائلِ منَ المال. شريكاه لم ينعما بحظّ مماثل لحظّه؛ كان الاثنان موظّفَين عندَهُ. فضلاً عن ذلك فإنّ أحدهما يتعفّنُ حاليًّا في سجنٍ في الجزائرِ كالمجرم الحقير». قال محمود.

ـ «هل تدرُّ تجارةُ الأدويةِ هذا القدرَ الكبيرَ من الرّبحِ في الجزائر؟» سألته فاوو.

ـ «تقريباً من المستحيلِ أن تتمكّنَ شركةٌ صغيرةٌ تصدّرُ الأدويةَ والمنتجاتِ المخصّصةَ للصّناعةِ الصّيدلانيّةِ من كسبِ هذا المقدارِ من الأرباحِ. من جهةٍ أخرى، تشيرُ الصّحيفة إلى أنّه من أجلِ التّهرّبِ من أيّةِ مساءلةٍ حولَ مصدرِ هذه الأموالِ، توجّه إلى ذلكَ المصرفِ الشّهير البنك الدوليّ، لست أدري ماذا!» أجاب محمود.

انعطفَ الاثنانِ نحو اليمين وسارا باتّجاهِ التّلّةِ الثانية. بدآ بتسلُّقِها. بعد عشرِ دقائقَ، بلغا القمّةَ فوجدّاً نفسيهما وجهاً لوجهٍ أمام عمودٍ معدنيّ عُلِّقتْ عليه

لافتتانِ عموديتانِ تدلاّن على أخاديدِ جرفِ «الباوو» وموقعِ قرية روغون.

ـ «ها هي القريةُ. أترى هناكَ، إلى جهة اليسار، ذلك هو منزلي». قالت فاوو وهي تشيرُ بإصبعها إلى كومةِ البيوتِ الصّغيرةِ الّتي يبعدُ أحدها عن الآخر بضعةَ أمتار.

ـ «نعم، أرى. بِإمكاننا أن نتوقّفَ قليلاً، أترغبين في ذلك؟» سألها محمود.

ـ «إذا أردتَ، يا صديقي. أترغبُ في سندويشٍ صغير؟ تفضّلْ، هذا بالجبنة».

ناولتْهُ ثُلثَ رغيفٍ محشوّاً بالجبنةِ استلّته من حقيبةِ ظهرها.

ـ «أتعجبكَ النّزهةُ؟ هل أنتَ تَعِبٌ ؟» سألته فاوو مبتسمةً.

ـ «لا تقلقي. كلّ شيء على ما يرام. لم أفكّرُ البتة في أن أقابلَ كُلَّ هذا الجمال».

عندما انتهيا من تناول الطّعام، تمدّدا على العشبِ المُسْمَرِّ، في فسحةٍ ضيّقةٍ في ظلِّ شجرةٍ صغيرةٍ. كانتْ فاوو مُغمضةَ العينين عندما مال محمود نحوها. طبعَ قبلةً على جبينِ صديقتِهِ، أتبعَها بقبلةٍ أخرى ثمّ التقتْ شفاهُهُما في قبلةٍ طويلةٍ.

استسلمتْ فاوو لعناقِ محمود ومداعباته. فكَّ أزرارَ بنطلونها الجينز ودسّ يده في مؤخّرتها النّديّةِ. نزعتْ فاوو حذاءها وأخفضتْ بنطلونها وتلوّتْ تحتَ تأثيرِ سُلطةِ محمود. ضمّتْ محمود بيدٍ بينما أصابع يدها الأخرى تتحسّسُ ظهرَ محمود وصدره. ذابا معًا طوال نصفِ ساعةٍ في هذا المنظرِ البرّيّ المُقْفِر.

فيما كانا يعودان إلى منحدرالطّريقِ من أجلِ الصّعودِ إلى قمّةِ التّلةِ الأولى عند ضفّةِ مجرى النّهر الضّيّقِ، التفتَتْ فاوو نحوَهُ بكلِّ هدوء:

ـ «كنتُ أريدُ أن تشرحَ لي أمرًا قرأتُهُ في الصّحيفة: إنّهُ عنِ الفرقِ بين الشّركةِ ذات المسؤوليّةِ المحدودةِ SAS والشّركةِ ذاتِ الأسهمِ البسيطة SARL . ولماذا أنشأ هذا الرّجلُ SAS بدلَ أن يفعلَ كما يفعلُ الجميعُ؟»

ـ «اختار خُرطال شركةً مساهمةً بسيطةً وليسَ شركةً ذاتَ مسؤوليّةٍ مطلقةٍ أو بحسبِ التّعبير المعروفِ سخ، لأنّ هاتينِ الأخيرتينِ لا يمكنُ أن تناسباهُ إذ تفرضان عليه وجودَ سبعةِ شركاءَ له على الأقلِّ. ليسَ هناكَ في القانونِ التّجاريِّ هنا ولا في أي مكانٍ آخرَ غيرُ نوعين من الشّركاتِ: الشّركةُ الفرديّةُ

اللّتانِ SAS والشّركةُ ذاتُ الأسهمِ البسيطةِ EURL ذاتُ المسؤوليّةِ المحدودةِ تسمحان له بأن يكونَ المساهمَ الوحيدَ.

في الجزائرِ، كانَ قد أسّسَ شركةَ خُرطال للطّيرانِ كشركةٍ فرديّةٍ ذاتِ مسؤوليّةٍ محدودةٍ EURL وكذلك بالنّسبةِ إلى مصرفِ خرطال. لم يجرؤ أحدٌ في الجزائرِ على أن يسألَهُ عن مصدرِالخمسينَ مليار سنتيمٍ الّتي تكوّنُ رأسمالَ المصرفِ، وعنِ الخمسةَ عشرَ ملياراً الّتي تكوّن رأسمالَ شركةِ الطّيران. لم يكنْ يمكنُهُ، في رأيي، أن يتهرّبَ من السّؤالِ الحَتْميّ من أين أتَت العشرةُ ملايينَ يورو الّتي يودَعُ خمسةُ ملايينَ منها نقداً، هذا إذا صدّقنا ما قيلَ في الصّحفِ. أعتقدُ أنّه لجأ إلى قانونِ يوليو/تمّوز 99 لإنشاءِ الشركة ذاتِ الأسهمِ البسيطةِ SAS . هذه الشركةُ تفترضُ وجودَ شركاءَ مرتبطينَ بعقدٍ موثّقٍ ويقدّم تفويضاً مطلقاً للممثّلٍ عن الشّركةِ يكونُ هو الوحيدُ الّذي يظهرُ اسمُهُ على العقود».

ـ «انتظرْ، تقصدُ أنّ القانونَ يسمحُ بهذا النّوعِ من الاتّجارِ والتّملُّصِ من مستحقاتِ ضرائبِ الدّولة؟» سألته فاوو وقد أخذتها الحماسة فجأة.

ـ «لا، أنتِ لم تفهمي جيّداً. القانونُ يسمحُ للمساهمِ الوحيدِ أن يكشفَ عن هويّةِ شركائهِ عندما يُسألُ عن مصدرِ أموالِهِ، فقط أمامَ المحقّقين». أجابَها محمود.

ـ «على كلِّ حالٍ، لقد تغلّبَ على الفرنسيّينَ في عقرِ دارهم». أجابتْ فاوو بفخرٍ.

لم يَردّ محمود على ملاحظةِ صديقته. ففي رأسهِ تجولُ أسئلةٌ كثيرةٌ مرتبطةٌ بنشاطاتِ ملكِ المالِ هذا، وبالمعلوماتِ الّتي حصلَ عليها في باريسَ.

من بين هذه الأسئلةِ سؤالٌ محيّرٌ: ما الّذي دفعَ رياض خرطال إلى الاعترافِ بسبعة وثلاثين ألفَ يورو لإنشاءِ قناتِهِ في الوقتِ الّذي يفرضُ فيهِ دفترُ شروطِ المجلسِ الأعلى للإعلامِ المرئيّ والمسموعِ من مالكِ قناةٍ أكثرَ من هذهِ الودائعِ بكثيرٍ. علمًا أنّ خرطال تي. في لا تكسبُ سنتيماً واحدًا من خدماتِها الإعلانيّةِ.

كيف يمكنُ مستثمراً معروفاً بمهاجمتِهِ البيروقراطيّة المُطلقة المتّسلطة في البلدِ، أنْ يحافظَ على تدفّقِ دوّامةٍ ماليّةٍ وعلى عدمِ التردُّدِ أمامَ نفقاتٍ خياليّةٍ: كاستئجار مقرِّ الاستديوهاتِ، وأجورِ التِّقنيين والإعلاميين والطاقمِ الإداريّ والمحرّرين اللاّمعين وكبارِ الأسماء في دنيا الإعلام الّذين يتقاضون أتعاباً وفقاً لعددِ الصّفحاتِ الّتي يكتبونها على غرارِ بعضِ الصّحافيين النّجومِ وايرفيه بورج، وهي تفوقُ كُلّ التوقُّعات؟ أصحابُ هذه الأسماءِ لا يأتونَ لدعمِ ملياردیرٍ هو موضعُ جدالٍ ومثارُ شبهاتٍ حولَ شخصِهِ فقط من أجلِ أجورٍ عاديّة.

اتّصالاتُ محمود في فرنسا جعلتْهُ يدركُ أنّ الملياردير كان يدفعُ أتعابَ العاملين معه الحاليينَ، موظّفينَ ومستشارينَ، نقداً. وكذلك تتمتّعُ هذه الشخصياتُ بالسرّيةِ المطلقةِ أمامَ النظام الجبائيّ للدّولةِ الفرنسيّةِ.

كان زُملاؤهُ يتساءلون عن فائدةِ الإنفاق الفاحشِ على ايجارِ الساتيلايت وشراءِ الكليبّاتِ والوثائقيّاتِ، وكذلك عن الحفاظِ على هذا الدهليزِ الّذي يبتلعُ الكميّاتِ الهائلة من المالِ، والّذي يعجزُ أيُّ خطابٍ ديماغوجيٍّ عن تبريرِ وجودِهِ وضرورتِهِ.

لم تَكسب السّاحةُ الإعلاميّةُ الفرنسيّةُ أيّ جديدٍ مع انطلاقةِ هذه القناة. كذلكَ بالنّسبةِ إلى الجزائريّينَ، لم تقدّم نشاطاتُ هذه القناة أيّةَ فائدةٍ إلى البلدِ. بل على العكسِ من ذلك.

سارا بمحاذاةِ ضفّةِ مجرى النّهرِ الضّيّقِ باتّجاهِ أسْفَلِهِ. ثمّ سلكا درباً ضيّقاً على مدى أربعين دقيقة وأخيراً وجدا نفسيهما فوق إحدى المنصّات الّتي انطلقا منها في بدء جولتهما. تعجّبَ محمود لوصولِهما فجأة إلى نقطةِ الانطلاق.

ـ «انظري، وكأننا عقدنا حلقةً كبيرة». قال محمود خافيًا أفكارهُ البعيدة.

ـ «نعم، فعلنا ذلك». أجابته وهي ترسمُ أمامه دائرةً في الهواء.

وصلَ الثنائيّ في السّاعةِ الخامسة مساءً إلى المنزلِ الصّغير. ارتميا معًا تحت الدوش وتمتّعا مرّةً أخرى بلحظات حبٍّ عاصفٍ وحنون.

حملت فاوو القهوة إلى شرفةٍ صغيرة مشتركة مع المطبخ. جلسا على كرسيينِ طويلين من الخيشِ مقابلَ الشّارعِ الكبيرِ. أعادهما هديرُ محرِّكٍ من تأمّلاتِهما البعيدة. ابتسمَ ابنُ فاوو البكرُ لأمّهِ، كان برفقةِ فتاةٍ جميلةٍ تربطُ شعرها كذيل حصان ببكلةٍ مطّاطيّةٍ. قبّلَ الشّابُّ والشّابّةُ فاوو ثم مدّ كلٌ منهما يدًا خجولةً نحو محمود. في المساءِ، في وقتٍ متقدّم من اللّيلِ غادرَ آلان وكارول منزلَ الأهل.

عندما استيقظتْ فاوو كان وجهها مختلفًا بعد ليلةٍ من الأرقِ والكآبةِ والإحساسِ بالحزنِ بسبب دنوّ نهايةِ إقامةِ الرّجُلِ الّذي أيقظَ فيها شياطينَ غرامٍ لا حدودَ لهُ. بعدَ قليلٍ ستصحبُهُ إلى مارسيليا. سيعودُ إلى بيتِهِ، إلى وطنِهِ. وليس لديها أيّةُ وسيلةٍ لمعرفةِ متى يكونُ لقاؤهما المقبلُ. وستتوهُ هي في متاهاتِ حياةٍ رتيبةٍ تترنّحُ وفقَ التعييناتِ في محطّاتٍ دبلوماسيّةٍ في إفريقيا وفي البلادِ العربيّة، فيما يكونُ هو غارقاً في عملِهِ، وهو البارعُ في تدابيرِهِ بحيثُ لا يسمحُ بالكشفِ عن شيءٍ من حياتهِ.

القهوةُ القويّةُ لم يكنْ لها أيُّ طعمٍ هذا الصّباحَ في فم فاوو المختنقِ بمشاعرِ العجزِ والأسى. تذكّرت اللّحظاتِ الأولى الّتي اكتشفتْ فيها فجأةً الإحساسَ الّذي تشعرُ بهِ نحوَ هذا الرجلِ الّذي يمثّلُ لها جذورَ هويّتِها الضّائعة وأُطُرَها وربّما قوّةَ التغلّبِ على المشكلات الّتي يسبّبُها لها ولداها الممزّقانِ هما أيضاً بينَ أصلِهما ومتطلّباتِ البيئةِ الّتي يعيشانِ فيها حتّى الآن.

منذ أن أصبحتْ أرملةً، كلّما تقدّمَتْ في السنِّ شعرتْ بانجذابٍ أكبرَ نحوَ وطنِها الأصليّ، مسقطِ رأسِها. هذا البلدُ الّذي لا تكفُّ والدتُها مليكة عن الإصرارِ عليها لتعيدَ التواصلَ المقطوعَ فيهِ مع سائر أفرادِ عائلتها، الّذين بقوا في الجزائرِ والّذين من جهةٍ أخرى لا تعرفُهم.

«ابنُ بلدي الفحل» كانتْ تقولُ وهي تتحدّثُ عن محمود [أولد بلادي لفهل].

تذكَرتْ تفاصيلَ سهرتِهما الأولى على شرفةِ ذلكَ المطعمِ في مدينةِ جبيل اللبنانيّةِ عندما طلب منها ألاّ تفكّرَ إلاّ في اللّحظةِ الحاضرةِ وأنْ تنسى كلَّ الباقي. في مساءِ ذلك اللقاءِ الأوّلِ بينهما، سيطرَ على عقلِها الطّعمُ الحامض الّذي كانت تشعرُ به في فمِها، وأبخرةُ النّبيذِ والكحولِ، وألحانُ الموسيقى

المحيطةُ بهما، وانتعاشُ وجهِها بهواءِ البحرِ والانجذابُ الّذي لا يُقاومُ نحو جنّةٍ خضراءَ لعلاقةٍ تتولّدُ، فأنهيا الليلةَ متحاضنَين.

عندما خرجَ محمود من الحمّامِ فُوجئ بها تجلسُ في المطبخِ، جامدةً بدونِ حراكٍ، شاردةً، تحملُ بيدِها فنجانَ قهوةٍ. أدارتْ وجهَها بسرعةٍ في محاولةٍ بائسةٍ لإخفاءِ عينيها المحمرّتين من الدّموع.

ـ «أتريد قهوة؟» قالتْ بهمسٍ..

ـ «لو سمحتِ! ولكن، ما بكِ يا عزيزتي؟ سنلتقي مجدّداً مرّاتٍ ومرّات، إلى أن تملّي منّي. إنّ من يراكِ على هذه الحالِ يظُنُّ وكأنّهُ يومُ دفني!»

أحاطَ خصرَها بيديْهِ وضمّها إلى صدْرِهِ. أحاطتْ عنقَهُ بذراعيها وتركتْ دموعَها تنهمر. حاولَ محمود جهدَهُ ان يُخفِّفَ حزنَ صديقتِهِ باللّمساتِ وبالكلماتِ الحنونةِ والوعودِ البعيدةِ عن أيِّ اقتناعٍ أكيدٍ. كان يعلمُ أن أمرَ هذه المسألةِ ليس في يده.

حبستْ فاوو دموعَها وهي تتركُ محمود أمامَ ملهى القصبة. لم يكنْ قادرًا على تحمّلِ رؤيةِ دموعِ صديقتِهِ، صفقَ بابَ السّيّارةِ محاولاً بذلك أن يقصّرَ قدرَ الإمكانِ لحظةَ الشؤمِ هذه بالنّسبةِ إليها. انطلقتِ السيّارةُ كالإعصارِ فيما كانَ محمود يختفي في منعطفِ الشّارعِ المجاورِ.

قرع ثلاثَ مرّاتٍ جرس بابِ منزلِ قريبهِ.

ـ «هاي يا ابن العم! لقد بدأ القلقُ ينتابني. كان يجبُ أن تأتي بالأمسِ..

ـ «لم أستطع، يا طاهر». أجابهُ محمود مبتسماً.

ـ «[مرحبا بك!] أهلاً وسهلاً. هذا المساءُ سيأتي قنصلُ الفار، وصديقُك خريبقة ومنَ المحتملِ أيضاً أن يأتيَ البروفسّور آيت.

ـ«أوه يوه! أينَ عثرتَ عليه، هذا الشِّرير؟»

ـ بوف! إنّه من روّاد الكباريه، يا ابن العم. أنا لا أهتمُّ بما يفكّرُ وبما يقولُ؛ المهمُّ أنّهُ يدفعُ حسابَهُ عندي. من جهةٍ أخرى، اليومَ هو السّبت؛ حتماً سيأتي هذا المساءَ، بقدرِ ما نبقيهِ قريباً بقدرِ ما نسيطرُ عليه. أنتَ تعلمُ، كثيراً ما يتسبَّبُ بفوضى عارمةٍ عندما يسكرُ.

ـ «بوف! ربما يكونُ متذمرًا وسريعَ الغضب بسببِ ظروفِهِ الحياتيّةِ هنا».

ـ «أتقولُ ظروفَ حياتهِ؟ الكثيرونَ يتمنّونَ لو يكونون مكانَهُ. فهو يعلّمُ في جامعةِ AIX ، أولادُهُ وزوجتُهُ تديرُ محلَّ بيعِ تبغٍ يسيرُ العملُ فيهِ على نحوٍ جيّدٍ، جميعهم في الجامعة. ولديهِ أوراقٌ ثبوتيّةٌ فرنسيّة».

ـ «ليستِ الماديّاتُ وحدَها هي الأساسُ، يا طاهر؟ لا بدّ أنّهُ غيرُ مرتاحٍ في هذا المنفي وإن كان ذهبيًا بالنّسبةِ إليه». المهمّ، [الله يحسن عونو] ليكن اللهُ بعونهِ. دعنا من ذلك. من جهتكَ، كيفَ حالُك؟ كيفَ حالُ ماري فيكتوار والأولاد؟»

ـ «بخيرٍ. جميعُهم بخيرٍ. لقد كبروا الآن ومشكلاتهم كبرتْ معهم أيضاً».

ـ «آه! زوزوت الصّغيرة، هنا، كانت صديقتي!»

ـ «أوه! لقد أصبحتْ شابّةً الآن».

ـ «لقد مرّتْ أعوامٌ ولم أرهم، آخر مرّة كانت في الجزائر. زوزوت الجميلة. تونتون لا آتُلُ الشَّمَت»».

ـ «حسناً! ستراها بعد قليلٍ. سنمرُّ بالبيتِ، ستبقى. سنأكلُ مع الأولاد وغداً سنذهبُ إلى رؤيةِ سليمٍ وأولادِهِ، سليمٌ AIX سنذهبُ في جولةٍ إلى ساحل الـ ابني البكر، ألا تذكُرُهُ؟»

ـ «كيفَ لا؟ أنا لم أرهُ منذ كان ولدًا. يا ابن العم، غداً سأعودُ إلى باريسَ».

ـ «أه لا![ماكاش منها] هذا ليسَ صحيحًا، أعددْتُ كُلَّ شيءٍ كي نقضي إجازةَ الأسبوعِ معاً».

ـ «مرّةً أخرى، يا طاهر. لديّ عملٌ ويجبُ أن أعودَ إلى الجزائرِ مساءَ الاثنين؟»

ـ «أنتَ هكذا! كلّ مرّةٍ الموّال نفسه. منذ الوقتِ الّذي كنا فيه ننتظرُكما أنتَ ومُنية لقضاءِ بضعةِ أيّامٍ من العطلةِ عندنا هنا».

ـ «سيحصلُ هذا ذاتَ يومٍ، يا ابنَ العم».

كان طاهر يعيشُ في فيلّلا صغيرةٍ عندَ مدخلِ المدينةِ. الحيُّ هادئٌ ويضمُّ طبقةً راقيةً من السّكان. لم يكن محمود يعرفُ أيَّ واحدٍ من أولادِ طاهر الموجودين إلى طاولة الغداء باستثناء ماري فيكتوار الّتي وجدَ أنها لا تزالُ فاتنةً، وقد ازدادتْ صِباً مع خسارةِ بعضِ الكيلوغرامات عن آخر لقاءٍ معها في

بيت محمود في الجزائر عام 1991. انسحبَ الرّجلان بعيداً عن المائدة. اقترحت ماري فيكتوار على طاهر احتساء مشروب مهضِّمٍ على الشّرفة المطلّةِ على حديقةٍ صغيرةٍ متروكةٍ بدونِ عنايةٍ. اكتفى محمود بفنجانِ قهوةٍ بلا سكّر. تناقشا في أمورِ الوطنِ وتطورِ الأحداثِ منذ آخرِالمستجدّاتِ الّتي جرتْ إثرَ عودتِهِ المفاجئة من بيروتَ. سألته ماري فيكتوار عن مبلغِ خيبةِ حوريّة أمامَ استحالةِ انتقالِها إلى الخارج مع هذه العودةِ غيرِ المتوقّعةِ.

«مسكينةٌ حوريّة، كانتْ ترغبُ في الخروج من هذا البلد!»ـ

«حسناً، إنّها أمورُ الحياة، لا يمكننا فعل شيءٍ إزاءها».ـ

في السيّارةِ في طريقِ العودةِ إلى وسط مرسيليا، اقترحَ طاهر على قريبِهِ القيامَ بجولةٍ في أحياء المدينةِ الجديدةِ.

ـ «ما أحبّهُ في مرسيليا، هو تماماً هذه النّواحي المنزوية الهادئة الّتي لا تزالُ رائعةً. الباقي كلُّه أصبحَ متشابهًا على المقاييسِ نفسها الآن». أجابهُ محمود.

ـ «قلْ لي يا طاهر، هل أنتَ مرتاحٌ في عملِكَ، هل تسيرُ الأعمالُ على نحوٍ جيّد؟»

ـ «نعم، الأمور تسير جيّداً؛ والحمد لله! أنا لا أتذمّر من شيءٍ. أفعلُ كما يفعلُ جميعُ [الشيباني] العجزُ هنا. أرسلُ قسمًا من مُدخّراتنا إلى البلد. لديّ حسابٌ في مصرفِ خُرطال. إنّهم رائعون. أعتقدُ أنّهُ المصرفُ الوحيدُ في العالمِ الّذي يقدّمُ فوائدَ بهذا القدرِ المرتفعِ. كما أنّهم يمتازون بفاعليّةٍ خارقةٍ. يعرفونَ كيفَ يحترمونَ الزبائنَ هناك، خلافًا لسائر المصارفِ عندنا، أقصدُ في الجزائر». أجابَهُ طاهر.

ـ «لا يا ابن العم! أعتقدُ أنّهُ عليك أن تعيدَ النّظرَ في آمالك بهذا المصرفيِّ. ولكنّي أنصحك بسحب أموالك في أسرع وقتٍ ممكنٍ، حتّى ولو كانت حساباتُك DAT مجمّدة مدّة معيّنة».

«حتّى لو جازفتُ بخسارة فوائدي؟»ـ

ـ «أن تخسرَ الفوائدَ اليومَ أفضل من أن تخسرَ رأسمالكِ في ما بعد. لا أحدَ يدري ماذا سيجري غداً».

«آه! يبدو أن هناك شيئاً ما؟ هناك مشكلات لاحقة؟»ـ

ـ «نعم ولا، قد يواجهُ هذا الرّجل مشكلاتٍ كبيرةً».

ـ «ولكنّه مُحصّنٌ وفي أوج قواه. لقد اشترى مجمعاً ضخماً مختصاً بالإعمار والأشغالِ العموميّةِ في ألمانيا. وسيبني قربَ مدينةِ الجزائر مدينةً كاملةً ستحملُ اسمَهُ. لديهِ قناتان تلفزيونيّتان هنا في فرنسا ولندن، وشركةُ طيرانِ خُرطال الخاصّةِ به الّتي أنقذتْنا من القيودِ والبؤسِ الّذي تفرضُهُ شركةُ الطّيرانِ المغربي علينا في عزّ موسمِ الاِصطياف؛ ثمّ هناك الكثيرُ من الجنرالات حولَهُ، حسب ما يُقال».

ـ «ولكنّ من المعروفِ يا عزيزي أنّ العواصفَ تقتلِعُ كلَّ شيءٍ في طريقها؛ وهذا الرّجلُ واقعٌ في مركز العاصفة في الوقتِ الحالي. فكّرْ جيّداً، يا ابن العم، قبل فواتِ الأوان».

ـ «لقد قرأتُ خُزَعْبلاتٍ في الصّحفِ هذا الأسبوع؛ ولكن هذه ليست سوى حماقاتٍ يريدُ الفرنسيّون من خلالها أن يحطّموه لأنّه تغلّبَ عليهم في عقرِ دارهم. هم لا يقبلونَ أن ينجحَ بونيوليٌّ[27]، هذا أمرٌ يزعجُهم».

ـ «طاهر، فكّرْ في سحبِ أموالِكَ. أنا أكلمّكَ بشكلٍ جدّيٍّ. ضعْها أينما تشاء، ولكنْ لا تترُكَ مالكَ في هذا المصرفِ».

ظلّ طاهر للحظاتٍ مشغولَ الفكرِ. لم يردَّ على كلامِ قريبهِ. توقّفتِ السّيّارةُ أمامَ ملهى القصبةِ. نزلَ الرّجلانِ، استرعت انتباهما أصواتُ نساءٍ وصراخهن. التفتا، فشاهدا مومستينِ تتشاجرانِ أمامَ رواقِ منزلٍ. تبادلَ القريبانِ نظرةَ مكرٍ مبتسمينِ واتّجها نحو الكباريه.

في السّاعةِ الثّامنةِ والنّصفِ، وصلَ إلى القصبةِ قنصل الفار مراد خلفة، وعلي خريبقة والبروفسّور في الوقتِ نفسه تقريباً. صرخَ محمود من الفرحِ عندَ رؤيةِ علي خريبقة، إذ يعرف أحدهما الآخر منذ أيّامِ الثّانويّة. لم تؤثّرِ البتة التغييراتُ المتناقضةُ تماماً الّتي طرأتْ على حياةِ كلٍّ منهما في الصّداقةِ الّتي جمعتْهما طوالَ سنواتِ الزّمالةِ.

ـ «يبدو أنّكَ أصبحتَ عجوزاً، مومو؟ لقد كان زعيمَ المجموعةِ في الماضي».

قال موجّهاً الكلامَ إلى القنصلِ العام.

ـ «وأنت، ما هي الوصفةُ الّتي اتّبعتَها للحفاظِ على شبابكَ هكذا؟» سأله محمود ممازحاً.

ـ «أووه شاب؟ أنت تجاملني، يا صديقي! علقنا في شِباكِ العُمُرِ، الآن. بالنّسبة إلى من تخطّوا مثلنا الخمسينَ ويعيشون بوِفاقٍ مع أنفسهم».

ـ «أنتَ محقٌّ، يا صديقي!» قال آيت وقد بدأ تأثيرُ الخمر يظهرُ عليه..

ـ مسح بقفا يدِهِ آثارَ رغوةِ الجعةِ عن شفتَيه، جلسَ جيّداً وأخذَ يشرحُ انحرافاتِ السّلطةِ في الجزائر. كانت براهينُهُ مقرونةً بإثباتاتٍ تنُمُّ عن سدادِ الرّأي في التحليل. كان محمود يصغي بدونِ اكتراثٍ إلى كلامِ هذا الّذي يُبدي معارضةً تامّةً لمختلفِ السّلطاتِ المتعاقبةِ. بالنّسبةِ إليه، ليستْ حكاياتُ خرطال سوى إعرابٍ أحمقَ عن الرّغبةِ في مواجهةِ كيانٍ تدعمُهُ هذه السّلطةُ نفسُها، فهو يسعى أيضاً إلى مزاحمةِ السّلطةِ نفسِها على جزءٍ صغيرٍ من نفوذِها السّياسيّ بفضلِ الوسائلِ الماليّةِ والاقتصاديّةِ والإعلاميّةِ الّتي يتمتّعُ بها. مع ذلك قال له:

ـ «السلطةُ تتلاعبُ بالجميعِ في هذا البلدِ. لا يفوتُها شيءٌ. إنّها تتلاعبُ بالأحزابِ وبالحياةِ الاجتماعيّةِ، تماماً كما تلاعبتْ بالمدرسةِ والدّين. والنتيجةُ معروفة».

ـ «ياوو! إننا نتحدّثُ هنا عن القطاعِ الخاصّ، يا صديق!» قال خريبقة في محاولةٍ يائسةٍ منه للتّملّصِ لحظةً من هذا الّذي يستقطبُ الكلامَ منذ بداية السّهرةِ.

ـ«أيُّ قطاعٍ خاصٍّ؟ هل يمكنُ الكلامُ على القطاع الخاصّ في غيابِ المبادرةِ الحرّةِ؟ اللّهُمّ إلاّ إذا كنت لا تأخذُ في الاعتبارِ عصابةَ المهووسين بالأعمالِ الطُّفيليين الراضخينَ لقيودِ البيروقراطيّة؛ أهذا هو القطاعُ الخاصّ عندك؟»

ـ «لا أظن أنّ هناك بعضَ المبالغةِ من جهتِك، يا سي بندو». قال القنصلُ بهدوء.

ـ «[يا أولدي] يا بُنيَّ، لا يمكنُ أن يكونَ هناكَ قطاعٌ خاصٌّ في الجزائر في الوضعِ الحاليّ للأمور».

ـ «أوه، هناك فعلاً أناسٌ أثرياءُ ويصنعونَ الثرواتِ، ومنهم صديقُنا الشّابُّ خرطال». قال طاهر.

ـ «الثرواتُ، يا عيني! بل مضارباتُ! القطاعُ الخاصّ في الجزائر ليس وليدَ شبكاتِ السّوقِ كي يقبلَ قواعدَ السّوقِ. إنّهُ نابعٌ من أجهزة الإدارةِ والبيروقراطيّة. وهذهِ الشّبكاتُ تُنظّمُها قوانينُ النِّظامِ المافيَوي وتسيرُ كالمافيا تماماً. ودولتُكَ لا تقومُ إلاّ بتشجيعِ نموِّ هذا النّوعِ من الكياناتِ. انظرْ ماذا يفعلونَ اليومَ. لا يزالونَ يتلاعبونَ ببؤسِ الشّباب، إنّهم يقومونَ بعمليّاتِ خداعٍ واسعةِ النّطاقِ. قلْ لي كيفَ يطبّقونَ برامجَ تشغيلِ الشّبابِ؟»

ـ «ومع ذلك، أعتقدُ أنّ الكحول بدأتْ تؤثّرُ تأثيراً قوياً في أعصابِهِ». قال عليّ خريبقة بمرح.

انتابَ بندو الغضب أمامَ قهقهاتِ الرجالِ المجتمعينَ حولَ الطّاولة:

ـ «لا! لا علاقةَ للكحولِ بالأمر. أنا أمنحُكَ فرصةَ الخروجِ من تأثيرِ سلاجقة السّلطة، يا صديقي. حكومتكَ تندمجُ مع أعمال المهربين السّيّئة. إنها تشجعُ اقتصادَ البازار على حسابِ تحريرِ الاقتصادِ الوطنيّ والانتاجِ الوطنيّ...»

ـ «أظُنُّ بدوري أنّ الليبراليةَ هي حتميّةٌ». قال محمود بابتسامةٍ ساخرةٍ على شفتيه.

ـ «نعم، لا يمكنُ أيَّ بلدٍ مقاومةُ المرحلةِ الانتقاليّةِ المؤلمةِ. الصّين والهندُ شهِدا تداعيات هذه الخياراتِ نفسها». قال خريبقة.

ـ «لا يا سيّدي. أنا لا أتكلّمُ على هذا. انظرْ جيّداً إلى ما يحصلُ في مصر. برغم نموِّ الليبراليّةِ العنيفِ، فهم نجحوا في إحياءِ صناعةِ الأثاثِ الّذي يصدّرونَهُ إلى العالمِ العربيّ. الماليزيّون نجحوا في تزويجِ خشبِ الزّانِ والحديدِ لتطويرِ صناعةِ قطعِ الأثاثِ الّتي تغزو السّوقَ الجزائريّة. وحُماةُ اقتصادِ البازارِ هم الّذين يذهبونَ إلى ماليزيا لاستيرادِهِ. فيما عندنا، الأثاثُ البربريّ اختفى نهائيًا من السّوقِ. ومع ذلك، لا تحاولْ إقناعي بأنّ حكومتَكم لا تقومُ إلاّ بتشجيعِ الاستهلاكِ إلى أقصى حدٍّ. استهلاكٌ يتّخذُ لدينا أشكالَ السّيطرةِ والاحتلال. مع حماقة حكاية تشغيل الشّباب، يشجّعون بقوةٍ هذا النّوعَ من الاستهلاك. كلُّ البرنامجِ يقومُ على التخلّي عن المحالّ الصّغيرةِ في كلّ بلديةِ للشّبابِ

العاطلينَ عن العملِ من أجلِ تحويلهم إلى باعة ملابسِ وخردة مختلفة يستوردُها باروناتُ التّجارةِ الخارجيّة. في النتيجةِ هم يقيمون شبكة توزيعٍ للمنتجاتِ المستوردةِ. بالتّأكيدِ، أنا لا أتكلّمُ على الهدفِ الآخرِ الّذي يكمنُ في إبعادِ هؤلاءِ الشّبابِ عن أخطار الانزلاقِ والارتماءِ في أحضانِ المعارضة».

بدا كأنّهُ كان ينتظرُ منذ مدّةٍ طويلةٍ الفرصةَ السّانحةَ لإحياءِ تجمّع جماهيري.

التفتَ فجأة نحو طاهر، وكأنّهُ يريدُ تصفيةَ حسابٍ قديمٍ معه:

ـ «حكوماتُ وطنِكَ تخشى من الشّبابِ خشيةً كبيرةً. حيال عجزِهم عن الإحاطةِ بهم وعدمِ وجودِ أحزابٍ سياسيّةٍ، فهم يحبسونَ البلدَ تحتَ هذهِ السّيطرةِ وهذا التّسلطِ حيثُ تكونُ عمليةُ الموافقةِ محصورةً بحاشيةِ السّلطةِ الفاعلةِ فقط. ألم يحاولوا خلقَ طبقةٍ من المتملّقين الّذين يسمّونهم نبلاءَ الرّئيس؟ خُرطالكم يا طاهر هو جزءٌ منهم. والدليلُ أنّهم جميعهم مزوّرون على الصّعيدِ الاقتصاديّ. عدا قطاع المحروقات، لم يجدوا أيَّ منقذٍ لأغنى مؤسّسةٍ لديهم».

ـ «آه هنا! أنا أتّفقُ معك أيّها الصّديق». قال علي خريبقة..

ـ «مع كلّه!» قال له محمود ممازحاً..

ـ «نعم، لأنّهُ كي يحصلَ على هذه المؤسسةِ أو يشتريها لا بدّ أن تكونَ هي ذاتها تمثّلُ قيمةً تجاريّةً. والقيمةُ التّجاريّةُ لمؤسّسةٍ ما يحدّدُها الحيّزُ الّذي تحتلُّهُ في السُّوقِ لا غير».

ـ «هاه، خلاص. إنّهُ يستغلُّ أبسطَ منفذٍ لترويجِ أفكارِ أصدقائِهِ الإصلاحيين».

قال قنصُلُ الفار الّذي يبدو مستخفًّا بعلي خريبقة.

ـ «اسمعْ، هذا صحيح. في ذلك اليومِ، كنتُ أسخرُ من خبرٍ تناقلتْهُ معظمُ الصّحفِ الجزائريّةِ. قالوا بكثيرٍ من الصّخبِ والضّجيجِ أنّ صاحبَ مصنعِ سيّاراتٍ لكن . «SNVI» كوريّ الجنسيّةِ سيشتري الشّركةَ الوطنيّةَ للعرباتِ الصّناعيّةِ في الحقيقة هذا هراء وضلال. لماذا تريدُ أن يُرهِقَ صانعُ سيّاراتٍ، لديه السّوقُ كلّها بين يديه، كاهلهُ بأوزارِ مؤسسةٍ تُحْتَضَرُ كي تنتجَ عرباتٍ ثمّ يبيعها في السّوقِ الخاصّ».

ـ «باه، ليس هناك سببٌ آخر». قال بندو منزعجاً..

ـ «أخيراً، بعد كلِّ ما قيلَ، لا أحدَ يحبّنا إلى هذه الدّرجةِ. هم لا يقبلون نجاحنا». قال طاهر.

ـ «أنت محقٌّ، يا ابن العم. إنّه عالمُ مجانينَ نعيش فيه الآن. وبنظامِ تأشيراتِ الدّخولِ إلى بلادهم، الّذي يطبّقونَهُ علينا، يفرضونَ العيشَ في غيتوات ضخمة. «بأيِّ حقٍّ يحرمون أطفالَنا من زيارةِ برج إيفل أو شلاّلاتِ نياغرا؟

ـ«رأيُ الأقوى هو الرأي الأفضلُ...» قال علي خريبقة.

تناولَ الرِّجالُ الخمسةُ العشاء، شربوا وتناقشوا مدّة من اللّيل في جوٍّ هادئٍ برغمِ سيطرةِ بندو الظاهرة.

7. بونيول: اسم آخر لـ «رأس بطيخة» تسمية سخيفة ينعت بها بعض الفرنسيين العرب المغتربين. كان الألمان أيام تسلط النازيين واحتلالهم لفرنسا يهزأون من الفرنسيين وينعتونهم بـ «الجردان»، رأس البطيخ ألخ. إلا أن الفرنسيين أصبحوا يطلقونها هم أيضاً على الجزائريين.

الفصل الثاني والعشرون

المؤامرة

في المساءِ نفسه وفي فيلّلا في حيّ بارادو في حيدرة، كانتِ الغيرةُ المَرَضيّةُ تتأكَلُ حميود درابكي وهو يحاولُ إقناعَ رياض خرطال بالانفصالِ عن هو خائنٌ «Le Pays» عمرو. في رأي الدّرابكي أنّ مديرَ نشر الصّحيفة اليوميّة بسببِ نشرِ مقالات تتضاربُ مع مصلحة خُرطال هولدينغ.

أمّا رياض خُرطال فكانت نظراتُهُ قاسية، يشربُ عصيرَ البرتقالِ ويبدو غارقاً في همومٍ أخرى. بصعوبة كان يصغي إلى حُججِ الدّرابكي الّذي بدا مهيبًا وهو يعلنُ لرياض خُرطال ولمعاونيه المقرّبين الرّسالةَ الموجّهةَ إليهم من السّيناتور عن طريق البروفسّور. حتى أن حميود درابكي كان يحاول جهدَهُ كي يبدو كأنّهُ جزءٌ منَ القرار.

ـ «ينصحُكم السّيناتور بالإعلانِ سريعاً عن إنشاءِ محطّةٍ لتحليةِ مياهِ البحرِ تموّلها مجموعتكم».

ـ «السيّدُ الأعلى بحاجةٍ إلى دعمٍ، مع أن عامين لا يزالان أمامه قبل نهايةِ ولايتِهِ. لن يجدَ أحدٌ ما يقولُهُ بعد هذا الإعلانِ و...»

ـ «تماماً، هذا سيكون أفضلَ طريقةٍ لإقفالِ منقارِ هذه الحثالة». قال المديرُ العامُّ لمصرفِ خُرطال.

ـ «وكم تكلِّفُ هذه المحطّةُ؟» سأل رياض مسؤولَ المالِ لديهِ بلهجةٍ اتّهاميّةٍ..

ـ «بوف، بين 20 و 40 مليون دولار أميركي».

ـ «لا يهمُّ، اشترِ خمسَ محطّاتٍ. واحدة قبالة مرفأ مدينة الجزائر، واحدة بجانب ساحل عين طايا، والاثنتان الأُخريان في وهران والخامسة في مستغانم».

ـ «آه نعم، رياض؛ هذا الأمرُ سيكونُ حدثَ العام».

ـ «السعوديّون ممتازون في هذا النّوعِ من الأعمال. أعتقد أنّه بإمكاننا أن ندبّر شيئاً ما مع أصدقائنا في «Hula Soto» ، ثمّ هي مناسبةٌ جيّدةٌ كي نرسل سريعاً

وعلى نحوٍ شرعيّ 200 مليون دولار نحو الضفة الأخرىِ مع هذا المشروع. عصفوران بحجرٍ واحد [حادجة و حويجة]».

دعم سليم اقتراحَهُ غامزاً رياض. حيال ردّ فعل مديرِ مصرفِ خرطال نظر حميود نحو رئيسه.

ـ «أحسنتَ بأنك ذكّرتني بذلك. كدتُ أنسى. أين أصبحتَ مع عمليّةِ تحويلاتِ «بنك سوجينال؟»»

ـ «حوّلنا قبل يومينِ 25 مليون دولار عن طريق «فيبا هولدينغ الدُّوَليّة». أعتقدُ أنّهُ سيكون في جيبنا». أجاب سليم.

أمسك رياض زجاجةَ «أبسولوت فودكا» وملأ نصفَ كوبٍ من الكريستالِ الغجري، ثمّ دفع الزّجاجةَ نحو درابكي، داعيًا إيّاهُ بحركةٍ من يدهِ كي يسكبَ لنفسِهِ كوبًا.

ـ«مع هذا المال سنكسبُ 25% من أسهم «بنك سوجينال». لن يتمكّنَ هؤلاء الحمقى أبداً من الوصولِ إلينا. سأنالُ منهم... واحداً واحداً، بمن فيهم قوّادوهم الّذين غيّروا رأيهم. سأنكحهم، سترى».

ـ «ومن ثمّ سنتمكّنُ من سَوْقِهِمْ بالعصا. لدينا السّلاحُ المطلق، الآن؛ مع قناتَيْ التلفزيون، سنحِلُّ ونربطُ العالم، فضلاً عن أنّ الرئاسة تقتربُ بخطواتٍ سريعةٍ». زايدَ درابكي.

ـ «أستسافرُ إلى باريسَ على متنِ الخطوط المغربيّة؟»

ـ «لا، في النِّهاية سأسسافرُ في رحلةِ طيرانِ خرطال إلى بروكسل. عليّ لقاء شخصٍ في بدايةِ فترةِ ما بعد الظُّهرِ. وفي المساءِ سأستقلُّ القطارَ السّريع TGV إلى باريسَ. ينتظرنا تسجيلٌ نحو السّاعةِ الرابعةِ مساءً. صباحَ الإثنين، سأكونُ هنا، إن شاءَ الله» أجابَ درابكي.

ـ «هل سوّيت الأمورَ مع الفتيان؟» سأله رياض.

تدخّلَ سليم وأجاب بسرعةٍ:

ـ «اذهبْ غداً مباشرةً إلى رؤيةِ «شماسي» في المطار. وقبل ذلك مرَّ أولاً بمكتبي في الإدارةِ العامّة. أريدُ أن أرسلَ معك شيئاً إلى باريسَ».

ـ «آه من أجل تلك الحكاية؟ كالعادة أليس كذلك؟» سأل درابكي.

ـ«نعم، حقيبة فقط. من جهتكَ، لا تحملْ حقيبةَ يدِك. ستكون لديك حقيبةُ طيّارٍ».

ـ «حسناً. ليس هناك أيُّ إشكالٍ». قال درابكي سعيداً لمعرفته أنّهم لا يزالونَ يعهدونَ إليه المهمّات الّتي تتطلبُ وجودَ ثقة، وهذا بالنّسبةِ إليهِ يزيدُ من رأسمالِ رصيدهِ المعنويّ لدى مديريّ هولدينغ خرطال.

ـ «لقد أحسنتَ في تسوية ذلك. لقد قالوا لي إنّ الفتيان من جهة 107 سان سانت دنيس بدأوا يتحرّكون. نسِّقْ مع خالتي وأوقِفْ لي هذه التحرّكات بسرعة. وأنا سأهتمُّ على الدوام بشجيّة. أعتقد في نهاية الأمر أنّ خيار مراد ليس فعّالاً، إنّه سخيفٌ أكثرَ منها».

ـ «أوه! إذا سمحتُ لنفسي، أيّها الرّئيس، كنت قلتُ لهم منذ البداية إنها لم تعمل من قبل في التلفزيون. إنّها صحافيّة جيّدة، بالتأكيد، لديها موقعٌ ونفوذٌ، ليس أكثر».

وهي Le Pays كان الإثنانِ يلومانِها بالفعلِ على المقالِ الّذي ظهرَ في صحيفةِ من المساهمين فيها.

ـ «باه! إنّها حماقاتٌ! لا يوجدُ حولي إلاّ أمثال هؤلاء، صرخ رياض. ثم أضاف بعد أن شرب بقيّة كوبهِ دفعةً واحدة:

ـ «سليم، عجّلْ استعجل حلّ التّحويلاتِ من أجلِ تغطيةِ القروض. هذه البطاقاتُ ستفتحُ لنا أبوابَ الجِنانِ». قال وهو يُظْهِرُ بطاقةَ ائتمانٍ ذهبيّة كان قد استلّها من جيب بلوزته.

ـ «حسناً! العالم كلّهُ مُسْتنفِرٌ في هذه العمليّة»

ـ «ستكونُ غداً عندي على صدرِ صحيفةِ «الهدرة» بعنوانٍ عريضٍ ومقالٍ في الصّفحةِ الأولى وصورةٍ تبرزُ البطاقةَ الذهبيّةَ جيّداً للعيان». قال درابكي مفتخراً.

ـ «أحسنت! أنتَ أخٌ حقيقيّ!». قال رياض وهو يرفعُ كأساً شارباً نخبَ صحّةِ الصّحافيّ.

الفصل الثالث والعشرون

صوتُ سيّده

لا سيّدتي، لا يمكنني فعلُ ذلك». صرخت دُنيا وقد اتّسعتْ عيناها من» الخوف.

ـ «ولكن ليس لدينا أحدٌ لنشرةِ أخبارِ السّاعةِ الثّامنة! لا مجالَ لأن تظهرَ الحمقاءُ الأخرى؛ الثّامنة هي واجهتُنا. نحنُ قرّرنا أنّها ستكون جزائريّةً من بلدنا تلك الّتي تقدّمُ النّشرة». أجابتها «جازية»، مديرة القناة بالوكالة منذ توقيف مديرها الأصلي في مطار هواري بومدين وهو يحاول الخروج بحقيبةٍ محشوّةٍ بالأوراق النّقديّة.

ـ «ولكن سيّدتي، انظري إلى حالة شَعري، ألا ترينَ أنني أرتدي بنطلون جينز وتي شرت؟»

ـ «هذا أمرٌ سهلٌ يمكنُ تدبيره؛ الآن لا تكاد السّاعة تبلغ الثّالثة، نسّقي مع مراد في شأن ورقة الطّريق. بالنسبة إلى الباقي، كلُّ شيءٍ مؤمّن، المُزيّنة والحلاّقة على بُعدِ خطوتينِ من هنا، سيصحبك السّائق على الفور. ستُقدّمينَ نشرةَ الثّامنة. أنتِ تستحقّينَ ما يحصلُ معك، يا ابنتي».

ـ «ولكنّي امرأةُ ميدانٍ، سيّدتي، لا يمكنني أن أقومَ بمهمّةٍ كهذه».

ـ «سترين، كلُّ شيءٍ سيكونُ على ما يرام. أنتِ فتاةٌ رائعةٌ؛ لا تقلقي».

فيما كانت تنزلُ سلالمَ الطبقتين اللتين تفصلان مكاتبَ الإدارةِ عن الجناحِ المخصّصِ للتّحرير، التقتْ وجهاً لوجهٍ شجية، رئيسة التّحرير الّتي كانتْ تصعدُ إلى الطبقة الثالثة، غارقةً في تفكيرٍ عميق. عندما رفعتْ نظرَها نحو دُنيا كانت تبدو وكأنّها ترجِعُ من البعيد. فيما كانتْ دُنيا مذهولةً وفريسةَ خوفٍ لا يوصف:

ـ «آه! شجيّة، أتدرينَ ما يحلُّ بي؟ لقد ألصقوا بي الآن نشرةَ السّاعة الثّامنة!»

ـ «أعلمُ، القرارُ صدر من مدينة الجزائر. مراد ينتظركِ في الأسفل. لا تزعجي نفسَك، كل شيءٍ سيسيرُ على ما يرام!»

ـ «ولكن شجيّة، أنت تعرفينني جيّداً وأنت تعرفين كفاياتي؛ أنا لم أُخْلقْ لهذا العمل. أنا أمرأةُ ميدانٍ. الشّاشةُ والأضواءُ لا تهمّني!»

ـ «أتعتقدين أنّ بنات كريسيان مالار وجماعته أفضل منك؟ هيّا دُنيا، لكلِّ شيءٍ بداية، وأنا متأكّدة أنّكِ ستتألّقين، سترين».

ثمّ ربتت بمودّةٍ الكتف العارية لدنيا إلى أن انتزعت منها ابتسامة. كانت الامرأتان تعرف إحداهما الأخرى من الجزائر. إحداهما كانت تتعاطى النّشاطَ النقابيّ في تلك الفترة في إطار حركةِ الصّحافيّين الجزائريّين وفي الوقت فيما كانت الثّانية تزاولُ مهنتها «Le Pays» نفسه انضمّت إلى فريقِ صحيفة الـ كاتبة تحقيقات في وكالةِ الصّحافةِ الرّسميةِ. كانت شجية تعلم أنّ نشاطَ دُنيا وتصميمها وميلها إلى العمل بشكلٍ مُوازٍ ستدفعها إلى الذروة في تحقيق طموحها المهنيّ.

ستفرضُ هذه الصّغيرةُ نفسَها بوقتٍ أسرع ممّا نظُنُّ، ستُكافحُ كالنِّمرة»» قالت لنفسها وهي تبتعد عنها.

تذكّرتْ وهي تصعد إلى الطبقةِ العليا، الضربة القويّة الّتي سَدَّدَتْها دُنيا إلى كريستيان مالار، نجم القناة، لدى أوّلِ ظهور لها في حلقةٍ مباشرةٍ على الهواء. صعدت دُنيا المنصّةَ مكمّلةً البرنامج بقدر ما هي ناقدة وأبرزت نفسها خلال المناقشة. هذه المرأة الّتي ستصبح «نمرة» القناة لم تكن تجاريه على هواه. استغلّتْ وجود الميكرو مفتوحًا بيدها وتغلّبتْ مرّتين على مُقدّمِ البرنامج، بآرائها المناقضة رافعةً بذلك، في الوقت نفسه، مستوى الحلقة.

تخلص منها الصحافيّ النّجم في الجزء الثّالث من الحلقة، فاستعادت موقعها كصحافيّة تحقيقاتٍ جوّالة، وانتقلت براحةٍ لا مثيل لها من التّحقيقِ الثّقافيّ إلى تقديمِ عرضِ حالٍ أبسطَ إلى تغطيةِ النّشاطاتِ السياسيّةِ، وفقَ احترام قواعدِ اللّياقةِ وآدابِ المهنة. وبكُلِّ مهنيّةٍ تجنّبَتْ أيّ انحيازٍ أو رأي شخصيّ في التّعليقات الّتي اتّسم معظمها بالمبادئ الواضحة.

روحُها المتّقدة وهيئتها الشبيهة بروزا ليكسمبورغ واندفاعُها المطلق ورفضُها أيّ تسلّط وميلُها الدائم إلى احتلال مركزَ القيادة في حياتها اليوميّة وفي عملها، كلُّ ذلك أعطاها هيئةَ المناضلينَ النّقابيّينَ اليساريّين وصفاتهم. هذا

السلوك بإمكانها تقمّصه بسهولةٍ لولا تمسّكها بالقيمِ العربيّة الإسلاميّة، وبالديمقراطيّةِ وقيَمِ التّقدمِ والحداثةِ للمجتمعِ الجزائريّ الّذي لطالما اضطلعت بها.

بعدَ شهرٍ من تقديم نشرة أخبار السّاعة الثّامنة، تربّعتْ على كرسيّ المذيعةِ النّجمةِ للنّشرةِ المتلفزةِ للقناة نفسها بكلِّ براعةٍ وقد ساعدها في ذلك احترامُ زملائها وودّهم لها، هذا التّقدير الّذي استحقّتهُ بسببِ مهنيّتها وصراحتها وذكائها.

بعد ثلاثة أشهرٍ على تقديم النّشرةِ المسائية، اتّخَذَتْ قراراً متهوّراً وقدمت استقالتها من منصبِ مقدّمةِ نشرةِ الأخبار. لم يكن بإمكانها التنازلُ عن مبادئها وعن استقلاليتها واحترامها الأصول. قدّمت استقالتها في سهرةٍ عاصفةٍ إثرَ نشرةِ الأخبارِ واستعادتْ موقعَها كاتبةَ تحقيقات وسطَ زملائها المحرّرين.

كانت استقالتُها بدايةَ السّقوطٍ إلى الجحيمِ بالنّسبةِ إلى القناةِ وموظّفيها. وسرعانَ ما حلَّ الفشلُ في جميعِ أجهزةِ القناة...

مع ذلك كانتْ مُشرقةً خلالَ تسجيلِ مقابلةٍ مع «بن سيس» رئيسِ الحكومة الجزائريّ أثناءَ زيارةٍ رسميّةٍ كان يقومُ بها إلى باريسَ، كسائر الصّحافيين المتخصّصين في المقابلاتِ الّتي ترمي دائماً إلى محاولة الإيقاعِ بالضّيف أو الدفعِ بهِ للتّحَصُّنِ في معاقلِهِ الأخيرةِ عندما يتعلّقُ الأمرُ بالبحثِ عن الحقيقة. طرحتْ أسئلةً مُحرجةً على شخصٍ لا يتردّدُ في إظهار طموحاتِهِ السّياسيّةِ على حسابِ داعميه.

من بين الأسئلة المحرجة طرحت عليه سؤالاً عن الإضرابات العامّة في بلاد القبائل والاضطرابات الّتي تعيشها تلك المنطقة مع بدء حركة «العروش» وحول موازنة ولايةِ الرّئاسة.

في السّاعة الثامنة، كانت دُنيا تصعد سلالم الطبقات الثلاث الّتي تفصل بلاتو البثِّ عن المكاتب الإدارية. دفعتْ بابَ مكتبِ المديرةِ بعنفٍ، اقتحمت المكتب ورمقتْ جازيا بنظراتٍ صاعقة قبل أن ترمي على مكتبها سمّاعات الأذنين الخاصّ بالبثّ والاستقبال «HF» والميكروفونات والشريط اللّولبي وجهاز اللاسلكي.

ـ «لا، أنا آسفة سيّدتي، أنا مستقيلةٌ منذ الآن. جِدي شخصاً آخرَ لنشرةِ أخبارِكِ. بالنّسبة إليّ، انتهى الأمر».

حاولَ مراد أ. أن يتدخّلَ عندما التفتتْ دُنيا نحوه.

«!ـ «آه! أنتَ، كفى، لقد فعلتَ ما فيهِ الكِفايةُ اليومَ

«!ـ «ولكن اسمعي، دُنيا، لم نفعلْ شيئاً

ـ «كيف، لم تفعلْ شيئاً، لقد أفسدْتَ كلَّ عملي».

ـ «لا أبداً! اسمعي، أعدنا فقط ترتيب المقابلة». قال مراد مرتـعـبـاً..

يقعُ مكتب مديرة القناةِ في الطبقة الثّالثة، ليس بعيداً عن جناحِ الشّخصياتِ المرموقة، وهو مؤلّفٌ من صالون استقبالٍ كبير ومكتبِ رياض خرطال. الدّخولُ إلى هذه المنطقةِ محظورٌ على كلِّ العاملينَ في القناةِ باستثناء المديرة، وكريستيان مالار، وستيفاني مقدّمةِ النّشرةِ الجويّةِ على القناةِ العامّةِ الّتي أُعيدت بناءً على رغبةِ أناسٍ من ذوي النّفوذِ كصحافيّةٍ نجمةٍ ومقدّمةٍ لنشرةِ أخبارِ السّاعةِ الثّامنةِ بعد استقالةِ دُنيا، وإيزابيل ومدير البثّ فيسّي سونكريس. ويفتحُ الصّالونُ أيضاً لجيرار ديبارديو ولآخرينَ ممن يحومونِ حولَ رياض خرطال.

لم تتمكّن جازيا د. من تهدئةِ غضب دُنيا.

ـ «قلتُ لكِ آسفة، لا أريدُ أن أعرفَ شيئاً، أنا لم أطلبْ منك شيئاً».

كانت على وشكِ البكاء.

ـ «في درجكِ، سيدتي، لن تجدي لا رسالةَ توصيةٍ ولا طلبَ توظيفٍ لي. أنت تذكرين عندما فرضتِ عليّ تقديمَ نشرةِ أخبارِ السّاعةِ الثّامنةِ، كيف أنني لم أفرضْ سوى شرطٍ واحدٍ، حقّ النّظرِ إلى النّشرة. والآن أنتم تمنعونَ ذلك عنّي؟ ما هذا الهذيان؟»

ـ «يا ابنتي، لم يكن هناك منعٌ! بن سيس ليس أيّاً كان. نحن مضطرّون للحفاظِ على صورته وتجميلها أمامَ الناس!»

ـ «آه حسناً! وأخلاقياتُ المهنةِ والموضوعيّة، ماذا فعلتم بها، أنتم أيضاً؟»

ـ «افهمي شيئاً: نحن قناةٌ تلفزيزنيّةٌ شابّةٌ لا تزالُ حسّاسةً في هذه المرحلة وهذا الرّجلُ يمكنه أن يساعدنا!» توسّلتها جازيا.

«!ـ «إنّكِ بهذه الطّريقة تُضَعّفينَ موقعَ القناةِ
ـ «لا أبداً! اهدئي! أنتِ ذكيّةٌ. يجبُ أن نقدم تنازلاتٍ توفيقيّة بين وقت وآخر». تدخّلَ مراد، محاولاً استمالتها.
ـ «تنازلات؟ نعم يا عيني! إنّ ما تقومون به هو تواطؤ وتخاذلٌ. أنتم لن تُضْعِفوا القناةَ فحسب، بل تدمّرونها. أنا كنتُ موجودة قبل قناتكم وسأبقى بعدها مع مبادئي واحترامي لأخلاقياتِ المهنة. سيّدتي، قراري حاسم! جِدي شخصاً آخرَ لنشرة أخباركم. سأعودُ إلى عملي الّذي انتُزِعْتُ منهُ: للتّحقيقاتِ الصّحفيّة». قالت مشدّدةً على مقاطعِ الكلماتِ للدّلالةِ على تصميمها. أجهشتْ بالبكاءِ ثم خرجتْ بمثلِ السُّرعةِ الّتي دخلتْ بها.
في اليومِ التّالي، استُدعيت ستيفاني لتقديمِ نشرةِ أخبارِ الثَّامنة مساءً. تخبّطتْ ستيفاني طويلاً قبلَ أن تتآلفَ مع المشاهدين.
بعد شهرٍ تقريباً جُمِّدَتْ أجورُ العاملينَ نتيجةَ المصيدةِ الّتي حصلتْ في المطار. تذرّعَ مسؤولو القناةِ بالهجوماتِ الآتيةِ من الجزائرالعاصمةِ وبالمنعِ الّذي تفرضُهُ السّلطاتُ عليهم لتحويلِ المالِ النّقدي المُشترى من سوقٍ موازيةٍ والمنقول بطريقةٍ غير شرعيّةٍ داخلَ حقائبَ.
دُنيا الّتي تعتبرُ نفسَها نقابيّةً رغماً عنها، وجدتْ نفسَها، على إثر عددٍ من الاجتماعاتِ النّقابيةِ للموظّفين، مدفوعةً للأمامِ على رأسِ حركةٍ مطلبيّة.
وذات يومٍ، وفيما كانت إستديوهات سان سانت دنيس 107 تعيشُ غلياناً خاصّاً، لم تتمكنْ من إنهاء مداخلتها وأجهشتْ بالبكاء.
في الوقتِ الّذي كانت فيه الجمعيةُ العامّة للعمّالِ وجميع العمّالِ يمدحونها على تفانيها من أجلِ كلّ العمّال والزّملاء، شعرتْ بغيظٍ كبيرٍ عندما بلغتها قناة خرطال التلفزيونيّة الثّانية، الّتي «K.news» تهجّماتُ سليم بوعا مدير في تبثُّ من لندن. لقد هاجمها كلامياً ووصفها بالـ «الحثالة الّتي تثير المشكلات لخُرطالِ».
أعلنتْ في الجمعية العامّة أنّها: «تريد أن ترى حقاً ابن الجنرال، الّذي يصفها بالحثالة، ذلك الشخص نفسه الّذي يريد تحطيم المُشاغِبةِ والّذي يأتي من الجزائر عن طريق لندن ليساعد الجزائريين. [يا الخاوة] يا إخوتي الجزائريّين

والفرنسيّين، إنّه التّمييزُ العنصريّ والعبوديّةُ والمتاجرةُ بالنّساء في هذه القناةِ وفي عزّ القرن الواحدِ والعشرين. فيما كانت الصّحافيّة الّتي تقدّمُ نشرةَ الأخبار، والّتي يعتبرونها بكل بساطة حثالة يجب التّخلُّصُ منها، لا تكاد تقبض 1000 يورو كبقيّةِ الأشقّاءِ والشقيقاتِ الجزائريّين، فإنّ المزيّنَ والمزيّنة يقبض كلّ منهما 9000 يورو شهرياً. أنا لا أتكلّمُ على ما تقبضُهُ زميلتي مقدّمةُ الأخبارِ الّتي حلّتْ محلّي، ولا عن أجرِ تلك الّتي تقدّم النشّرةَ الجّويّةَ! ويأتونَ لتنويمنا بما ينشدونَهُ من أغان حولَ الوطنيّةِ والقوميّة!»

ردّتْ بسرعةٍ أمامَ تدخّلِ أحدِ زملائها الّذي تطرّق إلى التّمييزَ في الأجورِ بين الفرنسيّين والجزائريّين.

ـ«بكل تأكيد، هناك فئتانِ من الرّواتبِ: القوري[28] يقبض ضعفَي أجرِ الجزائريّ. المسؤولون عن القناة يبرّرون هذا الاعوجاجَ بحجّةِ أنّ الصّحافيّين الجزائريّين لا يتمتّعون ببطاقاتٍ مهنيّةٍ وبطاقاتِ اعتمادٍ ولا يمكنُ بالتّالي أن تنطبقَ عليهم شبكةُ أجورِ الصّحافيّين. بدلَ أن يحاولوا خداعَنا بمعسولِ الكلامِ عن الوطنيّة، عليهم إيجادُ الحلولِ لمشكلاتنا. ونفكّرُ نحنُ بالتّالي في الواجب المزعوم: واجب التّغلُّب على زملائنا الفرنسيين... ولكن، على أملِ أن لا نسقطَ في الفخّ الّذي ينصبونَهُ لنا. لقد قسّمونا من أجلِ أن يستغلونا جميعاً، فرنسيّين كنا أم جزائريّين. علينا أن نرد على هذا التّمييزِ الخاطئ».

غلبها البكاءُ وهي تصغي إلى صحافيٍّ قديم لجأ إلى فرنسا منذ التّسعينات، لأنّ حياته كانت مهدّدة بالخطر، كان يروي مسيرتَهُ الصّحافيّة كنموذج. أنهى مُداخلتَهُ معلنًا:

ـ«هذه الشّابةُ ليستْ كالفتياتِ السّخيفاتِ الأخرياتِ اللّواتي ينتشرنَ في أروقةِ القناة. إنّها مختلفةٌ عن هؤلاءِ المومسات. إنّ ما قالتْهُ لكم هنا، يجب أن تأخذوه في الاعتبارِ إذا كنتم متّفقين على التقدّم».

هدأت دُنيا قليلاً بعد أن كانت متوتّرةً جدّاً. اتّصلتْ بصديقها رزّاق مراسلِ وكالةِ أنباءٍ جزائريّةٍ في باريسَ، الّذي دعاها إلى المرورِ بمكاتبِ الوكالةِ في المساء.

كلّ مرّةٍ تجدُ نفسَها فيها فريسةً للمخاوفِ أو تقصّها مسألة ما، كانت تلجأ إلى صديقها رزّاق وزوجته. فهما يكبرانِها ببضعةِ أعوامٍ ولطالما حضناها في مهنتِها. ذلك اليوم، كانت تحتاج إلى من يصغي إليها باهتمامٍ وشفقة. أحسّتْ برغبةٍ قويّةٍ في الكلامِ.

في السّاعةِ الخامسةِ والنّصفِ، وصلتْ إلى مكاتبِ الوكالةِ الصّحفيّةِ، وجدتْ مختار رزّاق يخوضُ نقاشًا مع رجلٍ يظهِرُ أنّهُ على علاقةٍ حميمة مع صديقِها.

ـ«أقدّمُ لكِ مُنصِف، ماريو بالنّسبةِ إلى الأصدقاء. إنّها هي، دُنيا، نمرةُ القناة... منصفٌ هو رجلٌ محنّكٌ في وسطنا. وصلَ من الجزائر وعلى الفورِ يباشرُ تحقيقًا عن رئيسِكم ونشاطاته».

جلست دُنيا على مقعد عادي. كان بنطلونها المخمليّ يتجاوزُ معطفها. وقبّعتها الزّرقاء والسّوداء تعجزُ عن حصر شعرها المجعّدُ المتشابك.

ـ «يبدو أنّ رائحةَ الشّويطِ بدأت تنبعث من عندكم؟» سألها صديقها على الفور.

ـ «الأجورُ جُمِّدَتْ. دخلنا الشّهرَ الثّالث. كلّ مرّة، يقولون إن الجزائر جمّدت تحويل الأموال. وهو، يتبخترُ في انكلترا، بعيداً عن مراراتِنا وبؤسِنا. على كلٍّ حال، لقد ألّفنا وفداً سيذهبُ للقائهِ في لندنَ».

ـ «هذا جيّد، على الأقلّ ستكونون على الطريق السّليم». قال مختار مؤيّداً.

لاحظتْ دُنيا أنّ الرّجلَ الغريبَ غيرُ مبالٍ، يبتسمُ بسخرية. رمقتْهُ عن قربٍ وقالتْ لنفسها «لا بأسَ به». ماريو رجلٌ أسمر، ذقنهُ قويّ وحيويّ وأنفُهُ متين، برغم كونهِ في الأربعين من العمر فإنّ بعضَ الخطوطِ الفضيّةِ تزيّنُ شعرَهُ المالس.

ـ «يمكنُ دنيا أن تحدّثك عن الاضطرابِ الّذي تعيشُهُ قناة خُرطال في الوقتِ الحاليّ. أعلمُ أن هذا ليس من أولوياتِ التّحقيق الّذي تقوم به، ولكنّي أعتقدُ أنّ هذا سيكونُ مفيداً في عملك».

ـ «حتماً هذا مهم. أنا في خدمتكِ متى شئتِ، آنستي». قال لها ماريو بابتسامةٍ عريضة.

أخبرت دُنيا مختار بالتّهديداتِ الّتي وجّهها إليها سليم بوعا، الرجلُ الّذي يعتبر الذراعَ اليمنى لرياض خرطال في لندن.

تكلّمتْ مطوّلاً عن وقائع الجمعيةِ العامّةِ الّتي جمعتْ قبل بضعِ ساعاتٍ الصحافيّين والموظّفين، وعن لائحةِ المطالبِ الّتي أعدّوها، وعن اختيار أعضاء منهم لمقابلةِ رياض خُرطال. كذلك تحدّثتْ عن مهدي ب. المخرج الّذي يمثّلُ موظّفي الانتاجِ والذي لم يُخْفِ غضبَهُ عندما تحدّثَ عن الطريقةِ الّتي تُدارُ بها القناةُ وعن الإسرافِ الكبيرِ في الوسائلِ التقنيّةِ والماليّة:

ـ «لطالما كان المال ليس مهمّاً بالنّسبةِ إليهِ هو وحاشيتِه، إذ إن مليون يورو أو خمسماية ألف يورو هما مبلغانِ متساويانِ عنده، فلماذا لا يتمكّنُ من دفعِ أجورِ شهرينِ حتّى الآن؟ فضلاً عن أن لا شيءَ أجمل وأغلى في تقديرهم: لا المعَدّاتُ الجديدةُ اللمّاعة، ولا هذا المبنى المُسْتأجرُ بثلاثةِ ملايين يورو سنويّاً».

ـ «يُدفعُ للقناةِ الفرنسيّةِ الأولى بدل إيجار يبلغُ ثلاثة ملايين يورو ولا يشتمل على أجور الحراسة، فيما ملايين الجزائريّين بدون عملٍ ومئاتُ الآلافِ من العائلاتِ تعيشُ في الشّوارع. أنا لستُ قلقةً على رواتبنا. يكدّرني رؤيتُهُ وهو يبدّدُ هذا القدرَ الكبيرَ من المالِ في بضعِ دقائقَ. هذه فضيحة! ففي حين كان بعضنا ينتظرُ هذه الرّواتبَ لإعالةِ العوائل، كان الرّئيسُ يشتري 30 سيّارةَ مرسيدس نسيها عندَ الوكيل». قال دهمان، مخرجٌ آخر.

ـ «تماماً وعندما نطرحُ المشكلات الحقيقيّةَ، يستخفّونَ بنا زاعمين أنّهم فريسة هجمات وراءها غيرة العنصريّين الّذين لا تُعجبُهم رؤيةُ جزائريّ ينجح».

لقد وُقِّعتْ عقودٌ خياليّةٌ كثيرة في كلِّ الميادين والمجالات. وقّعوا عقدًا مع لجان كلود دورمون مقداره 9 ملايين يورو لتسجيلِ ثلاثِ «الرّياضيّة» (Sportive)» حلقاتٍ رياضيّة أسبوعياً دون أيّ دعايةٍ إعلانيّة. إنّ كرمَ رؤسائنا دفعهُم لقبولِ مهلةِ 15 يوماً قبلَ التّسليم. أنفقوا في الشّهر الماضي ثلاثمائة ألف يورو سلفًا فيما «الرياضيّة» لم تؤمّنْ سوى حلقةٍ واحدةٍ من 52 دقيقة. هذا يجعلُ الدقيقةَ الّتي قدّمتها تكلّفُ 5769 يورو! هنا تكمنُ السّخريةُ. كلّما حصلَ تغييرٌ بالإدارةِ تحوّل الأمرُ إلى الأسوأ.

لتنقُّلاتِ الصّحافيّين. عرباتٌ لا «A ـ «اشتروا 500 سيّارة مرسيدس «فئة يمكنُ أن نضعَ فيها ركيزةَ قوائمِ الكاميرة، وعندما طَرحتُ المسألةُ شخصياً على المديرِ العامّ القديمِ الّذي يتعفّنُ الآن في سجنِ الحراش وقلتُ له كان عليكم أن تشتروا ثلاثينَ سيّارةَ «رينوكونغو» فهي تلبّي الحاجة، أجابني حينذاك بحزمٍ: «ولكن هل تعلمُ كم دفعنا ثمنَ هذه السّيّارات! ليس أكثر من10, 000 يورو للواحدة!» لا شيء غير هذا! كيف تريدون أن لا يكون هناك تدهور؟ يرتكبون الهفواتِ ثم يأتون ليخدعونا بقولهم إنّ مبلغ المليونَي يورو الذي ضبط قبل شهرين في مطار الجزائر كان مرسلاً لدفعِ رواتبنا. هذا كذبٌ، لم يفكّروا البتة في الـ 400 موظّف في تلفزيون خُرطال. نحن نريدُ حقّنا وإنقاذَ عملنا، قال مهدي لاهثًا. أقرّت الجمعيةُ العامّةُ مجموعة المطالبِ الواردة في مذكّرةِ المطالبِ الّتي سيقدّمها الموفدون الأسبوعَ المقبلَ إلى رياض خُرطال.

في السّاعة السادسة وأربعين دقيقةً مساءً غادرت دُنيا يرافقها ماريو مكتبَ مديرِ وكالةِ الأنباءِ الجزائريّةِ. عبرا الممرّ المؤدّي إلى محطّة المترو. بعد بضعِ دقائقَ من الانتظار، قفزتْ دُنيا أوّلاً إلى المترو ثم تبعَها ماريو. شقّا طريقهما وسطَ الواقفين متراصّين أمامَ بابِ العربةِ الأولى. بدّلا الخطَّ بعد ثلاثِ محطّاتٍ واستقلاّ خطَّ مترو باريسَ الرّابعةَ ثمّ نزلا في سانت سيلبيس.

عندما خرجا من منفذِ المترو الواقعِ قربَ محافظةِ الشّرطةِ، لفحتْهما هبّة من الهواءِ البارد. أخفضَ ماريو قبّعتَهُ السّوداءَ على جبهتِهِ ولفّ شالَهُ الصوفيّ الأسودَ على ذقنه. أمسكَ ذراعَ الصّحافيّة واجتازا ساحةَ سانت سيلبيس باتّجاهِ المطعم.

ـ «هذه فكرةٌ جيّدةٌ. سنتوجّهُ إلى هذا المقهى ـ المطعم. إنّه ليس بعيداً من بيتي».

دفع ماريو البابَ الزُّجاجيّ للمقهى، وسمحَ للصّحافيّة بالمرور. كانت دُنيا جميلةً حقّاً، وماريو يراها رائعةً وطيّبةً وتفيضُ بالسّحر وبانتعاشٍ يتخطّى كلّ حدودِ المبالغةِ. عندما تخلّصتْ من معطفها أظهرتْ كنزةً من الصّوفِ النّاعم جمالَ صدرها. أمّا وجهُها الصّغيرُ بملامحهِ الدقيقة ووجنتاها البارزتان ويداها

الرقيقتان وقامتها الرشيقة وحيويّتها وكفّاها البيضاوان كمنحوتةٍ حجريّةٍ، كل ذلك أثّر فيه تأثيرًا كبيراً جعله يقرّرُ أن يدخل مباشرة في صلب الموضوع.

لم يكن قادرًا على إدراك سرِّ هذا الضّعفِ الّذي يدفعُ الرّجالَ للخضوعِ أمامَ هذه الغريزةِ الطّبيعيّة. اجتاحهُ قلقٌ لا يمكنُ تفسيرُهُ أثارتْهُ في نفسِهِ هذه المرأةُ الصّحافيّةُ الشّابّةُ العذبةُ الّتي كانت مشغولةً بالجلوسِ قبالته وقد أسندتْ ظهرَها إلى الحائط. تمرّدَ على هذا الاندفاع. استلّ سيجارةً من علبةٍ كان قد سحبَها من جيبه. أشعلَ السيجارةَ بانفعالٍ ظاهرٍ كي يحلّلَ هذه الحالةَ النّفسيّةَ مع دخانِ التّبغِ. قدّمتْ إليهما نادلةٌ ترتدي مريولاً قصيرًا جدّاً وجواربَ لاصقةً سودًا لائحةَ الطّعام. طلبا الطّبقَ اليوميّ: صلصةُ لحمِ العجلِ بالفطرِ.

«إذاً هي الثّورة في قناة خُرطال التّلفزيونيّة!» ـ

ـ «إنّهُ وضعٌ مُعقّدٌ! لقد نفّذ للتوّ تغييراتٍ يصفها بالتّدبيريّة على رأس القناة. لقد تخلّص أيضاً من خالته جازيا بعد أن وقّعتْ صرف رئيسةِ تحريرِ نشرة الأخبار. صحيحٌ أنّهُ حتّى الآن، لم يستطعْ أن يضعَ على رأسِ القناةِ متخصّصًا في المرئيّ والمسموع. هذه المرّة فيما كنّا ننتظرُ فيسّي سونكريس، مدير البرامج الّذي خدمه في البداية من خلال إعارته اسمه لتعيينه على رأس القناة، جاءنا بمديرٍ سابقٍ لوكالةِ عارضاتِ أزياءَ يقالُ إنّ اسمهُ بول غينور. الزّملاءُ يسخرونَ كثيراً من هذا التّعيين ويعتقدونَ أنّ وضعه على رأس القناةِ من أجلِ دعمِ أسطولِ الفتياتِ المومساتِ اللّواتي يحتلّيْنَ طبقات مكاتبِ القناة. وقبل هذا، صرف شجيّة بطريقةٍ غير لائقة. مع أنّها كانت قد لعبتْ في البدء دوراً كبيراً في تأليف فريقِ التّحرير. كانتْ زميلةً جيّدةً لجازيا. هم يلومونها على عدمِ احترافيّتها ونقصِ خبرتِها وعلى الإفلاسِ التّامِّ في إدارةِ التّحريرِ، بشكلٍ رسميّ طبعاً. في الواقعِ دفعوا لها ثمنَ المقالاتِ الّتي نشرها زملاؤها في صحيفة الـ «Le Pays» الّتي هي مساهمةٌ فيها. مراد أ. الّذي وضعها في منصبِ رئيسةِ التّحريرِ لنشرةِ الأخبارِ، طردها بناءً على أمرٍ من سادته.

كنتُ موجودةً عندما وصلَ العملاقُ ابن الجنرال موفدًا من لندن وهيئته كهيئة رجال المافيا القتلة. استقبلها في مكتب جازيا ربع ساعةٍ ثمّ رحل بالسُّرعةِ الّتي جاء بها في سيّارة مرسيدس كبيرة. لم يكن بإمكاني أن أتركَها ترحلُ

كامرأةٍ غيرِ مستقيمةٍ أمامَ الفرنسيّين؛ برغم أنني ألومُها جدّاً على استخفافِها المستمرِّ بالقيمِ المِهنيّةِ وبمبادىءَ الدّفاعِ عن حقوقِ الموظّفينَ. هي، زعيمةٌ، كنتُ في . MJA مناضلةٌ نقابيّةٌ قديمةٌ منذُ أيّامِ حركةِ الصّحافيّينَ الجزائريّينَ مكتبها. حملتُ معها أغراضَها الشّخصيّةَ ورافقتُها حتّى الباب الخارجيّ الكبيرِ وطلبتُ منها أن تبقى عاليةَ الرّأسِ. لم يكن لديّ سيّارة. فطلبتُ لها سيّارةَ أجرةٍ أقلّتها من أمامِ المدخلِ الرّئيسيّ. حلّ مكانَها يوسف زرتا، زميلٌ قديمٌ لمختار. علمنا في ما بعدُ أنّها فاوضتْ للحصولِ على راتبِ سنةٍ كاملةٍ. بعد ثلاثةِ أشهرٍ، جاء دورُ جازيا شخصياً ليتمّ الاستغناءُ عن خدماتِها أيضاً».

سكتتْ دُنيا عندما وضعت النّادلة طبقين مُزيّنين جيّداً، ثم تابعتْ كلامَها:

«ـ «ماذا تريدُ ان تعرفَ أكثرَ من هذا؟

«ـ «حدّثيني عن الجّوّ العامِّ، كيف تعملُ القناة؟ من الّذي يديرُها فعلاً؟

ـ «الجوّ؟ هناك منافساتٌ داخليّةٌ قويّةٌ. لا بدّ أن نجمًا مثل كريستيان مالار يشعرُ بالضّيق؛ لأنّ ما يهمُّه هو ذو العلاقات المشتبه فيها مع الأميركيين هو المالُ، فضلاً عن راتبه».

صمتتْ قليلاً محاولةً استعادة ذكرياتٍ لا تزالُ آلامُها حيّةً، ثم نظرتْ إلى عينَي ماريو وقالتْ:

«ـ الإسرافُ هو المبدأُ الدائمُ لدى المسؤولينَ في القناةِ. الموظّفونَ قلقونَ جدّاً. أنتَ تعلمُ، عندما تكونُ أنتَ غيرَ واثقٍ بالاحتفاظِ بوسيلةِ عيشِكَ... تجد أنّ كلَّ الأدواتِ قد تمّ شراؤها بمبالغ هائلة. هناك أناسٌ يخصّونَ أنفسَهم بالحصّة الكبرى. في اليومِ التالي لتعيينِهِ، استُدعيَ المديرُ العامُّ الجديدُ للقناةِ إلى CSA المجلسِ الأعلى للإعلامِ السّمعيّ والبصري كي يشرح رأيهُ تحديداً في موضوع العاصفةِ الّتي تهزّ القناة منذ ثلاثةِ أشهرٍ تقريباً. لم يأتِ. منذُ أربعةِ أيّامٍ أعلنَ AFP أنّ المجلسَ الأعلى للإعلامِ السّمعي والبصريّ سيء قد أمرَ، يوم الثّلاثاء، قناة خُرطال التلفزيونيّة باحترام حدود اتّفاقها. وطلبوا منها في رسالةٍ قاسية بعض الشيء تقديم مُلخّصٍ عن المشكلات الّتي تواجه الشّركة منذ إنشائها. إلاّ أنّ السّيد رياض خُرطال بدل أن

يسعى إلى معالجة هذه المشكلات، استنفَرَ أحدَ المأجورين لديه كي يأتي «...ويقضي عليّ، أنا الحثالة

احمرّتْ وجنتاها واختفى صوتها بما يشبه الاختناق بالعبرات. رقّ قلبُ ماريو أمام نظرة الشّابّة الصّحافيّة الّتي تحاولُ إخفاء دموعها، وقال:

ـ «ومع ذلك، أعلنَ في المقابلة الّتي أجرتها معه صحيفة «الهدرة» ولقناة LCI الأخبار الفرنسية أنّهُ «كان قد أسّسَ الشّركةَ بموازنة قدرها 15 مليون يورو (10 كرأس مال وخمسة كمخزون تداول). منذ شهرِ سبتمبر/أيلول: هناكَ مشكلات عدّة طرأتْ ونحنُ مطّلعون عليها، ولهذا أنا بصددِ تسويةِ الوضعِ وتنظيفِ الأجواء. لا يُخفى على أحدٍ أنّه في الوقتِ الحاليّ، ليس هناك سوى مكانِ العملِ وإعادة البثّ. هناك تغييرٌ يحدث». قال تحديداً. كان ماريو يقرأ في دفترِ ملاحظاتٍ رفعَهُ إلى مستوى ذقنه.

ـ «هذا لا يمنعُ أنّهُ يلعبُ بحياةِ العديدِ من العائلات. القناةُ تغرقُ في بحرٍ من انعدام الاحترافية التّامة. والإسرافُ والاستخفافُ بالأمورِ هما القاعدة الذّهبية. كلّ شيءٍ ينجزُ على نحو مخالفٍ للرأيِ السّديدِ».

ـ «والأسوأ، مع ذلك، أنّ الأمرَ يتعلّقُ بمجموعةِ شركاتٍ تساوي مليار يورو. ما يكفي لأحلامِ ملايينِ الشّبابِ الجزائريّين العاطلينَ عنِ العملِ والّذينَ ليس لديهم أيُّ أملٍ بالمستقبل». علّقَ ماريو.

ـ «كيف حصلَ كلّ ذلك؟ وبهذه السُّرعة؟ فيما نحن نهربُ من بلدنا الّذي مزّقتْهُ حربٌ اقتتلَ فيها الإخوةُ نراهُ هو يظهرُ من العدم! كيف يمكنُ شابّاً يحملُ شهادة صيدلانية عاديّة أن يجدَ نفسَهُ على رأسِ امبراطوريّةٍ خلال هذا الوقتِ القصيرِ؟» سألته دُنيا وجفونُها مُنْثنية.

ـ «أنت تعلمينَ، دُنيا، لو كان يُسمحُ لي برسمِ بيانٍ لقلتُ إنّ قصّةَ خُرطال بعيدةٌ جدّاً عن قصصِ الجِنّ. بل هي تختلطُ مع قصصِ فرانكشتاين، وحشُ المختبرِ هذا الّذي انقلبَ على صانِعِهِ حالما دبّتْ فيه الحياة! لقد بدأ رياض خُرطال بالتّحليقِ مع إنشائه مصرفًا خاصًا أتعرفين هذا؟ حتماً، استفادَ من دعمِ السّلطةِ القائمةِ في ذلك الوقت. صحيحٌ أن فكرةَ المنطقِ كانت نبيلةً، إذ أدركَ أصحابُ القرارِ في ذلك العهدِ أنّ تمويلَ الإرهاب يأتي من كميّاتِ المالِ الهائلةِ

الّتي هي في حيازة السّوقِ غير الشرعيّة والمهرّبين. واعتقدوا أنّهم من خلالِ إمرار هذه السيولة في الأجهزةِ الرّسميّةِ، حتّى الخاصّةِ، ينجحونَ بسحبِ البساطِ من تحتِ أقدامِ الجبهةِ الإسلاميّةِ للإنقاذِ والإرهابيين من جهة، وبلَيِّ عنقِ البيروقراطيّةِ الّتي تعشعشُ في المؤسّساتِ الماليّةِ وتقفُ عائقاً في وجه الاستثمارِ الخارجيّ من جهة ثانية. فمن يكونُ مناسباً لإدارة هذا المشروعِ سوى ابن السكرتير العام لجمعيةِ قدامى وزارةِ التّسليحِ والاتّصالاتِ العامّة. هو شابٌّ يعجُّ بالطّموح، وقد أثبتَ جرأتَهُ وبراعتَهُ في ضرباتٍ موفّقةٍ في مجالٍ بمثلِ أهميّةِ الأدويةِ المنسوخةِ. بالإضافةِ إلى ذلك، فهو يتمتّعُ بموقعٍ جيّدٍ في حضنِ الجبهةِ الإسلاميّة للإنقاذ. لطالما كان أمينَ المال في فرعِ الجبهةِ في الشّراقةِ.

من أصلِ الـ 50 مليار كرأسمالٍ مطلوبٍ لإنشاءِ مصرفٍ، دفع 12 مليار ونصفاً كوديعةٍ إجباريّةٍ اقتطَعَها من قرضٍ من بنكِ الفلاحةِ لتغطيةِ فواتيرِ استيرادِ الأدوية...»

توقّفَ ماريو قليلاً. أومأ إلى النادلةِ، ثم سألَ الصّحافيّة:

ـ «أتريدين قهوة؟»

ـ «لا شكراً، أجابته دُنيا.

ـ «ديناميكيّةُ النجاحِ هذه كانت مستوحاةً من التّقنياتِ الّتي تستعملُها المخابراتُ السوفياتية سابقاً KGB . لقد جنّدَ جيشًا من المتقاعدينَ والتقنيينَ المُبعَدينَ من مصالحِ الأمنِ والمتمرّسين بتقنيّاتِ الإدارةِ للاهتمامِ بالإنترنت ودرس هفوات العملِ. كان لديهم سلطةُ القرارِ دونَ الحاجة للرّجوعِ إلى الصفوفِ الأولى، كما كانوا مرتاحينَ إلى تعيين كلّ ثغراتِ النّظامِ واستغلالها لمصلحتهم. عدا ذلك، وللقصّةِ الصّغيرة، اعلمي، مثلاً، أنّهُ حتّى لحظةِ وقوعِ حادثِ المطارِ، لم يكن هناك أيّةُ مخالفةٍ أو خرقٍ للقانون. لأنّ القانونَ أصلاً غيرُ موجودٍ. النّصوصُ القانونيةُ والموادُّ الجزائيةُ لم تكن قد وضعتْ إلاّ بعد هذه الضربةِ.

استُغلّ تأثير رجالِهِ المتنفّذين لجذبِ أموالِ المؤسّساتِ الخاصّةِ وبعض مؤسّساتِ الدّولةِ. وهكذا عندما يسدي ضابطٌ نصيحةً إلى مديرِ مؤسّسةٍ كي

يودعَ مالَ مؤسّستِهِ مصرف خُرطال،لا تكونُ مجرّدَ نصيحةٍ. بل يتّخذُ ذلك شكلَ الأمر. غير أنّهُ عندما تقرُّ هذه الإيداعاتُ بمردودٍ وسيولةٍ غنيّةٍ لمصلحةِ المودعِ، خاصةً ما يحصلُ عليه هو شخصياً، فإنّ هذا ينتهي حتماً بسباقٍ جنونيّ بين رؤساءِ المؤسّساتِ من أجلِ الحصولِ على المزيد.

ومن جهةٍ أخرى، في اللّحظةِ الّتي أقاموا فيها هذا التّنظيمَ، وُضِع تصميم تأمليّ لها ونُفِّذ. أنفقَ خُرطال مبالغَ هائلةً على صعيدِ العلاقاتِ والحملاتِ الرّعائيّةِ والإعلانية. لم يتأنّ في اكتسابِ الصّحافةِ بكلِّ قوّةٍ. وهكذا، حقّقَ هدفين: إنشاء لوبي يكونُ إلى صفّهِ عندما يحينُ الوقتِ ونسج علاقاتِ صداقةٍ في حضنِ الأسرةِ الإعلاميّة من جهة، ومن جهةٍ ثانية فإنّ هؤلاءِ النّاسُ كانوا يعلمونَ أنّ كلّ هذه الهباتِ تنتهي بإحداثِ الأثرِ المتوقّع: جذبُ رجالِ الأعمالِ. وهكذا انتقلَ جورج سعادة، أحدُ أقاربِ فابيان أوواكي، مديرِ تاتي، إلى مدينةِ الجزائرِ كي يبيعَ مشروعَ قناتِهِ «التّسوّقُ عبرَ التّلفزيون» إلى خُرطال. كان في محيطِهِ أيضاً برتران جيان، سمسارُ صفقاتٍ يزعمُ أنّهُ قريبٌ لفرانسوا بينول الّذي يأملُ بدورهِ برؤيةِ الجزائرِ متحوّلة إلى «ألدورادو» سياحيّة. كان المنسّقُ الكبيرُ لهذه العلاقاتِ العامّة هو راغد شمّا، اللوبيّيّ المتنفّذ اللبنانيّ الأصل، مستشارُ غرفة التّجارة الخارجيّة الفرنسيّة ومديرٌ سابقٌ لراديو الشّرقِ الّذي بيعَ لرفيق الحريري؛ كما أنّهُ وراءَ التّرويجِ لكتابٍ خاصٍّ بسردِ سيرةِ رياض خُرطال وتمجيده...»

حتماً، لم يشرْ ماريو إلى صداقةِ راغد مع الرّئيسِ التّونسيّ بن عليّ، ولا إلى وضعِهِ كرئيسٍ لمجلسِ أيروماد الاستشاريّ. بإزاء الاهتمامِ المتزايدِ والفضولِ الّذي أبدتْهُ دُنيا، تحدّثَ ماريو عن السرّ الّذي يحيطُ باستثمارات خُرطال. الإشارةُ الوحيدةُ المرئيّة، عدا القرض الملتوي، هي المساعدةُ المحتملةُ لمصرفِ البركةِ (المصرفُ الإسلاميُّ برأسمالٍ سعوديّ). وهذا، بحسبِ كلامِهِ، لا يمكنُهُ حتّى أن يغطّيَ نصفَ قيمةِ العقدِ الضّخمِ (90 مليون يورو) الموَقّعِ مع النّادي الفوسيّ في مرسيليا لمدّةِ أربعةِ أعوامٍ؛ فيما أريكسون لم تسدّدْ إلاّ 70 مليوناً من أجلِ البنودِ نفسهاِ في العقدِ الرّعائيّ.

غادرا المقهى في السّاعة الحادية عشرة تقريباً. رافقتْ دُنيا ماريو إلى منفذِ المترو وأشارتْ إلى أحد المباني.

ـ «انظرْ، هنا تسكنُ كاترين دينوف».

كان ماريو يفكّرُ وهو ينزلُ سلالمَ المترو في الكمّ الكبيرِ من المعلوماتِ الّتي استقاها خلال هذين اليومين. كانوا قد تسلّلوا ليلاً إلى مقرِّ وكالةِ اتّصالاتِ خُرطال الباريسيّة الّتي تديرها كلودين ستولز، مستفيدينَ من تواطؤ بعضِ الأشخاصِ من داخلِ الوكالةِ. سمحتْ له التّحقيقاتُ في ذلك المكان باكتشافِ السّر. لائحةٌ بأسماءِ نجومٍ رمزيةٍ سينمائيةٍ وتلفزيونيّةٍ وإعلاميةٍ تلقّوا مبالغَ طائلةً مقابلَ ظهورٍ بسيطٍ بين المدعوّين المرموقين لخُرطال، أو مقابلَ تقديمِ أمنياتٍ والتّمني بالنّجاحِ للقناةِ على الهواء. اكتشفَ ماريو وزميلُه أنّ فيونا جيلان وصوفي فافيه والكسندر برونكر وبرنار مونتيال وأدلين بلونديو ودولوريس شابلن وأميرة قصّار وتونيا كنسينجر تلقّوا45 ,000 يورو دفعَها لهم رياض خرطال نقداً لقاءَ حضورِ مباراةِ منتخبِ الجزائر الوطنيّ مع أولمبي مارسيليا.

هناك شخصياتٌ أخرى أكلتْ من يدِ خُرطال مثل ستيفاني لانغ وماريو نجمة ستار أكاديمي أو أنطوني ديلون الّذين قبضَ كلٌّ منهم3 ,000 يورو. المعلوماتُ المُسْتقاةُ خلالَ الزّيارةِ اللّيليّةِ الّتي قام بها التّحرّيون كشفتْ أنّ المظروفات كانت قد وُزِّعتْ خلال رحلةِ الطّيران بين «لي بورجيه» ومطار هوّاري بو مدين على الضيوفِ المرموقين يداً بيدٍ أو سُلّمتْ إلى وكلائهم في ما بعد. في الزّيارةِ نفسها، اكتُشفت لائحة أخرى تضمُّ أسماءً كبيرةً في عالمِ الفنِّ والتّمثيلِ مثل بياتريس دال وأدريانا كرنمبو اللّتين تلقّتا على التّوالي625 ,7 و000 ,30 يورو أو كاترين دينو؟ 700 (,85 يورو) وجاك شانسيل وجيرار ديباردیو الصّديق الّذي قبض500 ,30 يورو، فقط من أجل حضورِهِ في المدرّجاتِ في ملعب 5 يوليو/ تموز.

تتركّزُ أعمالُ هذا الرّجل الّذي وجدَ نفسَهُ على رأسِ إمبراطوريّةٍ تضمُّ مصرفاً وشركتَي طيرانٍ وقناتَي تلفزيونٍ وشركةَ سيّاراتٍ فخمةٍ في باريسَ وفي مدينةِ الجزائر. ولديهِ أيضاً شركةُ أدوية ومصرفٌ في ميونيخ (La Erst

ومؤسّسةُ بناءٍ في ألمانيا. هذه الأمبراطوريّةُ الّتي (Rosembeimer Privat Bank تضمُّ22, 000 موظّف ترعاها شخصياتٌ مرموقةٌ في السّلطةِ الجزائريّةِ، هي اليوم في وسطِ إعصارٍ، وفريسة لِـ 17 تحقيقاً على الأقلّ فتحتْها مدينةُ الجزائر للاشتباه في أنّها تُحَوّلُ عشراتِ ملايين الدّولارات.

أمّا بالنّسبةِ إلى القضاءِ الفرنسيّ فقد فتحَ تحقيقاتٍ في شأن تبييضِ الأموالِ واستغلالِ الأموال العامّة والإفلاسِ التّدْليسيّ.

كان ماريو يفكّر في الانهيارِ الذي أصاب الهولدينغ وفي غضبِ وأجور400 موظّفٍ يعملون في قناة خُرطال التلفزيونيّة و170 آخرين في شركةِ خُرطال للطّيرانِ في فرنسا، أمامَ عمليّاتِ التشدّد الّتي يستسلمُ لها ملكُ المالِ كي يتمكن من الالتفافِ على ديونِهِ المتفاقمةِ والاضطرابِ الّذي تعيشُهُ كلُّ مؤسّساتِه.

لقد أخفى المئتي سيّارة الفخمة (مازيراتي، فيراري، مرسيدس، جاكوار إلخ). لم يعثرِ المحقّقون المرسلون إلى باريسَ إلاّ على خمسةٍ منها أمّا الأخرى فقد تبخّرتْ في الهواء.

فيما كان ماريو ينزلُ من مترو محطّةِ «إكزيمانس»، نظرَ إلى ساعةِ يدهِ. العقاربُ تشيرُ إلى الحادية عشرة وخمسين دقيقةً، قال لنفسِهِ إنّه بقيّةَ اللّيلِ سيسجّل ملاحظاتِهِ والبدء بإنهاء تقريرهِ مع بضع كؤوسٍ من الويسكي. كانت شقيقتُهُ وزوجُها قد سافرا لحضورِ مؤتمرٍ في «باليرم» وتركا له مفاتيحَ شقّتهما لدى قريبهما «قاسي» في شارع «دي رين».

في الصّباحِ، اتّصلَ ماريو بالعقيدِ محمود هاتفيًّا، واتّفق الرّجلانِ على تناولِ العشاءِ مع بعضِ الأصدقاءِ في باريسَ. كان محمود قد عادَ ليلَ الأحدِ من مارسيليا، وزارَ صباحَ الإثنين القاضيةَ إيزابيل فوسبيه بيريز في محكمةِ «نانتير» المسؤولةِ عن ملفِّ خُرطال.

في السّاعةِ العاشرةِ والنّصفِ صباحاً بالتّحديدِ استقبلتْ هذه القاضية، المشهورةُ بميلها إلى خوضِ الصّعابِ، محمود والقاضي الّذي يرافقه مزوّداً استنابة قضائيّة. استمرّ الحديثُ بقيّةَ فترةِ ما قبلَ الظّهرِ كلّها. أخبرتِ القاضيةُ الفرنسيّةُ التّحرّيَّين الجزائريَّين بأنّ التّحقيقَ قد بدأ مع استجوابِ عدّةِ

مساعدين وأصدقاء لرياض خُرطال. أعلمتْهما بأنّ:«شخصيتينِ أخريينِ ستُستجوبان بسريّةٍ تامّة. ويتعلّقُ الأمرُ بموثّقٍ باريسيّ كبير مشتبه في ارتكابِ تهوّرٍ في تسليمِ شكّ مقداره3 ,3 ملايين يورو إلى رياض خُرطال في لندن. والآخرُ هو وكيلٌ عقاريّ تحوّلَ إلى مساعدٍ لرياض خُرطال. إنّه رجلٌ فاوضَ مع خُرطال في شأن عمليّةَ بيعِ بوينغ في الولاياتِ المتّحدةِ وحاولَ عبثًا أن يسترجعَ 100 مليون يورو لإنقاذِ مجموعةِ مؤسّساتِ خُرطال. وهذا لم يمنعْهُ من قبضِ عمولةٍ مقدارها3 ,316 ملايين يورو». قالتِ القاضية.

في اليومِ نفسه، وصلَ مهدي بن عيسى وجوليان لافلور إلى مقرّ القناةِ اللّندنيّةِ K.News . كانا على موعدٍ في السّاعةِ الثّانيةِ ظهراً مع رياض خُرطال الذي وافقَ في نهايةِ الأمرِ على استقبالِ مندوبَينِ عن الموظّفينَ الغاضبينَ.

مهدي بن عيسى رجلٌ وسيمٌ، أبيضُ البشرة شعرهُ مجعّدٌ وملامحه فرحة. يشبهُ بقامتِهِ الريّاضيّةِ وعينيهِ السّوداوينِ الجنديَّ المختصَ في المتفجراتِ في جيشِ تحرير إيرلندا. عندما يدعُ ذقنَهُ تنبت يصبحُ شديدَ الشّبهِ بالباسداران، حرس الثّورة الإيرانيّة. نظرتُهُ متّقدةٌ، يمكنه أن يحصي بلمحةٍ واحدةٍ كلّ ما يحيط به. كان مهدي يرتدي سترةً من المخملِ الأسود وقميصاً أخضر. أمّا جوليان، ذو طابع ناس الشمال، بحركاته الدقيقة، فيبدو من شبابِ الأحياءِ الشّعبيةِ في ضواحي باريسَ بسرواله الجينز وسترته الجلد الرماديّة.

كان الموفدان قد انتظرا طوالَ فترةِ ما بعدَ الظّهرِ في بهو قناة ث.خمٌّ دونَ أيّ خبرٍ عن رياض خُرطال. كي لا يفقدَ مهدي صبرَهُ، أخذ يتذكّرُ الحدثَ الّذي عاشهُ ليلةَ الأمسِ أمامَ مقرّ القناة.

في اليوم الّذي تلا تجمّعَ الجمعيّةِ العامّةِ، وعندَ وصولِهِ بسيّارتهِ الهوندا سيفيك إلى ساحةِ سان سانت دني، بحثَ وقتاً طويلاً قبلَ أن يجدَ مكاناً يركنُ فيهِ سيّارته على الرّصيفِ المجاورِ للمبنى الّذي يضمُّ مكاتبَ القناة. كان هناك عشرون سيّارةً فخمةً تحتلُّ المكانَ (واحدة مازيراتي، سيارتان فيراري واحدة بيضاء والثّانية حمراء، سيّارتان جاكوار وسيّارتان بورش كاريرا وثلاثُ سيّارات بي أم دوبل فيه ومرسيدس 500 فئة س). كان حارسُ المبنى والحاجبُ

منهمكَين بمسحِ الغبار الّذي حطّ على السّيّاراتِ بواسطةِ خرقة جافّةٍ. ردّ أحدهما على تحيّةِ مهدي ممازحاً:

«ـ «هاه، متى ستصبحُ إحدى هذه السيّارات لموفدنا يا ترى؟

ـ «لا شكراً، لديّ سيّارتي العتيقة هذه، وهي تكفيني. ثمّ ما هذه السيّارات، أستلتقطونَ صوراً إلى جانبها؟ ستكونُ صورةً جديرةً بغلافِ مجلّةٍ راقية. أهو العرضُ الكبير أم ماذا؟»

ـ «إيه نعم، لكلٍ ضروراتُهُ ولزومُ ما يلزم! لماذا يحرمُ المرءُ نفسَهُ عندما تكونُ لديه الإمكاناتُ؟ يا قريبي، يجبُ أن نسُدَّ أفواهَ هؤلاء الفرنسيّين!»

ـ «مع ذلك هذه السيّارات ينقصها واحدة، الرولس ـ رويس». قال مهدي مستفزّاً وهو يقتربُ من الحاجبِ، نظرَ إليهِ بسخريةٍ ثم أخذَ الخرقة من بين يديهِ وقال له بصوتٍ منخفضٍ وبابتسامةٍ ساخرةٍ:

ـ«لا نمسحُ الغبارَ بالخرقةِ الجّافة. هذا يؤذي الدّهانَ. يجبُ أن نغسلَ أوّلاً بالماءِ كي يسقطَ الغبارُ والرملُ ثم نمسحُ بالخرقة. لا يكفي أن نمتلك، يا صديقي، السّيّارات الغالية، يجب أيضاً أن نعرفَ كيف نحافظُ عليها».

ترك مهدي فوطة جلدِ الشاموا تسقطُ على غطاءِ محرّكِ المازيراتي وابتسمَ للحارسِ ثمّ دخل المبنى.

عندما يتذكّرُ تلك اللّحظاتِ يشعرُ بالإشفاقِ على حارسِ المبنى المهاجرِ ويقولُ في نفسه «يا للمسكين!»

في السّاعةِ الخامسةِ والنصفِ مساءً جاءتْ شابّةٌ انكليزيةٌ وأخبرتْهما عن تغيّبِ الرّئيسِ وطلبتْ منهما العودةَ غداً.

ـ «على كلّ حال، هو يدعوكما إلى تناولِ العشاءِ معه مساءَ غدٍ». قالت لهما.

لم يتقبّلْ مهدي طريقةَ تصرّفِ مديرهما غيرِ المبرّر. اقترحَ على جوليان الخروجَ مساءً للبحثِ عنه في النّوادي والملاهي اللّندنيّة. بحثا عنهُ تلكَ الليلةَ والليلةَ الّتي تلتها. وفي اليومِ الثّالثِ من وصولهما إلى لندن حدّدوا لهما موعداً مع إحدى سيّاراته أمامَ وكالةِ خُرطال للطّيرانِ في اليومِ التّالي في تمامِ السّاعة الثانيةِ ظهراً.

وصل الموفدان إلى مكان الموعد قبل عشر دقائقَ. جاءتْ سيّارةُ مرسيدس 500 سوداءُ تحملُ لوحةً لندنيّةً لاصطحابهما. كان يقودُ السّيّارةَ السّائقُ الذي هو في الوقت نفسهِ السكرتيرُ والحارسُ الشّخصـيّ بوب ماك غوير. إلى جانبه كان رياض خُرطال يجلسُ ببدلتهِ الـمقـلّمـةِ وعينيهِ المنتفختينِ ووجههِ المتورّمِ ونظرتِهِ الشّاردةِ، كان يحملُ بيدهِ كوبَ قهوةٍ بلاستيكيّاً. مدّ نحو الرّجلين يداً مترهِّلةً، ثمّ قال لهما دونَ أن يلتفتَ:

ـ «أوقفوا لي هذه الضّوضاء، وكلُّ المشكلات سوف تُحلّ. أنا لا أريدكم أن تتحدّثوا إلى الصّحافةِ. دعوا الصّحافة خارجَ أعمالِنا وأنا سأسوّي كلَّ شيءٍ. الأمرُ ليس سهلاً! نحن نواجهُ مشكلات جدّيةً في الوقتِ الحالي. إنّهم يضعونَ لنا العِصيَّ في الدّواليبِ؛ ويحاولونَ عرقلتها ولكنّي سأخرجُ من هذا المأزق، لا تقلقوا! الغيرةُ والعنصريّةُ لا تتقبّلُ نجاحي كرجلٍ جزائريّ. لكنّنا أقوى. اصبروا، امنحوني بعضَ الوقتِ وأنا سأجدُ الحلولَ الضَّروريّةَ. أنتم تعذرونني؛ أنا مشغولٌ جدّاً». سادتِ لحظةُ صمتٍ، ثمّ التفتَ فجأة:

ـ «هذا المساء سنتناولُ العشاءَ معاً. في أي فندقٍ تنزلان؟ سنمرُّ لاصطحابكما في السّاعةِ التّاسعةِ، اتّفقنا بوب؟»

ـ «إنّنا....»

ـ «حسناً! إلى اللقاءِ قريباً» قال والسيّارةُ تتوقّفُ جانباً.

نزل مهديّ وجوليان من السّيارة منزعجين بعضَ الشّيءِ من تصرّفِ الرّجلِ الّذي لم يكلّفْ نفسَهُ حتى عناءَ الإصغاءِ إليهما، والّذي كان يبدو على وشكِ الانهيارِ العصبيّ.

في المساء، كان رياض يبدو مسترخياً أكثر. استمعَ إلى شكاوى الموفدَين ومطالبهما وجدّد العزمَ والوعدَ بأنّ يحلّ كلّ المشكلات «شرطَ تجنّبِ بثّ الشّائعاتِ المُغرضةِ وعدمِ إقحامِ الصّحافةِ في مشكلاتنا» قال بإصرار.

المطعمُ اللّندنيّ الّذي التقوا فيه مؤسّسةٌ مشهورة جدّاً. فيما كانتْ عيونُ رياض، ومهدي، وجوليا، وبوب مثبتةً على لائحة المطعم الفخم، قال رياض خرطال:

ـ «كما ترون، لا يشيرون إلى الأسعار. هكذا هي المطاعمُ الرّفيعةُ». قال رياض في محاولةٍ للتّأثيرِ في الموفدينِ من باريسَ.

ـ «ولكن سيّدي، فنُّ التذوّقِ هو في ما نأكلُ وليس في ما ندفعُ». قال له مهديّ بجفافٍ.

لم يكترثْ رياض لتعليق المنتج.

ـ «لقد انتظرناك وبحثنا عنك يومين سيّدي. نحن لسنا هنا للتّرفيه». قال جوليان.

ـ «إنّني أتلقّى الهجماتِ من كلّ الأماكن. يثيرون المشكلات ويحاصرونني على جميع الصُعد. إنني أقود معركةً برغم العقباتِ كافة».

ـ «أنت تعلم، سيّدي، أن الموظّفين يخشون أن يصيبهم ما أصابَ موظّفي «دايهو فرانس» الّذي أسدلَ الأبوابَ في جناحِ اللّيلِ واختفى في الهواء، تاركاً مئات الموظّفين دونَ تعويضاتِ الخدمةِ ودون مِنَح البطالة».

ـ «نعم، أعلمُ ذلك. الحمدُ لله، لم نصلْ نحنُ إلى ذلك الحدّ. صحيحٌ أنّهم في الجزائر يبذلون كلّ ما بوسعهم لمحاصرتنا وإقفالِ الأبوابِ أمامنا ومنعنا من تأمينِ ضروريّات القناتين هنا وفي باريس، ولكن لا يهمُّ. سنخرجُ من هذا برغم الهجمةِ والحربِ الشّرسةِ الّتي يريدونَ خوضَها ضدّنا. أنتما تعلمان أنني لو انتظرتُ إذنَ الحكومةِ الجزائريّةِ لبيعِ الأدوية، لما كنتُ حقّقتُ شيئاً. ولكنتُ لا أزالُ أنتظر!»

كان مهديّ مشغولاً بتساؤلاتٍ فرضَها الوضعُ الّذي يجدُ هذا الرّجلُ نفسَهُ فيه، وتتصل بحدودِ نيّاته. «لماذا هذه المُكابرةُ وعدمُ الاعترافِ بفشلِهِ على صعيدِ التّلفزيون؟ لماذا هذا العنادُ بإعطاءِ آمالٍ زائفة لهؤلاء الموظّفينَ الّذين عانوا ما يكفي من الشّقاء؟» قال لنفسه أمام رجلٍ يبدو أنّهُ يعيشُ في قوقعةٍ مصنوعةٍ من خليطٍ من جنونِ العظمةِ وعدم التّأني وانعدامِ الصّبر، الوضعُ الّذي جعلَهُ يشتري دفعةً واحدة 50 آلةَ تصويرٍ تلفزيونيّةٍ بمليون يورو تسدّدُ بالتّقسيطِ مقدارها10, 000 يورو شهريًّا، ويقدّمُ لمنشّطةِ برنامجِ أفلامٍ في القناةِ الثّانيةِ للتّلفزيونِ الفرنسيّ ثلاثةَ أسابيعَ إجازةً في عالمِ الأحلامِ في بالاس سان كارلوس في مارابيللا، فيما أجورُنا لا تزالُ مجمّدةً. ومن أين سيأتي بالأموالِ

الآن بعد أن أصبحَ من الصّعبِ السّفرُ مع حقائبَ محشوّةٍ بالأوراقِ المصرفيّة؟ وإلى متى سيتمكّنُ من تغذيةِ قناةٍ تلفزيونيّةٍ أصبحت بالوعةً حقيقيّة؟ تلفزيونٌ يعملُ بدونِ قسمِ إعلاناتٍ، هذا يتعدّى كلَّ التوقّعات. لم يتمَّ بيعُ أيّةِ صورةٍ وليس هناك إعلان متلفز ومع ذلك نقابلُ كلّ هذا التبذيرِ الرّهيبِ. لن يأتي أيُّ مُعلنٍ نحونا مع سمعةٍ سيّئةٍ كهذه الّتي اكتسبتها القناةُ في وقت قصير وقياسيّ. إنّه يعلمُ أنّ استراتيجيّتهم لن تدوم. مجيئي أنا وجوليان، للتّكلّمِ معه باسم الموظّفين كانت فكرةً جيّدة. هكذا بات كل شيءٍ واضحًا الآن وانكشفَ الوهمُ الّذي يحاولُ من خلالِهِ التلاعبَ بنا. فذلك لن يعمِّرَ طويلاً.

8. القوريّ: الفرنسيّ.

الفصل الرّابع والعشرون

العودة

في الوقتِ نفسه، كان محمود وماريو وصديقهما حسين يغادرون المطعمَ الصينيّ «ديا» في شارعِ بيار شيرّو المتقاطعِ مع شارع الشانزيليزيه.

عبر الثّلاثةُ شارعَ فرانسوا الأوّل واتّجهوا نحو ملهًى ليليّ لبنانيّ في آخرِ الشّارع. كان سعد، وهو مهندس تكيّفَ مع تجارةِ اللّحمِ الحلالِ، قد دعاهم إلى السّهرةِ. توجّهَ كلٌّ منهم إلى مكانِ إقامته في السّاعةِ الثّالثة فجراً.

في اليومِ التّالي عاد محمود وماريو إلى الجزائر. صباحَ يومِ الأربعاء، اتّفقَ محمود والبروفسّورعلى تناولِ الغداء معاً في البيارني. ما إن رأى محمود البروفسّور حتّى صرخَ:

ـ «هاي! باكو! كيف حالُك، أيّها الوغدُ العجوز! ما زلتَ تحوكُ المؤامرات؟»

ـ «بخير، مومو! وأنت، يا صديقي؟ علمتُ أنهم أعادوك سريعاً إلى منصبك!»

ـ «إنّه الواجبُ، يا صديقي!»

أثناءَ تناولِ الغداءِ تطرّقَ الرّجلانِ إلى مواضيعَ عدّة محلّيّة وعالميّة. ثمّ، بعد صمتٍ قصيرٍ، قال البروفسّور بجديّةٍ:

ـ «اسمعْ يا صديقي، لست مستعداً لتعليمِ التّكشيرةِ لقردٍ عجوز مثلك».

ـ «عمَّ تتكلّمُ، باكو؟» سأله محمود بشيءٍ من الحيرة.

ـ «أنت تعلم أنّ ما يبدو صحيحاً وجيّداً اليومَ في هذا البلدِ لا يكون كذلك في الغد. انتبهْ جيّداً إلى نفسِك. الريّاحُ تغيّرُ اتّجاهها باستمرارٍ في بلدنا».

ـ «ماذا تقول؟ أما زلتَ في مؤامراتك الحمقاء؟»

ـ «اسمعْ يا صديقي، الشّهامةُ لا تظهرُ إلا في الشّدائدِ والأزمات. اعتبر المرحلة الّتي نمرّ بها وما تقوم به أنت حالياً هما أزمتك. بالنّسبة إلى الباقي، أنتَ راشِدٌ ومُحَصّن!»

لم يبالِ محمود بكلام البروفسّور الّذي كان أشبهَ بالتّحذير. افترقَ الرّجلان عندَ بابِ الخروج من المطعم.

صباحَ يومِ السّبت، التقى في مقرّ خليّةِ المعلوماتِ والتّحريّاتِ الماليّةِ (CERIF) فريقُ المحقّقين الّذين كانوا قد سافروا بغية إجراءِ تحقيقاتٍ ميدانيّة. استمرّ الاجتماعُ حتّى السّاعةِ الرَابعةِ ما بعد الظهر. تناولَ القضاةُ الأعضاءُ في خليّةِ المعلومات والتحريّات الماليّة (CERIF) مسائلَ التّحقيقِ مع أشخاصٍ في فرنسا مرتبطين بهذه المسألة، واتّهاماتِ بعضِ الأوساطِ الفرنسيّةِ بتبييضِ الأموالِ والمساعي الواجبِ اتّباعُها في التّعاملِ مع الأربعينَ مديراً عاماً في المؤسّسات العّامة. كان بعضُ الأعضاءِ يعتقد أنّ الأمرَ، بالنّسبةِ إلى العدالةِ، يتعلّقُ بتحديدِ إذا ما كان المسؤولُ في المؤسّسةِ العامّةِ قد أودعَ أموالَ مؤسّستِهِ بنيّةٍ طيبةٍ أم لا، مع عمولةِ سمسرةٍ أم لا. وطُلِبَ منهم الحصولُ على أدلّةٍ تفيد بأنّ هؤلاء المسؤولين أودعوا المالَ العامَّ مُقابِلَ عمولةِ سمسرةٍ. لأنّ بعضهم كان يظنّ أن الإيداعاتِ تمّتْ بحسنِ نيّةٍ من قِبَلِ المودعينَ بدءًا من اللّحظةِ الّتي بلغتْ فيها نسبةُ الفائدةِ المُقدّمة من مصرفِ خُرطال أربعَ مرّاتٍ أكثرَ من تلكَ الّتي تُقدّمها المصارف العمومية.

توقّفَ المجتمعونَ أمام مسألة شائكةٍ، هي ما موقفُ الجهازِ القضائيِّ تجاهَ هؤلاء المسؤولينَ الكبارِ المتورّطينَ بشكلٍ مباشرٍ أو غير مباشر في هذه المسألة. أستمضي العدالةُ في طريقها إلى حدّ احتمالِ إدانةِ بعضِ الوزراءِ السّابقينَ وكبارِ المسؤولين؟ كيف ستستكملُ الأعمالُ الهائلةُ والحثيثةُ الّتي كانوا يباشرونها وينهونها للتّوِّ في بعضِ القِطاعاتِ إذا توقّفتِ الملاحقاتُ القضائيّةُ المحتملةُ عند الامتيازاتِ الخاصّة الّتي يتمتّع بها هؤلاء الوزراء؟ ماذا سيحلُّ بصدقيتهم كخليّةٍ ترمي إلى الكشفِ عن الحقيقةِ وإعطاءِ المثل؟ أستتمكّنُ المحكمةُ العُليا من إصدارِ حكمٍ بالاتّهاماتِ المُثْبتة؟

كلّما كانت مختلفُ فرقِ التّحقيق تتقدّمُ في تحقيقاتها، كان يضنيهم الشكُّ في إمكان الوصولِ إلى نهاية عملهم. هل يدعونهم يتابعون تحقيقاتِهم حتّى الأخير والكشفِ عن كلّ المخالفاتِ المرتكبةِ في قضيّة خُرطال؟

الاستنتاجاتُ الأوّليّةُ للقُضاةِ المحقّقينَ الأعضاءِ في خليّةِ المعلوماتِ والتّحرياتِ الماليّةِ (CERIF) طابقت تحقيقاتِ زملائهم الّذين كانوا يحقّقونَ في شأن المنافذِ الماليّةِ الّتي تقدمُ وقائعَ لا نزاعَ فيها وأرقامًا لا تقبلُ الجدلَ. وهكذا

بدا إدريس بوخدنة دَهِشًا في تقريرهِ كخبيرٍ ماليّ أمامَ الأرقامِ المُذهِلةِ الّتي كان خُرطال هولدينغ ينفقُها على قطاعِ كرة القدم. برّر ماريو الأمرَ لصديقه، بأسلوبِ المزاحِ قائلاً إن رياض خُرطال لم يحصل البتة في فريق «ملاحة حسين داي» على منصب لاعبٍ بديل، فلم يجدْ أمامَهُ سوى أن يقتَصَّ لِنفسهِ بشراءِ كلّ فِرقِ كرةِ القدمِ بما فيها فريق «أولمبي مارسيليا».

اعتمدَ تقريرُ المجموعةِ الّتي يترأسها إدريس بوخدنة على الإيداعِ الّذي قام به صندوقُ تأمينِ الشيخوخة (Casnos) ، ومقداره 10 مليارات دينار؛ و15 ملياراً أودعها صندوق الضّمان الاجتماعيّ (CNAS) ، الّذي تولّى رئاسةَ مجلسِ إدارتِهِ شخصياً (UGTA) السكرتيريا الأمين العام للاتّحاد العام للعمّالِ الجزائريين.

أمّا الصندوقُ الوطنيُّ للتّقاعدِ، فقد أودع 6 مليارات دينار؛ وصندوق توزيع المال على الشؤون الاجتماعية 6 مليارات دينار، ومصرف التنمية المحليّة 460 مليار دينار. هناك أيضاً دواوينُ التّرقية العقارية والشّركة الوطنيّة Les OPGI ومصارف ومؤسسات عامة أخرى كانت قد ، La CNAN للملاحةِ البحرية أودعتْ مليارات الدينارات. وَفْقَ التّقرير نفسه، قُدِّرتْ هذه الإيداعات بمليار دولار.

خَدَمَ ، (CERIF) بحسب أوّلِ استنتاجاتِ خليّةِ المعلومات والتّحريّات الماليّة هذا المالُ العام، بفضلِ تزويرِ فواتيرِ عمليّاتِ الاستيراد وتموين عملياتِ التَأجيرِ المعدّة، تحويلِ رؤوسِ أموال هائلةٍ إلى الخارجِ بطريقةٍ غيرِ شرعيّة. لقد كُشفت اللعبة كاملةً. كلّ عمليّةٍ كانت تستوجِبُ تمويلاً من الديناراتِ المناسبةِ للفاتورةِ النّقديّةِ لدى المصرف الموطِّن. فباتّجاه فرنسا وحدَها تمّ تحويلُ 28972 ,861 مليون يورو فقط. أضف إلى ذلك الـ 700 مليون يورو المحوّلة من الجزائر إلى بلاد أوروبيّةٍ أخرى وإلى جنوب أميركا فقط خلال الأعوام 1998 ـ 2000. إنّ المبلغَ الّذي اختفى يفوقُ2 ,2 مليارين دولار.

لم تكنْ جميع التحويلاتِ الماليّةِ الضّخمةِ غيرِ الشرعيّةِ ممكنةً لو لم يكنْ هناك هذا القدرُ الكبيرُ من الدينارات المودعةِ لدى خُرطال بنك.

ووفق ما ورد في استنتاجاتِ التّحقيقِ كذلك في شأن شرعيّةِ العمليّاتِ، لم يكن المصرفُ الجزائريّ المكلَّفُ مراقبةَ انتظام هذهِ العمليّاتِ المصرفيّةِ

متشدّداً في التّدقيق. كان قد اكتفى بالتّحققِ من مطابقةِ المبالغِ المودعةِ بالدينارِ قيمةِ العمليّات.

يصرّون على (CERIF) كان محقّقو خليّةِ المعلوماتِ والتّحرياتِ الماليّة ضرورةِ الاستمرارِ في التّحقيقاتِ حتّى تحديدِ هويّةِ الّذين أودَعوا المالَ العامَّ لدى مصرفِ خُرطال. وحدّدوا مع ذلك أنّ السّياقَ الّذي أودعَ من خلالِهِ المالُ العام في مصرفِ خُرطال كان مناسبًا جدّاً. فرياض خُرطال كان يتمتّعُ في ذلك الوقتِ بسمعةٍ جيّدة: كانتْ صورتُهُ الّتي يظهرُ بها تلكَ الأيام صورةَ رجلٍ لا يمكنُ أنْ يُمَسَّ، وكانتْ لديه منافذ على دوائر أصحابِ القرار.

أنهى إدريس كلامه على العقبةِ الأخرى الّتي يواجهها المحقّقون، وهي أن يسترجعوا المبالغَ الهائلةَ الّتي وُهبت بإسرافٍ إلى المديرين والمساهمين في المصرف.

مفادُها (CERIF) هناك مذكرةٌ أخرى لدى خليّةِ المعلوماتِ والتّحرياتِ الماليّةِ أنّ المحقّقين الفرنسيّين قدّروا مقدار الخسائر بِـ 100 مليون يورو في حالة تصفيةِ مؤسساتِ خرطال بالإضافة إلى مئات الملايين غير المدفوعة والحسابات الفارغة تقريباً.

ومديريةُ الدِّفاعِ عن DGSE بيّنت مديريةُ الاستعلاماتِ والأمن الخارجي أنَّ (CERIF) بوضوحٍ لمبعوثي خليّةِ المعلوماتِ والتّحرياتِ الماليّة DST الإقليم الاستخباراتِ العامّةِ أجرتْ مقابلةً مع رياض خُرطال وصديقه الّذي يعتبر يده اليمنى دومنيك فيرنون قبل شهرين من هروبِهِ إلى لندنَ.

استمرّتِ المقابلةُ ساعةً واحدةً، تجنّبَ رياض خُرطال خلالها الكلامَ. وتشير في شأن خُرطال وجيرار (fisc) المذكّرةُ أيضاً إلى تحقيق مصالحِ الضّرائب ديباردیو. ونتيجةً للطّموحاتِ الكبيرةِ الّتي كان خُرطال يظهرُها في فرنسا أيضاً منذُ اللحظةِ الّتي أصبحَ «Tracfin» اهتمتْ مصالحُ ملاحقةِ الجنحِ الماليّةِ فيها «مشتبهاً فيه» باستغلالِ تبييضِ الأموالِ لحسابِ جنرالاتٍ جزائريّين.

وكَشَفَ تقريرٌ تقنيٌّ آخر يتعلّقُ بشركةِ خُرطال للطّيران أنّ تبريرَ استثمار1, 6 مليون يورو من أجلِ الحصولِ على الـ 18 طائرة أيرباص منها ثلاثة A340 -500 بِـ 150 مليوناً الواحدة لم يكن هذا التبرير واضحاً بالنّسبةِ إلى شركةٍ تؤمّنُ

الطائراتُ الثلاثون العاملةُ فيها سبعةَ خطوطٍ للرّحلاتِ الخارجيّة وعشرين في الجزائر ولا تستعمل رسميّاً إلاّ 60% من سعتها.

حَرّضتْ شركةُ خُرطال للطّيران 124 قبطاناً وطيّاراً مساعداً من الطّيران المغربي من أصل 250 قبطانًا كي يعملوا لحسابِ الشّركة. بالنّسبة إلى «سليم ب». ابن جنرالٍ مسؤولٍ عن مشاريعِ التّدريبِ أصبحَ اليدَ اليمنى هو الآخر لرياض في لندن، فإنّ أجورَ معظمِ هؤلاءِ الطيّارينَ تبلغُ ضعفيَ ما كانوا يقبضونَهُ في الشّركةِ الأم. تحدّثَ التقريرُ عن الإسرافِ في هذا القطاعِ وكشفَ عن تساؤلاتٍ محورها27, 5 مليون يورو أعلنَ رسميّاً أنّها من أجلِ تدريبِ 300 قبطانٍ اختيروا من خريجي الثّانويةِ عام 2002. هذا المبلغُ أعتُبِرَ مبالغاً فيه وكذلك بالنّسبة إلى مبلغ 400 مليون يورو كرقم أعمالٍ أُفصح عنه رسميّاً.

أعلن محمود (CERIF) في ختامِ اجتماعِ خليّةِ المعلوماتِ والتّحريّاتِ الماليّة لزميليه:

ـ «الآن وقد دخلنا في صميم الموضوع، علينا أن نلعبَ بحذرٍ كبيرٍ. سنسيرُ في أرضٍ مزروعةٍ بالألغام، وعلينا أن نكونَ حذرين جدّاً، فكونوا متيقّظين».

عندما عادَ إلى منزلِهِ، حرّر مذكّرةً ليقدّمها إلى اللّواءِ عرضَ فيها خطواتِ العملِ المنجزة وتقدُّم التّحقيقِ والتّوصياتِ الأوليّة والمعاييرَ الّتي ينصحُ بها. ختمَ مذكّرتَهُ بملاحظةٍ محيّرةٍ:

«يجبُ أن نجعلَ من هذا الملفِّ أولويّةً في الجهةِ الأخرى من البحرِ المتوسّطِ. إنّ ما يهمُّ الفرنسيّين هو فقط جانبُ تهريبِ الأموالِ المرتبطةِ بشكلٍ ما بمصلحةِ الصّرائبِ، وهذا ما جرى الاهتمامُ به. أمّا القسمُ الأكبرُ من القضيّةِ فهو بين أيدينا نحن. وعلينا أن نتجنّبَ استخدامَ هذه القضيّة من أجلِ غاياتٍ سياسيّة. هذه مسألةٌ يجبُ أن تعالجَ بدقّةٍ مطلقةٍ وبحياديّةٍ على صعيدِ القضاء. لأن الأمرَ يؤثّرُ في صدقيّةِ مؤسّساتنا وفي كرامةِ الجزائر وشرفها».

بعد يومينِ على هذا الاجتماعِ، أعلنَ بيانٌ من مصرف الجزائر التّوقفَ عن تطبيقِ الحسمِ الآلي واستبدالِهِ بنظامِ التّعويضِ عن بُعد ما بين المصارف، وأنه منذ الآن فصاعدًا ستكون المصارف العموميّة مطالبةً برفضِ صرفِ الشّيكاتِ الصّادرةِ من مؤسّساتٍ ومصارفَ خاصّة. لم يتمكّنْ محمود من الامتناعِ عن

الابتسامِ وهو يرى ردّ فعلِ إدريس بو خدنة الّذي سُرّ وهو يقرأ العنوانَ في الصّحيفة.

كان الرّجلانِ قد وصلا للتّوِّ إلى قاعةِ العمليّاتِ والمراقبةِ OPS في الأركان. ثم انضمّ إليهما ماريو.

ـ «لديّ صداعٌ فظيع» قال هذا الأخيرُ مشتكياً..

ـ «غريب! شربْتَ طوال الليل، والآن تشتكي». قال له إدريس بسخرية..

ـ «هناك قهوة في الإبريق الحافظِ للحرارةِ الفضّي اللّون. اسكبْ فنجاناً سيقضي على ألمك». قال له محمود.

ـ «لا، سبقَ أن شربتُ فنجانين. أتعتقد، أيّها العقيدُ، أننا سننتهي قبلَ السّاعةِ الأولى ما بعد الظهر؟ عليّ أن أذهبَ لإحضار حماتي من المطار» سأله ماريو وهو يفتح الصّحيفة.

ـ «أوه، سيكونُ أمامَك الوقتُ لذلك! أنا أيضاً لديّ موعد، مع السّفير اللبناني». أجابه محمود.

ـ «للمناسبة، متى ستسافر؟» سأله إدريس..

ـ «مبدئيّاً صباحَ الثّلاثاء».

ـ «ياوو، ما هذا أيضاً؟» صرخ ماريو دون أن يرفع عينيه عن الصّحيفة..

ـ «كان لا بدَّ من بداية، أليس كذلك!» أجابه إدريس بفرح..

ـ «لا، لا أتكلمُ على تدبيرِ المصرف. هنا، انظرْ ما هو مكتوبٌ بشكلٍ بارزٍ في الصّفحةِ الثّالثة. من جهة، هذا البيانُ من إدارةِ الإعلامِ في خُرطال هولدينغ الّذي يثبتون فيه أنّهم لم يشاركوا في أي بيعٍ بمزاداتِ بيعِ «الأروقة الجزائرية الكبرى»؛ من جهةٍ ثانيةٍ في أسفلِ الصّفحةِ، خبرٌ عن تنحيةِ المديرِ العامِ للأملاك ومأمورِ التّصفيةِ في شركةِ الأروقةِ الجزائريّة الكبرى بمرسومٍ خلال وقتٍ قياسيّ، إثر قرارِهم التّخلّي عن المتجِرِ لمن يقدّمُ أكبرَ عرض: خُرطال، الّذي سبقَ أن أودعَ مبلغاً مسبقًا مقداره 10% على العرضِ المُقدّم في التعهّدِ بشيكٍ مصرفيٍّ.

ـ «ما كلُّ هذه البلبلة،[يا الخاوة] يا إخوة؟» سأل ماريو..

ـ «بالنّسبةِ إلى مخازنِ أروقةِ شارعِ بن مهدي، طرأت أمورٌ مضحكةٌ فعلاً. فقد حصلَ وزيرُ التّجارةِ في ذلك الوقتِ على تعليماتٍ من مركزٍ عالٍ بإدخالِ ملفِ التنازلِ عن المتجرِ إلى المجلسِ الوطنيّ للخصخصةِ وعدمِ الشّروعِ في البيعِ، لأنّ وعدًا كان قد قُطع لجماعةٍ شرق أوسطيّين مزعومين. قدّمَ خُرطال هولدينغ تعهّدًا على غرارِ المهتّمين الآخرين. كلّ متعهّدٍ يجبُ أن يحرّرَ شيكًا مقداره 10% من المبلغِ المعروضِ في رسالةِ التّعهّدِ. في تلكَ الأثناء، رحل وزيرُ التّجارة ذاك، ولم يعطِ التعليماتِ المتعلّقةَ بهذه العمليّةِ للوزيرِ الّذي جاء بعدَهُ. لم يكنْ مأمورُ التّصفيةِ القضائيُّ لمؤسسةِ الأروقةِ الجزائريّةِ الجديدة والمديرُ العامُ لأملاك الدولة في ولاية مدينة الجزائر يعرفان ما تُخَبِّئهُ هذه العمليّة. سلّما المبنى للمزايدِ صاحبِ العرض الأعلى من بين المتعهّدِين، أي لخُرطال. لم تتأخر ردّةُ الفعلِ في الظهور، فقد أُنهيت مهمّات الرّجلينِ لأنهما باعا تلك المحال لخُرطال على نحو شرعيّ تماماً. انقضّتِ الصّحافةُ على المسألةِ. اعتقدَ خُرطال أنّه يقدّمُ مساعدةً إلى أولئك الّذين حرّكوه كي يصدرَ التّكذيبَ الضروريَّ بالتوازي مع هذا البيان. إلاّ أنّ رياض خُرطال نسيَ وجودَ الشيكِ المودع! تلك يا صديقي قصّةٌ جزائريّة بكلّ معنى الكلمة.

وممثّلو خليّة المعلومات والتحريّات (DIS) افترقَ ممثّلو دائرة التّحرّي والأمن في السّاعة الأولى ما بعد الظهر. ظلّ محمود في غرفة (CERIF) الماليّة العمليّات، مشغولاً باستكمال بعض الإجراءاتِ مع ضبّاط الدّائرة. في اليوم التّالي، مرّ سريعًا بالمكتبِ قبلَ التّوجّهِ إلى خليّةِ المعلوماتِ والتّحرياتِ الماليّةِ في وزارةِ المالِ. كان هناك قضاةٌ منهمكين بحلِّ المسائل الثقيلةِ (CERIF) الّتي فرضتْها عليهم هذه المهمّةُ المملّةُ.

في إبداءِ رضاهُ أمامَ (DIS) لم يقصّرِ العقيدُ في دائرةِ التّحري والأمنِ القاضي الّذي رافقه في مهمّتِهِ الباريسيّةِ لدى قراءةِ الخبرِ الّذي نُشِر هذا تحتَ عنوان: «اللّجنةُ المصرفيّةُ تعيّنُ متصرفاً «Le Pays» الصّباحَ في صحيفةِ إدارياً موقّتاً على مصرفِ خُرطال» أُتْبِعَ بيانُ مصرف الجزائرِ بتعليقٍ طويلٍ ذُيِّلَ بتوقيع تلك الصحافيّة الّتي تُعتبرُ متخصّصةً بهذا الملفِّ في هذه الصّحيفة.

اللجنة المصرفيّة تعيّنُ متصرفاً إدارياً موقّتًا لدى مصرف خُرطال»، ذكر» البيان على وجه الخصوص. «ذكّرَ المصرف الجزائريّ في هذا البيان نفسه أن مصرفَ خُرطال يخضعُ منذ 27 نوفمبر/تشرين الثاني 2002 إلى هذا الإجراءِ الاحتياطيّ القاضي بمنعِ تحويلِ الأموالِ نحوَ الخارج». «مع هذا القرارِ، انتقلتِ الصّلاحيّاتُ الضروريّةُ الإداريّةُ في مصرفِ خُرطال إلى المتصرفِ الإداريّ المعيّن موقّتًا». «هذا الإجراءُ يؤدي إلى بتر كل مجازفةٍ من شأنِها تدميرُ الوضعِ الماليّ أمام العجزِ الظّاهرِ في إدارةِ مصرفِ خُرطال في اتّخاذِ الإجراءاتِ المطلوبة» وقد اتّخِذَ هذا القرارُ وفقاً لأحكامِ القرار155 من قانونِ القرضِ والنَقدِ.

في الليلةِ السّابقةِ وفي مقرّ الصّحيفةِ، عندما ظهرَ بيانُ اللّجنة المصرفيّة على جهاز الّتيليكس، خرجتْ زهرا عن طورها حتى أنّها ابتهجتْ للخبرِ الّذي كانتْ تنتظرُهُ منذُ أسبوعٍ على الأقلّ. حبستْ نَفَسَها في مكتبِ طاهر، سكرتير التحرير وباشرتْ كتابةَ التّعليق الّذي نُشر في اليومِ التّالي على صدرِ الصّفحةِ الأولى:

«إنّ مَن كان يحظى بكلّ وضوحٍ بدعمِ أصحابِ الأمرِ والنّهي في أعلى المستوياتِ على نحو يمكّنُهُ من تنفيذِ عمليةِ نصبٍ واحتيالٍ تصل إلى حدِّ سحبِ أكثر من 3 مليارات دولار من صناديق الخزينة العامّة، لم يعُدْ ينفعه شيءٌ. الهولدينغ الخياليّة الّتي تضمُّ عشرين ألفَ موظّفٍ ستنهارُ كقصرٍ من ورقٍ مع طرحِ التساؤلاتِ عن حجرِ الأساسِ لهذا المجمعِ الاقتصاديّ المتمثّل في خُرطال بنك.

حتماً لن يقصّرَ الاستجوابُ القضائي الّذي سيلي هذا التّدهورَ في كشفِ سلسلةِ انعكاساتٍ واتّهاماتٍ».

طرحتْ زهرا في تعليقها الطّويلِ السؤالَ المحيّرَ عن الصّمتِ المربكِ للحكومةِ الّتي يترأسُها بن سيس في شأن التّداعياتِ الاقتصاديّة والماليّة للهولدينغ.

هذه الحكومةُ غابتْ عن التّصرّفِ لدى بداياتِ البلبلةِ الّتي حدثتْ في» الهولدينغ لوقف عمليّةِ النزفِ المالي لخزينةِ الدّولةِ. هذه العمليّة الّتي اتّصفت

باختلاسات لم يسبق لها مثيلٌ حتّى الآن. وهناكَ مسؤوليّة مريبة للرئيس السّابق للحكومةِ في الفضيحةِ الماليّةِ الكبرى خاصّة أنّ بعض الوزراء السّابقين في حكومتِهِ، يؤكّدون أنّهم مستعدّون للإدلاءِ بشهاداتِهم أمامَ قاضي التّحقيقِ في حالِ التّحقيقِ من أجلِ إلباسِ القبّعةِ لبن سيس».

ختمتْ زهرا تعليقَها بإبداءِ رأيٍ شخصيٍّ في ما سبقَ أن وصفتْهُ بِـ «عملية القرنِ الاحتيالية» الّتي يمكنُ أنْ تكونَ مشابهةً لجريمةٍ اقتصاديّةٍ وماليّةٍ.«هذه الجريمة ثابتةٌ الآن، فصدقيّةُ رياض خُرطال وكمالُهُ كانا مصوغين بأحجارٍ مزوّرة ومبنيَّينِ على رملٍ وبدونِ أيّةِ براعةٍ».

قبل أن تُسلّمَ الأوراقَ الأربعَ المكتوبةَ بخطِّ اليدِ، قرأتْها أمامَ طاهر الّذي أبدى، على نحو غريب، اهتماماً خاصاً. عندما انضمّتْ «غانو» إليها في مكتبِ طاهر، رمتْ زهرا نفسها في حضن صديقتها، وصرختْ والدّموعُ بعينيها:

ـ«انتهى الأمر، غانو! سيدفعُ أخيراً، برغمِ المليارات الّتي كان قد كدّسها. هذا المساء، [انهنّي تيزي] سأضعُ الحِنّاءَ على شعر عانتي. العالمُ كلّهُ لا يتّسعُ لفرحتي».

أعادتها ذكرياتُها وشياطينُها القديمةُ إلى ذلك اليومِ الّذي هجرها فيه، ضعيفةً منهارةً في مطارِ تونسَ. وهي عائدةٌ إلى البيتِ، في وقتٍ مبكرٍ على غيرِ عادتها، اشترتْ من عندِ العطّارِ عُلبةَ حِنّاءٍ ثمّ حبستْ نفسَها في الحمّامِ.

لشدّةِ تحمّسِها، اتّصلت السّاعةَ السادسةَ ما بعد الظّهرِ بالبروفسّور الّذي تقيمُ معه علاقاتٍ ملتبسةٍ.

ـ «باكو! أعيشُ اليومَ أجملَ أيّامِ حياتي. تعالَ، سنخرجُ هذا المساء. سأفعلُ لكَ كلّ ما تريدُهُ. أريدُ أن أحتفلَ بسعادتي. سترى، سأجعلُكَ تعيشُ يومَ خِتانِكَ، يا رَجُلي!»

قبلَ أن تخرجَ، وهبتْ نفسَها للبروفسّور، وكأنها تريدُ إقحامَهُ في عالمِها. اكتشف البروفسّور شعرَ عانةِ زهرا المصبوغ بالأحمر. شرحتْ لهُ أنّ النّساءَ يصبغْنَ شعرَ عانتهنّ للتّعبيرِ عن السّعادةِ الكبيرةِ أو للتّمتّعِ بالفشلِ أو بالتعاسةِ الّتي تغمُّ أعداءَهنّ وخصومَهنّ.

تناولا العشاءَ على الشّاطىءِ الغربيّ وختما السّهرةَ في ملهى «التريانغل». لقد أكثرتْ زهرا من الشّربِ ورقصتْ طوالَ اللّيل. عادا في السّاعةِ الثّالثةِ وخمسين دقيقة فجرًا. اضطرّ البروفسّور إلى أن يستعينَ بالفياغرا كي يتمكّنَ من إشباعِ نهمِ زهرا الجنسيّ.

عاد إلى منزلهِ في السّاعةِ السّابعةِ صباحاً. أمّا هي فتركتْ سريرَها في بدايةِ فترةِ ما بعد الظّهرِ عندما زارتْها غانو تحملُ بيدها نسخةً من صحيفةِ «Le Pays» .

فيما كانتْ زهرا تحاولُ أن تغرقَ مجدّداً في حالةِ النّشوةِ الّتي عاشتْها الليلةَ الماضية، كان محمود يجلسُ مستريحاً في مقصورةِ درجةِ رجالِ الأعمالِ على متنِ الرّحلةِ 6235 التّابعةِ للطّيرانِ المغربي المتوجّهةِ إلى دُبيّ عن طريقِ بيروتَ.

لدى وصولِهِ إلى بيروتَ في السّاعةِ العاشرةِ ليلاً، استقبلَهُ وكيلُ السّفارةِ الّذي اصطحبَهُ إلى فندقِ الميديترانييه، أحدِ الأماكنِ في بيروتَ، الّتي تقدّمُ أفضلَ اللحومِ المشويّة في البلدِ. عندما استقرّ في غرفتِهِ، اتّصل بفاوو على هاتفِها المحمولِ. لشدّةِ سعادتِها، خرجتْ ببدلةِ الرّياضةِ واجتازتْ نصفَ بيروتَ بسيّارتها الـ 206 لملاقاتِهِ في غرفتِهِ في الفندقِ. لم يضيّعا أيةَ لحظةٍ وتركا نفسيهما يغرقان في لذّاتِ العناقِ المدوّخة لوقتٍ طويلٍ من النّشوة والمتعة.

عندما هدأت أشواقُهما، علا وجهَ فاوو مسحةُ حزنٍ وهي تعبّرُ عن فرحتها برؤيةِ صديقها لأنّها كانتْ بحاجةٍ ماسّةٍ إليه إلى جانبها في هذا الوقت. إن المتاعب الّتي يسببها لها ابنها نيكولاس تدفعُها نحوَ الانهيار المؤكّدِ.

في السّاعة الثّانيةِ والنّصفِ، عادت إلى بيتها، تاركةً محمود يستريح بعد تعبِ أربعِ ساعاتٍ من الطّيرانِ، ومن جرّاءِ اللّحظاتِ الملتهبةِ الّتي عاشاها معاً.

في السّاعةِ الثّامنةِ من مساءِ اليوم التّالي، مرّت فاوو لاصطحابه. كانا مدعووّينِ للعشاءِ عند صديقهما سامي. في الطّريقِ إلى المطعمِ، قالتْ له فاوو بصوتٍ حادٍّ وبجدّيةٍ تامّةٍ وبدونِ مقدّمات:

أن أقدّمَ لها تقريرًا عن «TSD» ـ «لقد طلبتْ مني مديريةُ الدّفاعِ عن الإقليم لقاءاتِنا».

لاحظ محمود الحزنَ العميقَ في نظرتها.

«ثمَّ ـ...»

ـ «ولكنّك تُدرك، يا حبيبي؟ أنّهم يفعلون معي ذلك لأنني جزائريّة. يريدون في المنطقةِ DST استعمالي للوصولِ إليك! يلعن دين أمّهِ، رئيس الـ».

«ـ «لا، لا تقولي هذا، حبيبتي؟ هل طلبوا منك شيئاً بالتّحديد؟

ـ «يريدون بشكلٍ خاصّ معرفةَ دفترِعناوينكِ هنا وتحديد هويّةِ من تلتقيهم في بيروت».

ـ «باه، إنّهم لا يزالونَ يحاولونَ الإمساكَ بزمامِ القيادةِ والسّيطرةِ على نشاطِ الجزائر في صُهارة الشّرقِ الأوسط؛ لا يزالُ يراودُهم هاجسٌ بالنّسبةِ إلى مواقعنا ودورنا خلال الحرب الأهليّة. دعمُنا مختلفَ الفصائلِ الفلسطينيّةِ يزعجُهم كثيراً. في نهايةِ الأمرِ إنّهم لا يفقدون طريقهم. ثمّ هم لا يمزحون عندما يتعلّقُ الأمرُ بالمصالحِ الفرنسيّة».

سكتَ محمود لحظةً. كانتِ السّيّارةُ تسيرُ مُسرعةً وفاوو تبدو متوترةً جدّاً.

ـ «حبيبتي، لا تشغلي نفسَكَ كثيراً. أخبريهم عن لقاءاتي، قولي لهم الحقيقةَ؛ إنني هنا في إطارٍ مهني، وإن عملي محوره ملف خُرطال. هم يعلمون، لأننا نعملُ معًا على الموضوعِ نفسِهِ منذُ فترةٍ من الزّمن. هناك تعاونٌ إيجابيٌّ بين دوائرِ البلدين. وهذا كلُّ شيء».

ـ «أنت تعلمُ يا حبيبي، هذا الأمر يُزعجني كثيراً. القوّاد، كاد يُهدّدني في مهنتي».

«ـ «قولي لهم الحقيقةَ وكلُّ الأمورِ ستجري على ما يرام!

نزلا أمامَ مطعمِ آروما. اهتمّ مسؤولُ المرأب بركنِ السيّارة الـ 206. علتِ الابتسامةُ وجهَ سامي وهو يفتحُ ذراعيهِ، تعانقَ الرّجلانِ ثمّ جلسَ الجميعُ في الصّالونِ الصّغيرِ ليتناولوا فاتحاً للشهيّةِ في انتظارِ بقيّةِ المدعوينَ. طرحَ سامي تساؤلاتٍ في شأن الاضطرابِ الّذي يهزّ الجزائرَ منذُ شيوعِ فضيحةِ خُرطال:

ـ «لقد أصبحَ المبعوثون بينَ الجزائرِ وبيروتَ، الّذين يقومونَ برحلاتٍ مكّوكيّةٍ، حاملينَ حقائبَ محشوّةً بأوراق اليورو، حديثَ السّاعةِ في كلِّ المنتدياتِ هنا».

قال سامي ساخراً.

ـ «تماماً؛ هؤلاءِ المُكلّفونَ ينقلون الأموالِ يودعونَ مبالغَ طائلةً عندَ مصرفِ «باركلي» ويعودونَ إلى الجزائرِ حاملينَ الحقائبِ نفسها ملأى ببطاقاتِ اعتمادٍ نقديّة غيرِ محدودة. أنتَ تعلمُ أنّهُ بالنّسبةِ إلى البطاقاتِ المصرفيّةِ، تتمُّ مراقبةُ منطقةِ أفريقيا وأوروبا الشّرقيّةِ وآسيا من هنا من بيروتَ، عن طريقِ الأمريكان أكسبرس تحديداً». أجاب محمود.

انضمَّ إلى الأشخاصِ الثّلاثةِ ثلاثةُ ثنائيّاتٍ بينهم السّفير وزوجتُهُ. لم يعدْ محمود إلى غرفتهِ في الفندقِ بل قضى الليلةَ في منزلِ فاوو. عملَ بجدٍّ طوالَ نهارِ الأربعاءِ وغادرَ السّفارةَ نحوَ السّاعةِ السادسةِ مساءً. ما إن وصلَ إلى الفندقِ حتّى اتّصلَ بهِ السّفيرُ شخصياً. أخبرهُ بأنّهُ استلمَ رسالةً مُشفّرةً يطلبونَ منه فيها أن يعودَ بسرعةٍ إلى الجزائر. حاولَ محمود الاتصالَ بإدريس وماريو على هاتفيهما المحمولين، ولكن عبثاً، فقرّرَ السّفرَ على متنِ أوّلِ رحلةٍ متّجهةٍ إلى تونسَ ومنها إلى الجزائرَ بعد توقّفٍ قصير.

كان مضطرباً جدّاً بسببِ التّغييرِ المفاجىء الّذي طرأ على برنامجِهِ. أمّا فاوو فكانتْ تعيسةً جدّاً إثرَ رحيلِهِ المبكّر.

عند وصولهِ إلى الجزائر، اتّصلَ بإدريسَ الّذي وعدَهُ بأن يمرّ لاصطحابهِ من المطار.

«ـ ما هذا، يا إدريس، ما الّذي يجري؟»

«ـ منصف، أيّها العقيد...»

ـ «ما به، ماريو؟ سأله محمود.

ـ «لقدِ اغتيلَ صباحَ الأمس». قال إدريس باكياً.

«ـ ماذا؟ ما تقولُ، أيّها النّعيس؟»

«ـ ماريو، الله يرحمه. تعرّضَ لاغتيالٍ!»

استندَ محمود إلى عربةِ الأمتعةِ. كانتِ الصّدمةُ قويّةً جدّاً عليهِ حتى أنّهُ لم يعدْ يشعرُ بساقيه. شحبَ لونُ وجههِ. اتّجهَ نحوَ حافّةِ نافورةِ المياهِ وغسلَ وجهَهُ. انضمّ إليهِ إدريس وهو يدفعُ العربةَ أمامَهُ. كانت عيناه حمراوين مبلّلتينِ بالدّموعِ ولحيتُهُ الّتي لم يحلقْها منذ يومينِ تجعلُهُ يبدو خائرًا. شردتْ أفكارُ محمود متذكّراً قامةَ ماريو برباطةِ جأشِهِ ونظرتِهِ الثّاقبةِ. انتابَهُ قلقٌ كبير. ظلّ

الرّجلانِ جالسينِ جنباً إلى جنب، صامتين عندَ حافّةِ النّافورةِ على وقع ذهابِ المسافرين وإيابهم. بعدَ لحظاتٍ بدتْ أبديّةً أحسّ محمود بالزّمنِ يتوقّفُ وقال بصوتٍ ضعيف:

ـ «وكيفَ حصلَ ذلك، وأين؟»

ـ «صباحَ أمسِ في السّاعةِ الحاديةِ عشرةَ إلاّ ربعاً، كان متّجهًا إلى«واد السمار» في مهمّةٍ، عندما وقعَ في فخٍّ نُصِبَ لهُ في وسطِ الطّريق عند نقطةِ «سعيد حمدين». وفقَ أقوالِ الشّهودِ، دنا شابّانِ يركبانِ درّاجةً ناريّة وتخفي خوذتانِ وجهيهما، من البيجو 306؛ وأطلقَ أحدُهما رصاصتينِ أصابتاهُ في رأسِهِ مباشرةً. اختفتِ الدّرّاجةُ النّاريةُ واصطدمت البيجو 306 بالمِزلاق، ثمّ التفّتْ وضربتْ ضربة قوية بثلاث سيّاراتٍ أخرى. نتجَ من الحادثِ عددٌ من الجرحى، وتوفّي منصفٌ على الفور...»

ـ «إنّها عمليّة مُدَبَّرة، الأمرُ واضحٌ، فلنذهبْ إلى منزلِهِ». أمرهُ محمود.

في السّيّارةِ، قرأ عن دفنِ صديقِهِ. على الصّفحة الأولى لصحيفةٍ موضوعةٍ على حافّةِ لوحةِ القيادةِ الأماميّةِ للسّيّارةِ، كان مكتوبًا فيها «تعرّضَ ضابطٌ في الجيشِ لعمليّةِ اغتيالٍ على طريقِ غربِ الجزائر. قوّاتُ الأمنِ تبحثُ عن درّاجينِ».

في المقبرةِ، كان هناكَ حشدٌ كبيرٌ من النّاس. الكثيرُ من الضبّاطِ أصحابُ الرُّتبِ العاليةِ في الجيشِ ومسؤولونَ في المؤسّساتِ وموظّفونَ ورجالُ فكرٍ. لم يكن هناكَ صلاةٌ جنائزيّةٌ ولا مراسم رسميّةٌ. اكتفى الإمامُ الّذي أشرفَ على مراسم الدّفنِ بتلاوة الأدعيةِ المعتادةِ في مثلِ هذهِ الظروفِ. كان الحزنُ والأسى في ذروتِهما لدى كلِّ النُّفوس. دنا محمود من السّيناتور الّذي كان مُحاطًا بالبروفسّور وبوزيرٍ سابق.

عانق محمود الرّجالُ الثلاثةُ بحزنٍ بالغ. تناولَ البروفسّور الصّحيفةَ من يدِ محمود. في أسفلِ الصّفحةِ مقالٌ طويلٌ يروي عمليّة الاغتيالِ مؤطّرٌ بذكرِ أوّلِ تدابيرَ احترازيّةٍ اتّخذها المتصرفُ الإداريُّ الموقّتُ ومأمورُ التّصفيةِ لشركةِ طيرانِ خُرطال ولمصرفِ خُرطال. وتطرقَ المقالُ إلى الفوضى العارمةِ الّتي تعيشُها فروعُ مصرفِ خُرطال كلّها وإقفالِ بعضها، وإلى تعليقٍ تامّ لنشاطاتِ

بعضها الآخر، وهذا ما سبّبَ حشودًا كبيرةً للمواطنينَ أمامَ مكاتبِ وكالاتِ مصرف خُرطال. عند مغادرةِ المقبرةِ، أشار السّيناتور بإبهامهِ إلى الصّحيفةِ وقال بحدّةٍ:

«ـأوقفوا النّميمة؛ يجب أن نزيلَ هذه القاذوراتِ الآن».

في اليومِ التّالي، تناولتْ عشراتُ الصحفِ اليوميّةِ الجزائريّةِ المعلوماتِ الّتي نشرتْها بالأمسِ صحيفةُ «Le Pays» ، وأعادتْ نشرَ الخبرِ بكلِّ حماسة وأفاضتْ بالكلامِ على الأوضاعِ المذهلةِ الّتي يعيشُها مطارُ الجزائر. «كلُّ طائراتِ شركةِ خُرطال أيرويز مسمّرةٌ على الأرض».

كان الحصارُ الّذي فرضهُ المصرفُ الجزائريُّ قد دفعَ برياض خُرطال لتوجيهِ رسالةٍ إلى كلِّ السّلطاتِ المختصّةِ يعلنُ فيها احتمال توقّفِ نشاطاتِ شركةِ طيران خُرطال الّتي لم يعد بإمكانها مواجهةُ ارتباطاتِها. وقد تكونُ ردّةُ فعلِ المصرفِ الجزائريّ اعتُبرتْ ردًّا على هذا البلاغ. وبهذا التصرُّفِ، تأخذُ السّلطةُ مُنّسعًا من الوقتِ وتحاولُ تبرئةَ ساحتها أمامَ البلبلةِ الّتي لن يتأخرَ في إثارتِها تدهورُ الهولدينغ مع توقّفِ نشاطاتِ خُرطال للطّيرانِ الّتي تؤمّنُ 80% من نشاطِ النقلِ الجويّ على مستوى الخطوطِ الجويّة الدّاخلية.

كان القلق يُقْرأُ على جميع الوجوه في مقرِّ الإدارةِ العامّةِ لشركةِ خُرطال أيرويز في منطقة سعيد حمدين. وخلفَ الابتساماتِ الصّفر الّتي يبديها المسؤولونَ والموظّفونَ، كان هناك قلقٌ حقيقيٌّ ينهشُ نفوسَهم كلسعات السّوطِ جرّاء الأخبارِ والتعليقاتِ المنشورةِ هذا الصّباحَ في عشرِ صحفٍ يوميّة. وكان موضوعُ الخوفِ من فقدانِ العملِ يستحوذُ على أكثر الأحاديث. لقد جعلَ موظّفو الشّركةِ هذا الأمرَ شغلَهم الشّاغلَ. حاولَ المسؤولونَ قدرَ استطاعتِهم أن يبدوا مطمئنّينَ أمامَ عيونِ الموظّفين. منذ يومين، وجدت الشّركةُ نفسَها ملزمةً بإعادةِ النّظرِ في خفضِ عددِ رحلاتِ الشّبكةِ الدّاخليّة والدُّوليّةِ. في أقلِّ من أسبوعٍ، انخفضتْ نسبةُ الرّحلاتِ بشكلٍ ملحوظٍ. ظلَّتْ إدارةُ الشّركةِ في هذه الفترةِ في حالةِ ترقُّبٍ في انتظارِ تبدُّلِ الأمورِ كي تتأكدَ حولَ مصير ال3000 عاملٍ الموزّعينَ بينَ الوكالاتِ والمحطّاتِ ومكاتبِ التّمثيلِ ومقرِّ الشركةِ الأساسيّ.

تؤمّنُ شركةُ خُرطال للطّيران، بالأسطولِ المؤلّفِ من 21 طائرة أيرباص، و7 ATR ، 80% بوينغ وطائرتي من نقلِ المسافرين و100% من شحنِ البضائعِ داخل أراضي الوطنِ. كانتِ الشّركةُ إلى حينِ وقوعِ هذه الأزمةِ تطمحُ إلى شراءِ 10 طائرات ART 27 وثلاثِ طائرات A330 و10 طائرات A340 باستثمارِ طائراتٍ مروحيّةٍ وجتْ لرجالِ الأعمالِ ومركبات أخرى.

للأسف، في أقلّ من أسبوع، أُعيدتْ كلُّ الطّائرات المُستأجرة على أساسِ نيّة الشّراء في ما بعد. كما أُلغيت الرحلاتُ الواحدة تلو الاخرى.

وأصبح مطار هوّاري بومدين يعيش فوضى عارمةً وارتباكاً عاماً على مدى الأسبوعِ الّذي تلا هذه الأحداث. المسافرون الّذين حجزوا مع طيران خُرطال باتّجاهِ مدنِ الدّاخلِ لم يكونوا يعلمون بعدُ إلى من سيلجأون. أجهزةُ الحواسيبِ الآليّةِ في شبابيكِ بيعِ التّذاكرِ مُطْفأة، والمكاتبُ خاليةٌ ممن كانوا يشغلونَها. لم يكن لدى الوكيلِ التّجاريّ أيّةُ معلومةٍ، لقد كُلِّفَ مهمّةَ تكرارِ الجملةِ نفسها يومياً «سيُستأنفُ العملُ غداً».

في هذا الوقتِ نفسه، بلغتْ موجةُ صدمةِ هذا الزّلزالِ ذروتَها. ونتيجةً لهذا الوضعِ الوخيمِ، بدأ الاختلالُ في التّوازنِ الاجتماعيّ وبرزت الاضطراباتُ الاجتماعيّة. حتماً ينعكسُ ذلك على نظامِ النّقلِ بين المناطقِ الدّاخليّة. فسكّانُ المناطقِ الجنوبيّةِ هم أكثرُ المتضرّرينَ، نظراً إلى ما فُرضَ عليهم من جزاءٍ عشيّةَ موسمِ العُطل. قد تقفلُ بعضُ المطاراتِ بلا قيدٍ أو شرط. لأنَ خطّةَ تجديدِ البنيةِ الهيكليّةِ للمؤسّسةِ لم تؤدِّ إلى أيّةِ نتيجة. برغم التضامنِ التّامِّ الّذي يبديهِ العمّالُ، فإن المؤسّسةَ وُضعتْ تحتَ التّصفيةِ القضائيّةِ. وقد سُمّيَ مأمورٌ قضائيٌّ بعد بضعةِ أيّامٍ على تعليقِ وزارة النقل رخصة ملاحةِ الشّركةِ برغم من توافر 80 مليون دولار في صناديقِ الشّركةِ بحسبِ أقوالِ رئيسِ الهولدينغ.

بعدَ أسبوعٍ على دفنِ ماريو، وفي صباح مشرقٍ، أوصلَ إدريس بوخدنة ابنتَهُ المعوّقةَ جسديًا إلى المدرسةِ المتخصّصةِ للمعوّقينَ في «حدرة». كان يعبرُ الجسرَ عندما تخطّتْهُ سيارةُ رينو ترافيك سلكتْ طريقَ «بير مراد رئيس» وسارتْ على طريق «السيتروين اكزارا» الّتي يسلكها إدريس ثم خفّفتْ

سرعتَها تدريجًا، لم ينتبه إدريس في البدايةِ للمكيدةِ الّتي تحاكُ حولَهُ. وعندما خفّفتِ العربةُ سرعتها دفعةً واحدةً أطلقَ إدريس بوقَ سيّارتِهِ. عندئذ فُتِحَ بابا عربةِ النّقلِ الخلفيانِ فجأةً وصوَّبَ رجلانِ ملثّمانِ بندقيتيهما الرشّاشتين Uzi على مقدَّمِ السيّارة «السيتروين اكزارا». بصعوبة تمكّن إدريس من الدّوسِ على الفراملِ. أطلقتِ الشّاحنتانِ ستّينَ رصاصةً عليه. تناثر حُطامُ الزّجاجِ الأماميّ وتدفّقَ الدّمُ من أنحاءِ جسدِهِ وسقطَ رأسُهُ على المِقود.

صفق القتلةُ أبوابَ عربةِ الفان الّتي ضاعفت سرعتَها واختفتْ في أحد الأزقّةِ المجاورة. هُرع رُكّابُ عربةٍ كانت تسلكُ الطّريقِ نفسها نحوَ السّيارةِ الاكزارا. كان إدريس يتنفّسُ بصعوبةٍ، وجهُهُ مُغطًّى بالدّماءِ، والبقعةُ القرمزيّةُ لا تتوقّفُ عن الاتّساعِ. كانتْ ثماني رصاصاتٍ أصابتْ إدريس في جبهتِهِ ووجههِ وصدره، استقرّتْ إحداها في عنقِهِ وقطعت الودجَ الأيمنَ وكانَ الدّمُ يتدفّقُ على زجاجِ نافذةِ السّيارةِ النصفِ المفتوحِ قليلاً ويسيلُ على البابِ. وصلتْ سيّارةُ الإسعافِ بسرعةٍ في الاتّجاه المعاكسِ للسير. سَلّمَ الضّابطُ الرّوح إلى باريها عند مدخلِ المستشفى العسكريّ في «عين النّعجة» غيرِ البعيدِ عن مكانِ الاغتيالِ.

كان الحزنُ (CERIF) بعدَ الظّهرِ، في مقرِّ خليّةِ المعلوماتِ والتّحريّاتِ الماليّة والهلعُ المطلقانِ يخيّمانِ على الجميع. كان القُضاةُ والضّباطُ يناقشون الحدثَ بألمٍ ونقمةٍ. أمّا محمود فكان متعلّقاً بسمّاعةِ الهاتفِ. الألمُ الحادُّ يمزّقُ أسفلَ بَطْنِهِ من جهةٍ إلى جهة. في تلك اللّحظاتِ كان يتمنّى أن يكونَ هذا مجرّدَ كابوسٍ سيتبدّدُ على الفورِ عندما يستيقظُ. ولكن ما إن أدركَ أنّه ليس كابوساً، حتّى أحسّ بالذّعرِ ولم يتمكنْ من حبسِ دموعٍ سالتْ حارّةً على خدّيهِ.

بعدَ ظهرِ اليومِ نفسِهِ، كان البروفسّور يخرجُ برفقةِ زهرا من مكاتبِ الصّحيفةِ، رافقهما عمرو حتّى سيّارةِ المرسيدس 300. في المساءِ، زار حاميه. قدّمَ له تقريرًا عن تنفيذِ المهمّة.

ـ «عمَلتُ على نحو يجعلُ الضوضاءَ الصّحفيّةَ حولَ هذه القضيّةِ تنخفضُ درجةً خضوعاً تامّاً «Le Pays» وتخضعُ صحيفة».

ـ «آه، هذا خبرٌ جيّد. هذا يليق بصديقك. فهمتُ بالنّسبةِ إلى صديقتكَ زهرا. ولكن بالنّسبةِ إلى خضوع الصّحيفةِ، كيف تصرّفتَ؟»

ـ «بكلِّ بساطةٍ أبرزتُ فاكساً بأمر تحويلٍ مصرفيٍّ من خُرطال لمصلحةِ أحدِ مديريّ صحيفة «Le Pays» نُشِرَ قبل يومين في صحيفةٍ يوميّةٍ مواليةٍ للحكومةِ، واللعبةُ لُعِبَتْ».

أيّ تعليقٍ يخصُّ مختلفَ وجوهِ هذه القضيّة. «Le Pays» لن تنشرَ صحيفةُ ستكتفي بنشرِ الأخبارِ المُثبتةِ في الصّحفِ الأخرى.

في الواقعِ تطوّرت الأمورُ بسرعةٍ. الجزائريّونَ والغرباءُ رزحوا تحتَ وقعِ الأحداث.

توقّفتْ سلسلةُ الاغتيالاتِ بعدَ حادثِ الاغتيالِ الّذي دُبِّرَ لمحمود. يوم الجمعة، في بدايةِ فترةِ ما بعدَ الظّهرِ، وفيما كان محمود عائداً مع ابنِهِ الّذي يبلغُ التّاسعةَ من عمرِهِ من المسبحِ، وقعَ في فخٍّ. في أحدِ الشّوارعِ المؤدّيةِ إلى «فال حيدرة»، لم يلاحظْ أنّ الطّريقَ مزروعةٌ بالمساميرِ عند منعطفِ مفترقٍ. انفجرتْ عجلتانِ معاً في سيّارتِهِ الكورولا. تفحّصَ محمود الجوارَ حولَهُ قبلَ أن ينزلَ ليرى الأضرارَ. لم يكنْ هناك أحدٌ. شوارعُ الجزائرِ كعادتِها أيّامَ الجمعة قليلةُ الحركةِ. ومع اقترابِ موعدِ الصّلاةِ تصبحُ شبهَ خاليةٍ.

نزلَ واتّجهَ نحو مؤخّر السيّارة. فجأةً ظهرَ ثلاثةُ ملثّمينَ، لا أحدَ يدري من أين خرجوا. تمركزوا حولَ السّيّارةِ وأمطروها وأمطروا شاغليها بوابلٍ من الرّصاص. فتحَ محمود بابَ السيّارةِ ورمى بنفسِهِ على ابنهِ في محاولةٍ يائسةٍ ليحميهِ مستعملاً جسَدَهُ دِرْعاً واقية. توقّفَ أزيزُ الرّصاص، اختفى المهاجمونَ في سيارةِ بي أم دوبل فيه متوقفةً بعيداً. بذهولٍ كبيرٍ لاحظَ محمود أنّ ابنَهُ لا يتحرّك. على أصابعِهِ سائلٌ دافئ ولزج؛ أحسّ بشيء يجتازُ سلسلةَ ظهرِهِ عندما رأى نقطَ الدَّمِ الزهريّةَ اللّونِ تخرجُ من صدرِ ابنِهِ عندَ أسفلِ عنقِهِ. كانت بلوزةُ الصبيّ ممتلئةً بالدِّماء. حملَ العقيدُ ابنَه بين ذراعيهِ ووقفَ وسطَ الطّريقِ. مرّتْ سيارةُ شحنٍ نقلتهما إلى المستشفى. دخلَ الصّبيُّ في حالةِ الغيبوبةِ. بعد أسبوعٍ نُقل إلى مستشفًى باريسيٍّ حيثُ توفّيَ بعدَ ثلاثةِ أيّامٍ.

كان محمود عائداً من مدينةِ البليدة عندما اتّصلتْ به زوجتُهُ من مستشفى Salpétrière صال بيتريار في باريسَ لتخبرَهُ وهي تبكي بوفاةِ ابنِهما. وقتذاك كانت السّاعةُ تشيرُ إلى العاشرةِ والنّصفِ صباحاً. السّيارةُ تسيرُ بسرعةٍ كبيرةٍ. الألمِ نفسه الّذي أحسّ به في أسفلِ بطنه عادَ يقطّعُ أمعاءَهُ من جديد. أحسّ بشفتيهِ تجفّانِ، تراءى لَهُ وجهُ ابنهِ كريم ونظرةُ ماريو الثّاقبة وابتسامةُ إدريس الخجولة. ولم يستطعْ حبسَ دمعةٍ لا يدري من أين ظهرتْ. نعم، الرّجالُ يبكونَ وعموماً يختبئونَ عندما يفعلونَ ذلك. التفتَ نحوَ جبلِ «الشريعة»، وظَنّ أنّه يرى الجبالَ تبكي.

جاء البروفسّور لزيارتِهِ في منزلهِ في اليومِ التّالي لعمليّةِ الهجومِ. تصرّفُ البروفسّور أجبرَ محمود على تسويةِ خلافٍ حادّ مع الوسيط المساعدِ للأشباحِ. فلكمهُ على فكّهِ فسقط أرضاً. كان البروفسّور قد أجابَ بكلامٍ متعجرف عندما صرخَ محمود في وجهِهِ متأثراً من شدّةِ حزنِهِ، قائلاً:«ماذا تريدون؟ أتريدون تدميرَ رجلٍ يبحثُ عن الحقيقةِ أم أنّكم تريدونَ تدميرَ الحقيقةِ نفسِها كي لا يعثرَ أحدٌ عليها؟»

ـ «انتبهْ إلى كلامِك، أيّها العقيدُ! أنتَ تقتربُ على نحو خطيرٍ من الخطِّ الأحمر» أجابهُ البروفسّور بتعالٍ. تلكَ هي اللّحظةُ الّتي فقدَ فيها محمود أعصابَهُ بعدَ موتِ ابنِهِ وغرقَ محمود في إحباطٍ تامٍّ استمرّ أكثرَ من شهر. كان أصدقاؤهُ ورؤساؤه قد حاولوا جهدَهم لمؤازرتِهِ في محنتِه. حتّى أنّ اللّواءَ نفسَهُ زاره ذاتَ مساءٍ ليقنعَهُ بالعودةِ إلى عملِهِ وإنهاءِ مهمّتِهِ مع خليّةِ تلك كانتْ أفضلَ طريقةٍ لتخفيفِ (CERIF). المعلوماتِ والتّحريّاتِ الماليّةِ حزنِهِ العميقِ. استعادَ محمود عملَهُ بعدَ ثلاثةِ أيّامٍ من زيارةِ الرّئيسِ الكبيرِ لَهُ.

الفصل الخامس والعشرون

سقوطُ إمبراطوريّة الرّمال

مَعَ إفلاسِ مصرفِ خُرطال وإقفالِ وكالاتِهِ، بعدَ تصفيةِ خُرطال إيرويز، حلّتْ أزمةٌ اجتماعيّةٌ. تلت عمليّاتِ الاغتيالِ عمليّاتُ سلبٍ على نطاقٍ واسعٍ. تحوّلتْ مسيراتُ وتّظاهراتُ آلافِ المُدَّخِرينَ الّذين نُهبتْ مدّخراتِهم إلى فتنةٍ حقيقيّة. اعتصامُ العمّالِ المصروفينَ أمامَ المباني العامّة جرى تفريقُهُ بضرباتِ الهراواتِ وبالقنابلِ المسيّلةِ للدّموعِ.

تعيشُ مدينةُ الجزائر يوميّاً فوضى عارمةً. كلّ يومٍ يأتي حاملاً حصّتَهُ من الدّموعِ والتّعاسةِ والبؤس. تعرّضتْ مكاتبُ خُرطال تي. في و في K. News مدينةِ الجزائرِ للنّهبِ. العاملون في القناتين دخلوا في حربٍ داخليةٍ ليس لها أي معنًى خاصةً بعد أن اكتشفوا أنّهم لا يتمتّعونَ بأيِّ وضعٍ قانونيٍّ واضحٍ نظراً إلى حال تلفزيون خرطال نفسِهِ في الجزائر، لقد أصبحَ مجردَ مصلحةٍ بسيطةٍ تابعةٍ لخليةِ الإعلام في الهولدينغ.

في باريسَ، بدأ بعضُ المموّلينَ يُفكّكونَ أجهزةَ الاستديو 107 سان سانت دني. ورفعَ بعضُ العمّالِ قضايا لدى المحاكمِ مطالبينَ برواتبِهم وتعويضاتِهم وبدأوا يسلكونَ طُرقاً أخرى في البحثِ عن عملٍ، فيما تجنّدَ بقيّةُ العمّالِ لعقدِ الجمعيّاتِ العمومية والاجتماعاتِ تلوَ الأخرى آملين في غدٍ أفضلَ.

استغلّتِ الصّحافةُ استغلالاً متمادياً ما بدأ يُطْلَقُ عليه اسم «أكبر عمليّة احتيال في هذا القرن». وتحوّلت التّحليلاتُ والتّعليقاتُ إلى حلقاتٍ متسلسلةٍ على صفحاتِ الصّحفِ منذ أن تولى القضاءُ الجزائريُّ ونظيره الفرنسيُّ القضيّة. ومع تقدّمِ التّحقيقِ أخذت الاعترافاتُ تتلاحقُ.

تعرّضتْ مكاتبُ الإدارة العامّة للهولدينغ في «بيرخادم» لهجومٍ ليليٍّ وأُفْرغت من محتوياتها الخزائنُ الحديديّةُ برغم ختمها بالشّمعِ الأحمرِ. كما تعرّضتْ مكاتبُ شركةِ خُرطال أيرويز وخُرطال بنك في مرسيليا للسّطو. وسلِبت الاسطوانات المدمّجة لأجهزة الحاسوبِ وأفرغت من محتوياتها.

استمرّتْ في الجزائرِ العاصمةِ، ملاحقةُ خُرطال. ألقى إفلاسُ الهولدينغ بمئةً وعشرين ألفَ شخصٍ في الشّارعِ، فيما البطالةُ تقتربُ من 30% في البلادِ. وبلغَ مقدارُ الدّيونِ حسبَ تقديراًت الـ 4% من دخلِ الجزائر القوميِّ العامِّ.

في لندن، أصبحَ رياض خُرطال هذا الرّجلُ المحطّمُ معتاداً التّنَزُّهَ في «الهايد بارك» يومياً غارقاً في حزنٍ عميقٍ. يقومُ بنزهتِهِ اليوميّةِ على مدى ساعةٍ ونصف الساعة حاملاً بيدِهِ فنجانَ قهوةٍ يشتريهِ من محلّ تشيبو، مرتديًا بدلته المفصّلة عند آرماني. يمشي بخطًى بطيئةٍ، نظراتُه بعيدةٌ شاردةٌ، إنه أشبهُ بالمُهلوس.

تلقّى رياض بعدَ يومينِ مصيبةً إضافيّةً: نشرتْ صحيفةُ Le Soir d’Algérie صورةً عن وثيقةٍ تتضمنُ مذكّرةَ توقيفٍ دوليّةٍ في حقّهِ أصدرتْها محكمةُ الجزائر ووُزّعتْ على الأنتربول.

حُكِمَ على رياض غيابيّاً في أوّلِ دعوى بتهمةِ تهريبِ الأموالِ بطريقةٍ غيرِ قانونيّةٍ إلى الخارجِ؛ جُرِّدَتْ زوجتُهُ من جوازِ سَفَرِها وأصبحت تعيشُ تحتَ الرقابةِ القضائيّةِ مع ابنتهما الّتي تبلغُ من العمرِ خمسةَ أعوامٍ في باريسَ في مُلكاً خاصاً Le Champ de Mars شقّةٍ مساحتُها 200 مترٍ مربّعٍ اشترتْها في.

في 10 نوفمبر/تشرين الثاني أعطى رياض خُرطال من لندن صحيفة Le soir d’Algérie المقابلة الصّحفيّةَ الوحيدةَ. عندما طلبَ منهُ الصّحافيّ أن يفسّرَ لهُ ما الّذي أدىّ إلى انهيارِ الهولدينغ نظراً إلى سُرعتِها في الارتقاءِ وسُرعتِها في الانهيارِ، أجابَ دون مواربة:«نحن بدأنا نشعرُ بالضغطِ ابتداءً من يونيو/حزيران 2002. ولكن قبلَ ذلك، أريد أن أحدّدَ أنه برغم تعبئةِ كلِّ الوسائلِ القانونيّةِ واسترداد التراخيصِ والحجوزاتِ المختلفة وجميع الأمورِ الأخرى لم تمُتْ مجموعة شركاتنا. وقد استمرّ الوضعُ على هذهِ الحالِ عاماً ونصف عام. لا يمكنُ أيّة مجموعةٍ تجاريّةٍ أخرى أن تصمدَ في مثلِ هذه الظروف. نعودُ إلى عمليّةِ الانهيار. أتذكرُ عندما وُجِّهتْ حملةٌ إعلاميّةٌ في سبتمبر/أيلول 2002 بشكلٍ قويٍّ ضدّ خُرطال هولدينغ؟ عندئذ كتبتِ الصّحفُ، معتمدةً على التقاريرِ الوهميّةِ الصادرةِ عن دائرةِ الإستعلاماتِ والأمنِ الخارجيّ (DGSE) ، أنني كنتُ على وشكِ الإفلاسِ وأنّ الطّائراتِ كانتْ فارغةً. أيّ، باختصارٍ، أنّ المجموعةَ

تحدّثتْ عنّي. بعدَ إجراءِ [29] «Metro» كلّها غيرُ قابلةٍ للاستمرارِ. حتّى صحيفة التّحقيقِ، تأكّد أن هذه الحملةَ موّلتها مؤسساتٌ فرنسيّةٌ إعلاميّةٌ ترمي إلى زرعِ البلبلةِ. وما يثيرُ الضّحكَ هو موقِفُ صحيفةِ Le canard enchainé الكاريكاتورية الّتي سبق أن نشرتِ المقالَ الوحيدَ لمصلحتي غيرَ أنّها غيّرتْ رأيَها فجأةً ونشرتْ عكسَهُ تماماً في الأسبوعِ التالي».

في تلك المقابلةِ الصّحفيّةِ الطّويلةِ، لم يكشفْ رياض أيّ شيءٍ عن المتآمرين، وعن الّذين يشنّونَ الحربَ عليه. إلاّ أنّهُ كشفَ عن أمرٍ يثيرُ الإرباك: حسبَ ما وردَ في كلامِهِ، لقد تركَ أكثرَ من 80 مليون دولار في خزائنِ وحساباتِ خرطال بنك.«أينَ ذهبَ ذلكَ المالُ؟ لماذا لم يُشِر المتصرفُ الإداريُّ ومأمورُ التّصفيةِ بأيّةِ كلمةٍ إلى ذلك؟» سأل رياض.

وأخيراً، رُفِعتِ السّتارةُ. اللغزُ لم يكن سوى نتيجةٍ للصّبابيةِ. معْ سُقوطِهِ المدوّخِ، فَقَدَ الجميعُ أوهامَهم الأخيرةَ في شأن موضوعِ إمبراطوريّة خُرطال. والسّؤالُ الّذي يفرضُ نفسَهُ هو معرفةُ هل كانتْ تلكَ الجريمةُ الاقتصاديّةُ وعمليّةُ النّصبِ الضّخمةُ المكشوفةُ هذه ستبقيانِ بدونِ عقابٍ.

انطلقتِ السّلطاتُ العامّةُ على قدمٍ وساقٍ في دعوى ضخمةٍ. استمرّ التّحقيقُ مُدّةَ عامين، واستُمع إلى أكثر من 5000 شخصٍ. جميعُ أولئك الّذين استغلّوا واستفادوا من أموالِ خُرطال أخذوا يشحذونَ سكاكينَهم من أجلِ ذبحِ الدّابّةِ النّجِسةِ والانتقامِ ممّن قامَ بهذه الخيانة.

أدّى هذا التحقيقُ القضائيُّ إلى إدانةِ المئاتِ. 124 شخصاً تحديداً من بينهم مسؤولونَ سابقونَ في هولدينغ خرطال وفي فروعه. بعضُ هؤلاء وُضِعَ تحتَ الرّقابةِ القضائيّةِ وسُجِنَ بعضهم الآخر. المسؤولونَ الكبارُ في أجهزة الدّولةِ الّذين يعتبرون أنفسَهم أذكياءَ كانوا متورّطينَ في هذه القضيةِ لكنّهم استفادوا من تساهلِ القضاءِ لأنّهم مسؤولونَ كبار ليس غير.

وذاتَ مساءٍ على رمالِ شاطئ مدينةِ القليعةِ، وقفَ رجلٌ أمامَ نارٍ كبيرةٍ على شكلِ نارِ مخيّمٍ ضخمةٍ يلقّمُها أكوامًا كبيرة من الوثائقِ الّتي كانتْ تصبُّها شاحنتانِ تنقّلتا طوالَ اللّيلِ بين المقرِّ الرّئيسيّ لخُرطال بنك وهذا الشاطىء.

يبدو أنَّ هذه الوثائقَ ليست ذات أهميةٍ. كان هذا قرارَ مصفّي الشّركةِ في ظلِّ إجراءاتِ التّحقيقِ القضائيّ الجاريةِ. في الوقتِ الّذي كانتْ ألسنةُ اللهبِ تمحو آثارًا، كانتْ سياراتٌ متينة من نوعِ 44 تحومُ حولَ المكانِ طوالَ اللّيل من أجلِ ضمانِ أمنِ مستعملي هذا الشاطئ وسلامتهم خلالَ هذهِ اللّيلةِ.

إنّ ألسنةَ النّارِ تظلُّ أحسنَ المزيلاتِ لبقعِ الأوساخِ ولكلِّ الشوائبِ. فمعْ بزوغِ الفجرِ يصحو العالمُ، وتنطفئُ هذه النارُ، وترتفعُ من البحرِ نسماتُ الهواءِ العليلِ، تهبُّ على الرّمادِ الدافئ المتبقّي من الوثائقِ المحروقةِ وتبعثرُهُ في جميع الأرجاء. هكذا تبقى الوثائقُ صامتةً إلى أبدِ الآبدين. فيما لا يزالُ رياض خُرطال رئيسُ مجلسِ إدارةِ الهولدينغ هارباً في إنكلترا...

9. هي صحيفة توزع مجّاناً في المترو الفرنسي.

الفصل السّادس والعشرون

التّهديد

في ختامِ قراءةِ التّقرير المُقدّمِ إلى اللّواءِ، بحضورهِ شخصيّاً واثنينِ من مساعديه، ذكّرَ المسؤولُ الكبيرُ بالتّصريحِ الّذي أدلى به وزيرُ العدلِ أمس: «إن العدالةَ ستحاسبُ كلّ متورِّطٍ في هذه القضيّة».

قال اللّواءُ بجفافٍ وهو يشعلُ سيجارَهُ:

ـ«سيكونُ مفيداً جدّاً للتّحقيقِ لو يكشفُ خُرطال أوراقَهُ وأسرارَهُ المتوقّعة، لأنّه يجبُ ألاّ يكونَ هناكَ شيءٌ فوقَ القانونِ، وفي هذا الإطارِ، يجبُ ألاّ تكونَ هناك حدودٌ مرسومةٌ سلفًا، من أيّةِ طبيعةٍ كانت».

كان محمود في عداد أؤلئكَ الّذين لا يبنونَ أوهامًا على نتائجِ المساوماتِ الجاريةِ بينَ الجزائرِ ولندنَ من أجلِ احتمالِ تسليمِ خُرطال إلى سلطاتِ بلادِهِ.

في لندنَ، كان رياض خُرطال لا يزالُ يحاولُ الابتعادَ عن الأنظار. لم يعدْ يتردّدُ إلى الملاهي الليليّةِ ولا إلى المطاعمِ الفاخرةِ. أصبحَ يتنقّلُ بسيّاراتِ الأجرةِ كجميعِ النّاسِ برغم الثّمانينَ مليونَ دولارٍ الّتي أعلنَ أنّهُ يحتفظُ بها في الخزنةِ.

لقد تركَ أجنحةَ الدوركستر الرّائعةَ الّتي تقعُ على الجهةِ المقابلةِ لِلهايد بارك كي يقيمَ في شقّةٍ أكثرَ عزلةٍ في الضّواحي منذُ بدايةِ متاعِبِهِ معَ القضاءِ. ذاتَ صباحٍ، خلال نزهتهِ اليوميّة، فيما كان ماك غوير يعرضُ له أقوالَ الصّحفِ الجزائريّةِ والمقالاتِ العديدةِ الّتي تُربِكهُ، انتابهُ غضبٌ شديدٌ. طلبَ من سكرتيرهِ الشّخصيّ أن يتّصِلَ بأصدقائهم في الجزائر.

ـ «سأعقدُ مؤتمراً صحافيّاً، في مدينة الجزائر نفسها! فليدعُ أصدقاؤنا الصحافيين إلى المطار. سنعودُ بعد ثلاثةِ أيّامٍ. سأتكلّمُ بصراحةٍ وأوقِفُ هذه المهزلة الّتي دامت طويلاً. ليقولوا للصّحافةِ إنّني سأكشفُ أسماءَ أصحابِ المناصبِ الكبيرةِ الّذين استفادوا من البطاقاتِ المصرفيّةِ الذّهبيّةِ الّتي استعملوها بطريقةٍ استغلاليّةٍ، ومن بطاقاتِ اعتماداتٍ مصرفيّةٍ غيرِ المُسدّدةِ، ومن تذاكرِ السّفرِ المجّانيّة! أمّا الباقي فسيحينُ وقتُهُ المناسبُ».

ـ «ولكن لن تتمكّنَ من الاقترابِ من الصحافيين لدى وصولنا إلى مدينةِ الجزائر. سيأتونَ لتوقيفك عند أسفلِ سُلَّمِ الطّائرة. سينفّذونَ أمرَ مُذكّرةِ التّوقيفِ». قال له بوب ماك غوير.

ـ «سنأخذ الصّحافيّينَ معنا في الطائرةِ. سأُدلي بتصريحاتي على متنِ الطّائرة. لا يمكنُهم فعلَ شيءٍ. سيكونُ الصّحافيونَ الّذين سنصحبهم جوازَ مرورِنا والشّهودَ على اعتقالنا».

ـ «في هذه الحالةِ، سنستقدمُ أربعةَ أو خمسةَ صحافيّينَ من الجزائر والأكثريّة من هنا ومن باريسَ. سندفعُ ثمنَ تذاكرِ الذّهابِ. لا بأسَ من فكرةِ الدّرعِ الواقية». قال بوب.

في آخر اليوم الرّابعِ، شهِدَ مطارُ الجزائر هيجاناً غيرَ مألوفٍ. احتشدَ تقريباً 200 صحافيّ وتقنيّ ومراسل صحيفةٍ معتمدٍ في الجزائرِ وكثيرٌ من الفضوليّينَ في انتظارِ هبوطِ طائرةِ الجتّ «بومبارديه» الخاصّةِ برياض خُرطال الّتي أُعلِن أنّها ستصل في السّاعةِ الرابعةِ ظهراً.

كان محمد لقرع (المسؤول الإعلامي السّابق في الهولدينغ) تحتَ وقعِ الإثارةِ البالغةِ. زهرا، المتحمّسةُ أيضاً تحاولُ التّخلُّصَ من الشعورِ الأصمِّ الّذي ليس له حدودٌ واضحةٌ، والّذي يخنقها أكثر فأكثر مع مرور الثّواني.

وفي مقدّمهم (CERIF) بعضُ أعضاء خليّةِ المعلوماتِ والتّحريّاتِ الماليّة محمود، كانوا يتناقشونَ مع بعضِ مديريّ الصّحف.

كان البروفسّور والسّيناتور عاجزَينِ عن إخفاء قلقِهما، يروحانِ ويجيئانِ تحتَ سقيفةِ محطّةِ المطار. الصّحافيّونَ يقفونَ في مجموعاتٍ صغيرةٍ مطلقينَ العنانَ لأفكارِهم المتضاربةِ. في السّاعةِ الرّابعةِ ما بعد الظّهر، أكّدَ محمد لقرع للجميعِ أنّ طائرةَ الجت الخاصّة بخُرطال قد أقلعتْ من مطارِ هيثرو في الوقتِ المحدّدِ وعلى متنِها رياض خُرطال ومدعوّوه. وفي السّاعةِ الخامسةِ لم تحطَّ أيّةُ طائرةِ جت. بدأ الجوّ يوحي الثقل الكبير وكثُرتِ الابتساماتِ الصّفر المعبرةُ عن مشاعرِ الخوفِ البادية على ملامحِ وجوهِ بعضِ قدامى موظّفي الهولدينغ الّذين أشرفوا على تنظيمِ هذا الحدثِ والاستقبالِ والمؤتمرِ الصّحافيِ لرياض خُرطال.

في السّاعةِ السادسةِ، أصبحَ الوضعُ مُقلقاً أكثر فأكثر. حلّ الشّكَّ محلّ القلقِ. أخذتِ الشائعاتُ الغريبةُ تتلاحقُ في كلِّ لحظةٍ. بعد نصفِ ساعةٍ ارتجلَ محمد لقرع مع المسؤولِ القديمِ عن التّدريبِ في شركةِ خُرطال للطّيرانِ ندوةً صحافية قصيرة، كان وجهُ لقرع شاحبًا وصوتُهُ مختنقًا لشدّةِ انفعالِهِ وهو يعلنُ للصّحافيّينَ أنّ الطّائرةَ الّتي تقلُّ رياض خُرطال والمدعوين قد اختفتْ في البحرِ المتوسّطِ. آخرُ اتّصالٍ لها مع برجِ المراقبةِ في برشلونة كان في السّاعةِ الثالثةِ ما بعد الظّهرِ أشارتْ فيهِ إلى أنّها تتّجه جنوباً، ومذّاك انقطعَ الاتّصالُ. أطلقتِ الحكومتانِ الإسبانيّةُ والبرتغاليّةُ عمليّاتِ البحثِ عن الطّائرةِ وركّابها. انتابَ الحشد اضطرابٌ كبيرٌ. أذاعَ التلفزيونُ المحلّيُّ والإذاعاتُ الخبرَ في نشراتها المتتاليةِ وأكّدت أنّ زورقينِ حربيّينِ من البحريّةِ الوطنيّةِ استعدا للاِنضمام إلى فرقِ البحثِ الإسبانيّةِ والبرتغاليّةِ والفرنسيّةِ.

اِحْتَلَّ الخبرُ العناوينَ العريضةَ متصدِّرًا الصفحات الأولى لجميعِ الصُّحفِ بدون استثناء، نقرأ فيها على وجه الخصوص: «اختفى بالبحرِ حاملاً معهُ أسرارَه»، «حادثةُ ماكسويل تتكرّرُ مجدّداً على يدِ خُرطال»، «إلى متى الإفلاتُ من القصاصِ؟»، «لن تجري المحاكمةُ في قضيّةِ القرن»، «قضيّةُ خُرطال، الغموضُ الكبير»، «لن يكون هناك أيّ داعٍ لِقلقِ كبارِ الشّخصيّاتِ المُتنفِّذة بعد الآن».

لقد جاء حادِثُ اختفاءِ رياض خُرطال لينشُرَ الغموضَ على هذه القضيّةِ بعد وفاةِ محمّد علوي مديرِ عامِ مصرفِ خُرطال في السّجنِ، وبعد إدخالِ المدير العام لشركة طيران خُرطال وزوجتِهِ إلى المستشفى بشكلٍ طارئٍ إثرَ الاستجواب الأخير الّذي أجراه معهما قاضي التّحقيقِ المسؤول عن الملفِّ في الجزائر، من جهة. ومن جهةٍ أخرى، التّرقيةُ الّتي نالتها أخيراً القاضية إيزابيل بريفست ديسبيز كي تصبحَ نائباً لرئيس محكمة «نانتير» الّتي تخلّتْ بذلك عن الملفِّ رسميّاً، وأخيراً اغتيالُ الضّابطينِ منصف ساسي الملقّبِ بماريو وإدريس بوخدنه أثناء تأديةِ واجبهما، ومحاولةُ الاغتيالِ الإرهابيّة الّتي كانت تستهدِفُ العقيد محمود والّتي راح ضحيّتها ابنه الصّغير كريم.

كان الحديثُ الّذي دارَ قبلَ ساعةٍ بينه وبين اللّواء لا يزال يتردّدُ في رأسِ محمود. استشفَّ منه بارقةَ نصرٍ مؤكّدة في المستقبلِ القريبِ في شأن هذهِ الغرغرينا الّتي تأكلُ البلاد. من غير أن يوضح ذلك على نحو جليّ.

ـ «أنا آسف، أيّها العقيد، إنّي أرفُضُ استقالتك».

ـ «أنا تَعِبٌ سيّدي اللواء. أحتاجُ إلى الرّاحة». أجابه محمود.

ـ «سافرْ مجدّداً وتسلّم منصباً في الخارج. بإمكانكَ أنتَ أن تختار: ليكنْ سفرُكَ لتتولّى منصبَ نائبِ القنصلِ في بوردو، ولكنّ هذا المنصبَ مدنيّ ولا يمكنكَ أن تغادر المؤسّسة. أنا أنصحكَ بأن تسافرَ وتتسلّم منصبَ مُلحقٍ عسكريٍّ في دبلن في أيرلندا بعيداً من كلِّ شيء ومن كل ما جرى. لقد مررتَ بتجاربَ قاسية. سيكونُ منصباً مريحاً لك وبإمكانك أن تستعدّ لمرحلة تقاعدِكِ؛ استعدَّ للسّفرِ هذا الصّيف». قال له اللّواء.

قدّم جنديّ لهما الشايَ بالنّعناع.

ـ «أيّها العقيد، اسمحْ لي؛ لقد أنجزنا عملاً رائعاً. كانت مؤسفةً تلك الحوادثُ الأخيرة، لقد حرمَنا اختفاءُ خُرطال من النّصرِ النّهائي. كنا نريدُ أن يكونَ عبرةً لتنظيفِ البلادِ من الأوباش».

كانتْ هذه الكلماتُ لا تزالُ ترِنُّ في رأسِ محمود فيما كانتِ السّيّارةُ تتقدّمُ بسرعةٍ على الطّريقِ الشّرقيّ. وجّهَ محمود ضربةً قوّيةً من قبضةِ يدهِ على المِقود.

ـ «تفاهة! تفاهة!»

لاحظ محمود من خلالِ مرآةِ سيّارتِهِ شاحنتين نصفَ قاطرتينِ تستعدّانِ لتجاوزِهِ؛ الشّاحنتانِ اللّتانِ تسيرانِ الواحدة خلف الأخرى وتجاوزتاهُ، مرسومٌ على جانبيهما صّورةٌ لمؤسّسةٍ غنيّةٍ حديثة النشأةِ بدأت تتألّقُ هي الأخرى وتتـألّقُ وتتألّقُ...

هزّ محمود رأسَهُ، معبّرًا عن الرفضِ. شَغَّلَ جهازَ التّسجيلِ في سيّارتِهِ، فملأ السيارة صوتُ كيرت كوبان ذو النبرات الحزينة: ماذا يجبُ عليّ أنْ أكونَ
مع كلّ اعتذاري
ماذا يجبُ عليّ أنْ أقولَ
ُ

الكلّ فرحان

What else should I be

All apologies

What else should I say

Everyone is gay
ماذا يجبُ عليّ أنْ أكتبَ
ليس لديّ الحقّ
ماذا يجبُ عليّ أنْ أكونَ
معْ كلّ اعتذاري

What else could I write
I don’t have the right

What else should I be

All apologies

واختفتِ السّيّارةُ الكورولا بعيداً على الأوتوستراد.

الفصل السّابع والعشرون

على سبيل الخَتام

كانَ يمكِنُ الوقائع المذكورة في هذهِ الرّوايةِ أن تكونَ حقيقية. لكنّ خليّةَ المعلوماتِ والتّحريّات الماليّة (CERIF) لم يكنْ لها أيُّ وجودٍ أصلاً.

حول الكتاب

نبذة عن الكتاب

«أكبر عمليّة احتيال في هذا القرن.»

بهذه الكلمات وصفت الصحافة الفرنسية سقوط إمبراطورية الثريّ العربي رياض خُرطال. ويتوغّل صلاح شكيرو في رواية تفاصيل ذلك السقوط المروّع وتداعياته في وسط رجال الأعمال والمال. ويكشف سلسلة من المكائد التي تُحاك بغية إزاحة الخصوم واحتلال مكانهم، ذاكراً أسماء المتورّطين وبعضهم مشاهير في الفنّ كالممثّل الفرنسي جيرار ديباردیو.

حوادث ودسائس وعلاقات حبّ عاصفة تدور في فرنسا ولبنان والجزائر وبلدان أخرى، جامعها المشترك السعي إلى الثراء والوجاهة. ومسرحها الأوّل مؤسّسات «ملك المال» الذي بدأ حياته المهنية في مشروع صغير وسرعان ما أصبح ذا نفوذ كبير. +++ رواية ذات نَفَس بوليسي يستند إلى لغة جذّابة وأسلوب شائق.

نبذة عن المؤلف

صلاح شكيرو صحافي وكاتب جزائري. شغل رئاسة التحرير في مجلّة الوحدة الأسبوعية طيلة 16 سنة ثم أصبح المدير العام لمؤسّسة الوحدة للطباعة والنشر. كاتب افتتاحية في صحف وطنية عديدة. التحق بالمؤسّسة الوطنية للاتصال والإشهار في 1995 حيث شغل فيها منصب مدير مركزي.